فن
المقامة العربية

نزار شاهين



دار البداية ناشرون وموزعون

فن المقامة العربية

نشأته ومنابعه اقطابه

نزار شاهين

الطبعة الأولى

2015م /1436 هـ



المملكة الأردنية الهاشمية

رقم الإيداع لدى دائرة المكتبة الوطنية (2014/6/3103)

811.9

المصري، نزار شاهين

فن المقامة العربية

نشأته ومنابعه اقطابه

/ نزار شاهين المصري، عمان، دار البداية ناشرون وموزعون، 2014

( ) ص.

ر.أ.: 2014/6/3103

الواصفات: /المقامات// الادب العربي/

* يتحمل المؤلف كامل المسؤولية القانونية عن محتوى مصنفه ولا يعبر هذا المصنف عن رأي دائرة المكتبة الوطنية أو أي جهة حكومية أخرى.



الطبعة الأولى

2015م /1436 هـ



دار البداية ناشرون وموزعون

عمان - وسط البلد - تلفاكس : 4640679 6 962+

ص.ب 184248 عمان 11118 الأردن

Info.daralbedayah@yahoo.com

خبراء الكتاب الأكاديمي

ISBN: 978-9957-521-41-7 (ردمك)

فَنُّ المَقَامَةِ العَرَبِيَّة

نَشْأَتُهُ وَمَنَابِعُه ... أَقْطَابُهُ وَأَسَاطِينُه

مَدَارِسُهُ وَمَذَاهِبُه

المَقَامَاتُ التُّرَاثِيَّةُ القَدِيمَة

لِلنَّاقِدِ الشَّاب

نِزَار شَاهِين

فَنُّ المَقَامَةِ العَرَبِيَّة

تنبيه

كِتَـابٌ قَـدْ حَـوَى دُرَراً
بِعَيْنِ الحُسْـنِ [مَنْظُـورَهْ]
لِـهَـذَا قُـلْـتُ تَنْبِيهَـاً :
[سِهَـامُ الغَضَبِ مَحْظُورَهْ] (١)

---

(١) ـ ما بين المُعقّفات من كلمات ؛ إنما هي من كيسي : [أَبُو نِزَار] .

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيم
الحَمْدُ لِلَّهِ وَحْدَهُ لا شَرِيكَ لَهُ ؛
وَصَلَّى اللهُ عَلَى مُحَمَّدٍ وَعَلَى أَبَوَيْهِ
إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيل ؛ وَسَلَّمَ تَسْلِيماً كَثِيراً .

۞ - إِهْـدَاء

❝ أَعْلَمُ يَقِينَاً أَنَّ الأَقْدَارَ قَـد آثَـرَتْنِى بِهَـذِا الـدَّوْرِ الجَلِيـل !!..... ؛ وَمَهْمَـا يَكُن مِـن أَمْرٍ ؛ فَإِنَّهُ لابُـدَّ مِـن أَن أُقِرَّ بِأَنَّـهُ لَـوْلا ثِقَتُكَ العَظِيمَـةُ فِى ثَقَافَتِى وَمَا فِى جُعْبَتِى مِن عِلْمٍ ؛ لَرُبَّمَا مَكَثْتُ زَمَنَاً طَوِيلاً أَبْحَثُ عَـن مَكَانٍ لِى بَيْنَ أَهْلِ الأَدَب !! ... ؛ فَلَكَ الشُّكْـرُ الَّذِى لا تَفْـنَى كَلِمَاتُهُ ؛ وَالـدُّعَاءُ الخَالِصُ ... ؛ الَّذِى لا يَفْرِضُهُ سِوَى الإِيمَانِ بِفَضْلِكَ الَّـذِى طَوَّقَنِى وَغَمَـرَنِى !!. ❞

إِلَى الأُسْتَـاذِ الفَـاضِلِ :

حسام حسين

نَـائِب رَئِيس مُؤَسَّسَـة أَطْلَـس

لِلنَّشْرِ وَالإِنْتَـاجِ الإِعْـلامِىّ

أُهْـدِى هَـذَا الكِتَـاب

۞ - تَصْدِير

📖📖📖📖📖

عَلَّمَتْنِي الحَيَاةُ أَنَّ المَجْدَ لا يُصْنَعُ بَيْنَ غَمْضَةِ عَيْنٍ وَانْتِبَاهَتِهَا !!... ؛ بَل المَجْدُ مَا هُوَ إِلاَّ خُطُوَاتٍ مِنَ الصَّبْرِ وَالكِفَاحِ وَالنِّضَال !!... ؛ فَاللهُ المُسْتَعَان .



۞ - مَدْخَلٌ

كَتَبَ النَّاسُ وَقَيَّدَوا وَمَلأَوا الصُّحُفَ وَالطُّرُوسَ وَالأَوْرَاق ... ؛ وَمَهْمَا يَكُن مِن أَمْرٍ ؛ فَإِنَّ هَذَا القَلَمَ إِن أَرَادَ أَن يَكْتُبَ أَتَى بِمَا لا يُظَنُّ أَن يَأْتِي بِهِ يَرَاع !!.



۞ ـ كَلِمَةٌ قُبَيْلَ الشُّرُوع :

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ أَمَّا بَعْدِ حَمْدِ اللهِ الَّذِى جَاءَ بِالأَشْيَاءِ مَعْرِفَةً وَعِلْمَاً ؛ وَجَعَلَ الإِحْسَانَ فِى جَوَابِ طَاعَتِهِ حَتْمَاً ؛ وَخَلَقَ الإِنْسَان ؛ وَعَلَّمَهُ البَيَان ؛ فَوَفَّرَ لَهُ مِنْهُ حَظَّاً وَقِسْمَاً .

وَالصَّلاةُ وَالسَّلامُ عَلَى نَبِيِّهِ الَّذِى هُوَ أَفْصَحُ مَن نَطَقَ بِالضَّادِ وَأَدَقُّ فَهْمَاً ؛ القَائِلُ :

﴿ إِنَّ مِنَ البَيَانِ لَسِحْرَاً ؛ وَإِنَّ مِنَ الشِّعْرِ لَحِكَمَاً ﴾ (١).

---

(١) ـ أَخْرَجَهُ الطَّبَرَانِىُّ فِى ((المُعْجَم الأَوْسَط)) ؛ [جـ ٧/ ١ ٣٤] ؛ [ح : ٧٦٧١] ؛ وَالحَاكِمُ فِى ((المُسْتَدْرَك)) ؛ [٣/ ٧١٠] ؛ [ح : ٦٥٦٩] :

مِن حَدِيثِ أَبِى بَكْرَةَ ـ رَضِىَ اللهُ عَنْهُ ـ ؛ قَالَ :

﴿ كُنَّا عِنْدَ النَّبِىِّ ـ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ـ ؛ فَقَدِمَ عَلَيْهِ وَفْدُ بَنِى تَمِيمٍ ؛ عَلَيْهِم : قَيْسُ بْنُ عَاصِمٍ ؛ وَعَمْرُو بْنُ الأَهْتَمِ ؛ وَالزِّبْرِقَانُ بْنُ بَدْرٍ .

فَقَالَ النَّبِىُّ ـ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ـ لِعَمْرِو بْنِ الأَهْتَمِ : مَا تَقُولُ فِى الزِّبْرِقَانِ ابْنِ بَدْرٍ ؟

قَالَ : يَا رَسُولَ اللَّهِ ! ؛ مُطَاعٌ فِى أَنْدِيَتِهِ ؛ شَدِيدُ العَارِضَةِ ؛ مَانِعٌ لِمَا وَرَاءِ ظَهْرِهِ .

قَالَ الزِّبْرِقَانُ : يَا رَسُولَ اللَّهِ ! ؛ إِنَّهُ لَيَعْلَمُ أَكْثَرَ مِمَّا وَصَفَنِى بِهِ ؛ وَلَكِنَّهُ حَسَدَنِى !! .=..............................

٣

....

فَقَالَ عَمْروٌ : وَاللّهِ يَا رَسُولَ اللّهِ !! ؛ إِنّهُ لَزَمِنُ الْمُرُوءَةِ ؛ ضَوُلُ العَطَنِ ؛ لَئِيمُ الْخَالِ ؛ أَحْمَقُ الْوَالِدِ !! ؛ وَاللّهِ يَا رَسُولَ اللّهِ مَا كَذَبْتُ أَوَّلاً ؛ وَلَقَدْ صَدَقْتُ آخِراً !! وَلَكِنِّى رَضِيتُ فَقُلْتُ أَحْسَنَ مَا عَلِمْتُ ؛ وَغَضِبْتُ فَقُلْتُ أَقْبحَ مَا عَلِمْتُ !! .

فَقَالَ رَسُولُ اللّهِ ـ صَلّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلّمَ ـ :

((إِنَّ مِنَ الْبَيَانِ لَسِحْراً !! ؛ وَإِنَّ مِنَ الشِّعْرِ لَحِكَمَاً !! .)) . ﴾ .أهـ .

وَقَالَ الطَّبَرَانِىُّ عَقِبَ إِيرَادِهِ :

((لَمْ يَرْوِ هَذَا الْحَدِيثَ عَن عُيَيْنَةَ : إِلاَّ سَعِيدُ بْنُ سُلَيْمَان ؛ تَفَرَّدَ بِهِ : الْحَسَنُ بْنُ كَثِيرٍ .

وَلا يُرْوَى عَن أَبِى بَكْرَةَ إِلاَّ بِهَذَا الإِسْنَاد .)) .

وَقَالَ العِرَاقِىُّ فِى ((تَخْرِيج أَحَادِيثِ الإِحْيَاء)) ؛ [جـ ١ / ٦٣٣] :

((ـ حَدِيث :

أن رَجُلاً أَثْنَى عَلَى رَجُلٍ عِنْد رَسُول الله ـ صَلّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلّم ـ ؛ فَلَمَّا كَانَ من الغَد ذَمَّهُ ؛ فَقَالَ عَلَيْهِ السَّلام : أَنْت بالأَمْس تُثنى عَلَيْهِ ؛ وَاليَوْمَ تَذُمُّه ؟!!

فَقَالَ : وَالله لقد صدقتُ عَلَيْهِ بالأَمْس ؛ وَمَا كذبت عَلَيْهِ اليَوْم ؛ إِنَّه أرضانى بالأَمْس فَقُلتُ أحسن مَا علمتُ فِيهِ ؛ وأغضبنى اليَوْم فَقُلتُ أقبح مَا علمت فِيهِ .

فَقَالَ عَلَيْهِ السَّلام : إِنَّ مِنَ الْبَيَان لَسِحْراً !!

أخرجه الطَّبَرَانِىُّ فِى الأَوْسَط ؛ وَالْحَاكِم فِى الْمُسْتَدْرَك : من حَدِيث أبى بكرَة ؛ إِلاَّ أنه ذكر الْمَدْح والذَّمّ فِى مجْلِسٍ وَاحِدٍ لا يَوْمَيْنِ .

■.................. ٤

وَرَوَاهُ الْحَاكِمُ من حَدِيث ابْنِ عَبَّاس أطول مِنْهُ بِسَنَدٍ ضَعِيفٍ أَيْضاً . » .

وَقَالَ الهَيْثَمِيُّ فِي « مَجْمَع الزَّوَائِد » ؛ [جـ ٨ / ١١٦ ـ ١١٧] ؛ [ح : ١٣٢٨٧] :

« رَوَاهُ الطَّبَرَانِيُّ فِي الأَوْسَطِ وَالْكَبِير : عَن مُحَمَّدِ بْنِ مُوسَى الإِصْطَخْرِيِّ ؛ عَنِ الْحَسَنِ بْنِ كَثِيرِ بْنِ يَحْيَى بْنِ أَبِي كَثِيرٍ : وَلَمْ أَعْرِفْهُمَا !! ؛ وَبَقِيَّةُ رِجَالِهِ ثِقَاتٌ . » .

وَقَالَ الهَيْثَمِيُّ فِي « مَجْمَع الزَّوَائِد » ؛ [جـ ٨ / ١٢٣] :

ـ « [بَابُ : إِنَّ مِنَ الشِّعْرِ حِكْمَةً ؛ وَإِنَّ مِنَ الْبَيَانِ سِحْراً]

١٣٣٢٤ ـ عَنْ بُرَيْدَةَ ؛ قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ـ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ـ : إِنَّ مِنَ الشِّعْرِ حِكْمَةً .

رَوَاهُ الْبَزَّارُ .

وَفِيهِ حُسَامُ بْنُ مِصَكٍّ : وَهُوَ مُجْمَعٌ عَلَى ضَعْفِهِ .

١٣٣٢٥ ـ وَعَنْ عَائِشَةَ : أَنَّ النَّبِيَّ ـ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ـ قَالَ : إِنَّ مِنَ الشِّعْرِ حِكْمَةً .

رَوَاهُ الْبَزَّارُ ؛ وَالطَّبَرَانِيُّ فِي الأَوْسَطِ بِأَسَانِيد ؛ وَأَحَدُ أَسَانِيدِ الْبَزَّارِ رِجَالُهُ رِجَالُ الصَّحِيحِ ؛ غَيْرَ عَلِيِّ بْنِ حَرْبٍ الْمَوْصِلِيِّ : وَهُوَ ثِقَةٌ .

١٣٣٢٦ ـ وَعَنْ أَبِي بَكْرَةَ : أَنَّ النَّبِيَّ ـ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ـ قَالَ : إِنَّ مِنَ الشِّعْرِ حِكْمَةً .

رَوَاهُ الطَّبَرَانِيُّ فِي الكَبِيرِ وَالأَوْسَطِ .

وَفِيهِ النَّضْرُ بْنُ طَاهِرٍ : وَهُوَ كَذَّابٌ .

صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَآلِهِ وَصَحْبِهِ ؛ صَلاةً يَعُودُ لَهُم بِهَا حَرْبُ الأَيَّامِ سِلْماً ؛ وَيَكْشِفُ عَن وَجْهِ الدَّهْرِ ظُلَماً وَظُلْماً ﴾ . (١)

١٣٣٢٧ ـ وَعَنْ عَمْرِو بْنِ عَوْفٍ ؛ قَالَ : سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ـ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ـ يَقُولُ : إِنَّ مِنَ الشِّعْرِ حِكْمَةً .

رَوَاهُ الطَّبَرَانِيُّ فِي الكَبِيرِ وَالأَوْسَطِ .

وَفِيهِ كَثِيرُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرِو بْنِ عَوْفٍ : ضَعَّفَهُ الْجُمْهُورُ ؛ وَحَسَّنَ التِّرْمِذِيُّ حَدِيثَهُ ؛ وَبَقِيَّةُ رِجَالِهِ ثِقَاتٌ .

١٣٣٢٨ ـ وَعَنْ أَنَسٍ ؛ عَنِ النَّبِيِّ ـ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ـ قَالَ : إِنَّ مِنَ الْبَيَانِ لَسِحْراً ؛ وَإِنَّ مِنَ الشِّعْرِ حِكْمَةً .

رَوَاهُ الطَّبَرَانِيُّ .

وَفِيهِ الْعَبَّاسُ بْنُ الْفَضْلِ الأَزْرَقُ : وَهُوَ مَتْرُوكٌ .)) .

قُلْتُ : وَقَد أَخْرَجَهُ البُخَارِيُّ [جـ١٩/٧] ؛ [حَدِيث رَقَم : ٥١٤٦] : مِن حَدِيثِ عَبْدِ اللهِ بْنِ عُمَر ـ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا ـ ؛ مُقْتَصِراً عَلَى طَرَفِهِ الأَوَّل : ((إِنَّ مِنَ الْبَيَانِ لَسِحْراً)) .

(١) ـ مُقَدِّمَة ((التذكرة الفخريَّة)) للصاحب بهاء الدين عليّ بن عيسى بن أبى الفتح الإربليّ (ت ٦٩٢هـ) .

وَبَعْد :

أتَانِى هَوَاهَا قَبْلَ أن أعْرِفَ الهَوَى
فَصَادَفَ قَلْبَاً خَالِيَاً فَتَمَكَّنَا!!

مَازِلْتُ وَاللهِ أذْكُرُهَا مَا أشْرَقَت شَمْسٌ أو أضَاءَ بَدْرٌ فِى صَفْحَةِ السَّمَاءِ الصَّافِيَةِ فِى سُكُونِ اللَّيْلِ الهَادِىءِ الوَدِيع !!... ؛ مَازَالَت وَرَبِّى هَاهُنَا فِى فُؤادِى !!... ؛ مَازَالَ قَلْبِى يَنْبِضُ بِاسْمِهَا الحَبِيبِ الغَالِى كُلَّمَا وَقَفْتُ وَحْدِى أُغَنِّى قَصَائِدِى الحَزِينَةِ فِى سَاعَةِ الغُرُوب !!... ؛ وَكُلَّمَا جَلَسْتُ فِى عُزْلَتِى فِى سَحَرِ لَيَالِى الشِّتَاءِ أتَسَمَّعُ وَقْعَ حَبَّاتِ المَطَر !!... ؛ للهِ دَرُّكِ يَا أسْمَاء !! ... ؛ وَاللهِ لَقَد أبْغَضْتُ النِّسَاءَ مِن بَعْدَكِ !!... ؛ فَإنَّ جَاهَدْتُ كَثِيراً مِن بَعْدِ رَحِيلَكِ كَى أظْفَرَ بِمِثْلَكِ ؟!!... ؛ وَلَكِنِّى عَجَزْتُ رَغْمَ تَجَارِبِى وَتَرْحَالِى !! ... ؛ أيْنَ هِىَ مَن تُشْبِهُك ؟!!... ؛ لَم أظْفَر بِشَبِيهَةٍ لَكِ !! ؛ بَل لَم أجِد مَن تَقْتَرِبُ مِن مَاهِيَّةِ رُوحُكِ وَكَيَانُكِ !!... ؛ بَل لَم أعْثُر عَلَى تُشَارِكُكِ فِى بَعْضِ صِفَاتَكِ !!... ؛ مُحَالٌ أن يَجُودَ الدَّهْرُ مَرَّتَيْن !!... ؛ وَلَئِن كَانَ ذَلِك ... ؛ فَلَن يَكُونَ مَعِى ؛ وَمَا ذَاكَ إلاَّ لأنَّهُ مَقْضِىٌّ عَلَىَّ بِالتَّعْسِ وَالشَّقَاء !!.

مَن كَانَ يَشْجَى بِحُبٍّ مَا لَهُ سَبَبٌ
فَإنَّ عِنْدِى لِمَا أشْجَى بِهِ سَبَبُ

؛ حُبِّيهِ طَبْعٌ لِنَفسِى لا يُغَيِّرُهُ
كَرُّ اللَّيَالِى وَلا تُودِى بِهِ الحِقَبُ

إن كَانَ لابُدَّ لِلعُشَّاقِ مِن عَطَبٍ
فَفِى هَوَى مِثْلِهِ يُستَغْنَمُ العَطَبُ

جَاهَدْتُ مُجَاهَدَةً رَهِيبَةً كَى أنسَى ذَلِكَ العَهْدَ الَّذِى كَان ... ؛ حَاوَلْتُ أن أبْتَعِدَ قَدْرَ الجَهْدِ عَن ذِكْرَى تِلْكَ الأَيَّامِ الخَوَالِى !!... ؛ وَلَكِنِّى كُنْتُ عَبَثاً أحَاولُ !!.... ؛ وَعُدْتُ فِى النِّهَايَةِ وَأنَا أحْمِلُ رَايَةَ الضَّعْفِ وَالعَجْزِ وَالحِيرَة !!... ؛ فَسُبْحَانَ مَن بِيَدِهِ أمْرَ القُلُوبِ وَالأفْئِدَةِ وَالمَشَاعِرِ !!

قَضَى اللهُ يَا أسْمَاءُ أن لَسْتُ زَائِلاً
أحِبُّكِ حَتَّى يُغْمِضَ العَيْنَ مُغْمِضُ
إذَا مَا صَرَفْتُ القَلْبَ فِى حُبِّ غَيْرِهَا
..... ؛ إذَا حُبُّهَا مِن دُونِهِ يَتَعَرَّضُ
فَيَا لَيْتَنِى أقْرَضتُ جَلْداً صَبَابَتِى
وَأقْرَضَنِى صَبْراً عَلَى الشَّوْقِ مُقْرِضُ

أتَدْرِينَ كَيْفَ أنتِ عِنْدِى يَا أسْمَاء ؟!!... ؛ أتَعْلَمِينَ كُنْهَ نَظْرَتِى إلَيْكِ ؟!!... ؛ أأخْبَرَكِ أحَدٌ مَا هُوَ أمْرِى بَعْدَ أن غَابَت عُيُونُكِ مِن حَيَاتِى ؟!!... ؛ إلَيْكِ

جَوَابِى أَيَّتُهَا الغَالِيَة :

(ـ

✿ ـ تَرْنِيمَةُ الأَوْرَاقِ الأَخِيرَةِ .... ؛ فِى السِّفْرِ الَّذِى !!... ؛ مَا عَرِفَ القَدَاسَة

أَسْمَاءُ يَا وَجَعَ الفِرَاقِ المُؤْسِفِ !!

وَخَدِى احْتَرَقَتْ ؛ وَذِى حَقِيقَةُ مَوْقِفِى !!

... ؛ أَسْمَاءُ يَا هَمَّ البِعَادِ بِلا رَجَا !!

.. ؛ مَاذَا يُفِيدُ تَوجُّعِى وَتَلَهُّفِى ؟!!

وَخَدِى ابْتُلِيتُ وَلا دَوَاءَ بِمِثْلِهَا !!

قَرِحَت شُئُونُكِ يَا عُيُونُ فَكَفْكِفِى !!

؛ سَئِمَ الزَّمَانُ حِكَايَتِى وَتَلَدُّدِى !!

... ؛ يَا مَوْتُ هَاكَ تَوَدُّدِى وَتَزَلُّفِى !!

إِن لَم يَكُن فِى المَوْتِ إِلاَّ رَحْمَتِى !!

لَكَفَى ؛ فَكُن يَا مَوْتُ كُن لِى مُسْعِفِى !!

صَرَخَت طُلُولُ الحَىِّ وَيْلَكَ لا تَعُد !!

فَأَجَبْتُ لا أَدْرِى !! ؛ وَصَبْرِى لا يَفِى !!

أَسْمَاءُ يَا أَلَقَ البَرَاءَةِ وَالهَوَى !!... ؛ يَا فِتْنَةَ السَّنَوَاتِ يَا مَهْدَ الأُلَى ... ؛ قَد سَطَّرُوا فِى الكُتْبِ كَيْفَ الحُبُّ !!... ؛ مَا سِرُّ الصَّبَابَةِ وَالجَوَى !!... ؛

يَا نَسْمَةً مَادَت عَلَى رُوحِي لِحِقْبَةَ مِن زَمَن !!... ؛ حِينَ اقْتُلِعْتُ مِنَ المَوَاطِنِ كُلِّهَا !!... ؛ وَبَقِيتُ مَعْزُولاً بِلا اسْمٍ وَلا أَرْضٍ ؟!!... ؛ كَانَت حَقِيقَتُكِ البَرِيئَةُ !!... ؛ لِى وَطَن !!... ؛ بِالبَسْمَةِ السَّكْرَى تَحَوَّلْتُ النَّبِيَّ المُنْتَظَر !! ... ؛ وَبِلَحْظَةِ العَوْدِ الوَجِيعِ رَأَيْتَنِى !!... ؛ مَلْعُونٌ قَد حُرِمَ الأَمَل !! ... ؛ رُوحِي تَجَلَّت مِثْلَ مَسْخٍ !!... ؛ لَم تَعُد تُنْسَب !!... ؛ لأَيَّامِ البَشَر !! ... ؛ قَد عُدتُ !!

قَد عُدتُ لَم أَجْنِ أَحْلامِي وَلا فَرَجِي
لَم يَبْقَ مِن بَعْدِ تَرْحَالِي سِوَى شَبَحِي
... ؛ عَصْرُ المَرَائِيَ قَد وَلَّى ؛ وَهَأَنَذَا
.... : أُنْشُودَةُ الثُّكْلِ مِن قِيثَارَةِ الجُرْحِ
وَحْدِى صُلِبْتُ ... ؛ بِلا جُرْمٍ أَتَيْتُ بِهِ
. ؛ لَم يُجْدِ عِنْدَهُمُ قَوْلِي وَلا شَرْحِي
... ؛ وَحْدِى قُبِرْتُ بِلا دَمْعٍ وَلا كَفَنٍ
...... ؛ وَمَرَّ قَوْمِي بِلا شَجَنٍ وَلا تَرَحِ
وَحْدِى نُسِيتُ ؛ أَنَا وَحْدِى ؛ وَكَم سَخِرَت
بِى الحَيَاةُ .... ؛ وَغُلَّ العَزْمُ فِى مَرَحِ
.. ؛ وَحَطَّمَت سَيْفَ آمَالِي بِلا سَبَبٍ
..... ؛ وَغَادَرَتْنِى بِلا حِصْنٍ وَلا صَرْحِ

إِذَا دَارَت بِنَا الدُّنْيَا وَضَاعَت عِنْدَ أَقْدَامِي جَلِيَّاتُ الحَقَائِقْ !!... ؛ إِذَا ذَوَت الغُصُونُ هُنَاكَ بِوَسْطِ صَمْتِ مَوَاجِعِي فَتَحَوَّلَت أَغْلالُ !!... ؛ أَو صَارَت مَشَانِق !!... ؛ إِن صَارَ لَوْنُ الجَدْوَلِ المُنْسَابِ قَانٍ !!... ؛ مِن دَمِي !!... ؛ إِن جَاءَت الغِرْبَانُ تَنْهَشُ مَا تَنَاثَرَ مِن بَقَايَا أَعْظُمِي !!... ؛ لَو صِرْتُ مَاضٍ قَد تَلاشَى وَقِيلَ أَضْحَى مَحْضُ ذِكْرَى لَم يَعُد فِي الأَرْضِ نَفْسًا ؟!!... ؛ فَبِرَغْمِ ذَوْبِ جَمِيعِ أَشْلائِي فَإِنِّي لَسْتُ أَغْفَلُ !!... ؛ إِي وَإِنِّي ؟!!... ؛ لَسْتُ أَنْسَى !!

.....

عِنْدَ احْتِضَارِي !!... ؛ عِنْدَ احْتِضَارِي أَسْأَلُ الرَّحْمَنَ يُلْهِمَنِي التَّشَهُّدَ بِاسْمِهِ مِن خَوْفٍ أَن يَسْبِق لِسَانِي بِذِكْرِ حُبِّيهَا المُقَدَّس !!... ؛ حُبِّي أَنَا المَعْصُومُ !! ... ؛ بَيْنَا العِشْقُ فِي زَمَنِي كَلامٌ سَاحِرٌ !!... ؛ وَبُعَيْدَهُ يَغْدُو الهَوَى !!... ؛ عِشْقٌ مُدَنَّس !!

.....

تَتَلاشَى مِن قَامُوسِ أَشْعَارِي تَرَاتِيلُ الحَيَاةِ جَمِيعُهَا !!... ؛ تَغْدُو عَوَالِمُ رِحْلَتِي صَرَخَاتُ شَيْطَانٍ بِأَرْضٍ كُلُّ مَا فِيهَا خَوَاء !!... ؛ وَأَعُودُ لِلخُلْدِ لِلدُّنْيَا الَّتِي بِالأَمْسِ كُنْتُ أُرِيدُهَا !!... ؛ وَأَعُودُ حَسْبٌ إِذَا مَا قُمْتُ فِي صَمْتِ اللَّيَالِي المُمْطِرَه !!... ؛ وَصَرَخْتُ فِي فَضَاءَاتِ كَوْنٍ شَاحِبٍ !!... : إِنِّي أُحِبُّكِ لَم أَزَل !!... ؛ إِنِّي أُحِبُّكَ يَا كَيْنُونَتِي الأُولَى !!... ؛ أُحِبُّكِ أَنْتِ يَا أَسْمَاء !!

.....

وَحَمَلْتُ جُرْحِي عَلَى أَكْتَافِيَ العَذْرَاء !!... ؛ أَمْشِي كَإِنسَانٍ وَرُوحِي !! ... ؛ كُنْهُهَا أَشْلاء !!

.....

أَسْمَاءُ مَا هَانَت !!... ؛ وَظَنِّي أَنَّنِي رَغْمَ التَّشَتُّتِ أَنَّنِي مَا هُنْت !!
لَو أَنْظُرُ العَيْنَيْنَ قَبْلَ رَحِيلِ سَنَوَاتِي ؟!!... ؛ لَن يَذْكُرَ التَّارِيخُ فِي كُتُبِ الهَوَى إِن جَاءَ دَوْرِي !!... ؛ أَنَّنِي قَد مِت !!
لَو غَادَرَ العُمْرُ الوَجِيعُ بِقَهْرِهِ ؟!!... ؛ وَبِآخِرِ اللَّحَظَاتِ جَاءَت تَرْقُبُ مَشْهَدِي عِنْدَ الرَّحِيلِ ؟!!... ؛ فَكُلُّ العُمْرُ أَنْت !!

.....

أَو لَو تَسَلْطَنَ مَن تَسَلْطَنَ فَوْقَ صَرْحِ عُرُوشِهِم !!..... ؛ وَبَقِيتِ أَنْتِ رَفِيقَتِي !! ... ؛ أَوَلَسْتُ أَعْظَمُ مَن مَلَكْ ؟!!
مَا مِن حِكَايَةِ عَاشِقٍ إِلاَّ وَتَفْنَى !!... ؛ إِن تَنَاسَى ... ؛ أَو هَلَكْ
أَمَّا أَنَا ؟!!... ؛ سَيَظَلُّ حُبِّي بَاقِيَاً مَادَامَ رَبِّي يَحْكُمُ الدُّنْيَا ... ؛ وَمَا دَارَ الفَلَكْ

.....

مَازِلْتُ أَعْزِفُ لَحْنَ أَيَّامٍ تَوَلَّت !!... ؛ مَازَالَ دَهْرِي رَاضِيَاً عَن كُلِّ عُشَّاقِ الهَوَى !!... ؛ إِلاَّ أَنَا !!.... ؛ يَا رُوحِيَ الثَّكْلَى وَيَا قَلْبِي المُعَذَّبَ وَسْطَ لَعْنَتِهِ !!... ؛ كُلُّ الكَآبَاتِ الَّتِي فِي عَصْرِنَا !!... ؛ صَارَت لَنَا !!
خَفَّف صَدَى تِلْكَ المَلاحِمِ يَا فَتَى !!... ؛ مَا عَادَ مِن أَحَدٍ هُنَا !!... ؛ مَا عَادَ مِن أَحَدٍ هُنَالِك !!

لَم يَبْقَ مِن تَرْحَالِ أَزْمِنَتِك ؟!!... ؛ سِوَى دَمْعِ المَسَالِك !!
لَم يُرَ قَلْبٌ كَقَلْبِك رُقِّعَت جَنَبَاتُهُ !!... ؛ إِى لَم
نَرَ فِى النَّاسِ شِبْهِكَ !!... ؛ لَم يَعُد حَالٌ كَحَالِك !!
إِن كَانَ عِيسَى قَد غَدَا وَالدَّمْعُ آيَتُهُ ؟!!... ؛ فَأَنَا
مَسِيحٌ !!... ؛ إِى وَأَحْلامِى !!... ؛
كَذَلِك !! .﴾ .(١).

مِنَ المُحَالِ أن أنسَى أو أُحَاوِلُ تَنَاسِيهَا !!... ؛ مِنَ اليَقِينِىٌّ عِنْدِى أَنَّنِى أَتَمَثَّلَ يَوْمَاً بِقَوْلِ القَائِل :

مِن حُبِّهَا أَتَمَنَّى أن يُلاقِينِى
مِن نَحْوِ بَلْدَتِهَا نَاعٍ فَيَنْعَاهَا !!
كَيْمَا أَقُولَ فِرَاقٌ لا الْتِقَاءَ لَهُ
وَتُضْمِرُ النَّفْسُ يَأسَاً ثُمَّ تَسْلاهَا !!

.....

لا أَدْرِى إِلَى أَيْنَ سَأَمْضِى ؟!!... ؛ كُلُّ مَا أَدْرِيهِ أَنَّنِى سَأَبْقَى دَائِمَاً ـ إِن شِئْتُ هَذَا أو أَبَيْتُ ـ سَائِرَاً فِى طَرِيقٍ مَجْهُولٍ !!... ؛ لا أَدْرِى كَيْفَ تَكُونُ خَاتِمَتِى ؟!! .

📖📖📖📖📖

---

(١) ـ من قَصَائِدِ دِيوانِى : ((التَّرْنِيمَةُ الأَخِيرَة))

أَسْأَلُ اللهَ أَن يُعَجِّلَ بِذَهَابِ الحَسَرَاتِ وَالهُمُوم ؛ بِتَأْيِيدٍ وَتَسْدِيد ؛ أو بِمَوْتٍ وَرَحِيلٍ عَن هَذِهِ الحَيَاة... ؛ مَا أَنْكَدَ العَيْشَ بِلا أَمَلٍ!!... ؛ اللهُ المُسْتَعَان.

أُرِيدُ أَضْحَكُ لِلدُّنْيَا فَيَمْنَعُنِى

أَن عَاقَبَتْنِى عَلَى بَعْضِ ابْتِسَامَاتِى !!

📖📖📖📖📖

قَالَهُ بِلِسَانِهِ ؛ وَقَيَّدَهُ بِبَنَانِهِ

البَازُ الأَشْهَر

الحَـارَةُ العَـتِـيـقَـة

مَدِينَةُ الرِّيَاض ؛ بِشَمَالِ الدِّيَارِ

المِصْرِيَّة

[٤ / ١١ / ٢٠١٢م]

❁ - بَيْنَ يَدَى الكِتَاب :

بسم الله الرحمن الرحيم

.....

- بَيَانُ مَنْهَجِى فِى إِنْشَاءِ
هَذَا الكِتَاب :

- أَستَطِيعُ أَن أَقُولَ فِى كَلِمَاتٍ مُوجَزَة :

كَتَبَ النَّاسُ فِى مَوْضُوع : ((فَنُّ المَقَامَةِ العَرَبِيَّة)) ؛ وَقَد جَاءَ دَوْرِى كَى أَتحَدَّث عَن هَذَا الفَنِّ الرَّائِقِ البَدِيع ؛ وَقَد صَنَعْتُ لِنَفسِى مَنْهَجاً يَهْدُفُ إِلَى التَّعْبِيرِ عَن هَذَا الفَنِّ بِإِحَاطَةٍ لَم تُسْبَق ؛ وَشُمُولِيَّةٍ لَم تُعْرَف مِن قَبْل !!.

- وَقَد تَنَاوَلْتُ هَذَا الفَنَّ مِن خِلالِ هَذِهِ الأَعْمَال - أو مِن خِلالِ تِلْكَ الأَجْزَاء - :

١-

فَنُّ المَقَامَةِ العَرَبِيَّة

نَشْأَتُهُ وَمَنَابِعُه ... أَقْطَابُهُ وَأَسَاطِينُه

مَدَارِسُهُ وَمَذَاهِبُه

المَقَامَاتُ التُّرَاثِيَّةُ القَدِيمَة

٢ـ

فَنُّ المَقَامَةِ العَرَبِيَّة

المَقَامَةُ العَرَبِيَّةُ فِى العَصْرِ الحَدِيث

﴿ مَنَاهِجُ الأَدَاء ..... واتِّجَاهَاتُ المَضَامِين ﴾

٣ـ

فَنُّ المَقَامَةِ العَرَبِيَّةِ

بَيْنَ الأَسَالِيبِ التُّرَاثِيَّةِ وَالنَّزْعَةِ التَّجْدِيدِيَّة

مِن خِلالِ كِتَاب

﴿ مَجْمَع البَحْرَيْن ﴾

لِلشَّيْخِ نَاصِيفِ اليَازِجِيّ

📖📖📖📖📖

وَبَعْدُ :

« اللَّهُمَّ نَفِّق سُوقَ الوَفَاءِ فَقَد كَسَدَت !! ؛ وَاصْلِح قُلُوبَ النَّاسِ فَقَد فَسَدَت !! ؛ وَلا تُمِتْنِى حَتَّى يَبُورَ الجَهْلُ كَمَا بَارَ العَقْلُ ؛ وَيَمُوتَ النَّقْصُ كَمَا مَاتَ العِلْم .

وَأقُول : اللَّهُمَّ اسْمَع وَاسْتَجِب ؛ فَقَد بَرِحَ الخَفَاء ؛ وَغَلَبَ الجَفَاء ؛ وَطَالَ الانْتِظَار ؛ وَوَقَعَ اليَأس ؛ وَمَرِضَ الأَمَل ؛ وَأَشْفَى الرَّجَاء ؛ وَالفَرَجُ مَعْدُوم .)) . (١) .

وَبَعْد :

((اللَّهُمَّ !! خُذ بِأيْدِينَا فَقَد عَثَرْنَا ؛ وَاسْتُر عَلَيْنَا فَقَد أعْوَرْنَا ؛ وَارْزُقْنَا الأُلْفَةَ الَّتِى بِهَا تَصْلُحُ القُلُوب ؛ وَتُنَقَّى الجُيُوب ؛ حَتَّى نَتَعَايَشَ فِى هَذِهِ الدَّارِ مُصْطَلِحِينَ عَلَى الخَيْر ؛ مُؤْثِرِينَ لِلتَّقْوَى ؛ عَامِلِينَ شَرَائِطَ الدِّين ؛ آخِذِينَ بِأطْرَافِ المُرُوءَة ؛ آنِفِينَ مِن مُلابَسَةِ مَا يَقْدَحُ فِى ذَاتِ البَيْن ؛ مُتَزَوِّدِينَ لِلعَافِيَةِ الَّتِى لابُدَّ مِنَ الشُّخُوصِ إِلَيْهَا ؛ وَلا مَحِيدَ عَن الاطِّلاعِ عَلَيْهَا .
إِنَّكَ تُؤْتِى مَن تَشَاءُ مَا تَشَاء .)) . (٢) .

---

(١) ؛ (٢) ـ انظر : رسالة ((الصداقة والصديق)) لأبى حيَّان ؛ (صـ : ٢٩ـ٣٠) .

❁ـ تَوْطِئَةٌ :

❁ـ نَظَرِيَّةُ الأَدَب (١)

١ـ تعريف الأدب :

كُلُّ إنسانٍ له حظٌّ من الثقافة يعرف ـ بصُورةٍ أو بأخرى ـ ما الأدب ؛ وكُلُّ ما في الأمر أن ما يعرفه هذا قد يختلف عمَّا يعرفه ذاك ؛ أو يفترق عنه قليلاً أو كثيراً .

ولكن المُؤكَّد أنهم جميعاً يستخدمون كلمة « أدب » استخداماً مُتقارباً ـ إن لم يكن مُوحَّداً ـ حين يُطلقونها على شيءٍ يقرءونه أو يستمعون إليه .

ولكن هل الأدب حقّاً هو ذلك الشيء الذى يقرؤه الناس أو يستمعون إليه ؟ إن تاريخ كلمة « أدب » في اللُّغة العربيَّة لا يدُلُّ على ارتباطٍ بهذا المعنى .

......

ـ معنى كلمة أدب :

وكلمة « أدب » **Literature** في الإنجليزيَّة ؛ و**Litterature** كذلك في الفرنسيَّة مأخوذةٌ من **Litera** ؛ وهي بذلك تُوحي بالأدب المكتوب أو المطبوع ؛ ولكن ينبغي أن يشمل تعريف الأدب ذلك الأدب الملفوظ كذلك ؛ ولهذا كان للفظة « فَنُّ الكلمة **kunst_Wort** » الألمانيَّة ؛ ولفظة **Slavesnost** الرُّوسيَّة : ميزتهما على نظيرتيهما الإنجليزيَّة والفرنسيَّة .

---

(١)ـ انْظُر : « الأدب وفنونه : دراسةٌ ونقد » ؛ (ص : ٩ ـ ٢١) .

وإذا قُلنا :

إن الأدب هو فَنُّ الكلمة - سواء الكلمة المقروءة والكلمة المسموعة - ؛ كان علينا أن نعود لنتساءل :

هل يتمثَّل الأدب فيما نقرأ مكتوباً من شعرٍ مثلاً ؟

وعندئذٍ تكون الكتابة فى ذاتها - أى : الحُرُوف المنقوشة بالحبر على الورق - جُزءاً من القصيدة ؟

طبيعىٌّ أن هذا لا يُمكن الأخذ به ؛ لأنَّ الشِّعْرَ مُستقلٌّ تماماً عن هذه الحُرُوف المكتوبة ؛ وعن نوع الحبر الذى كُتِبَت به ؛ وليست الكتابة فى الواقع إلاَّ نوعاً من التسجيل لهذا الشِّعر ؛ يضمن وجوده وبقاءه فى مكانٍ ما ؛ ولذلك يُمكن أن يُوجد الشعر غير مكتوبٍ حين يتمثَّل فى الذَّاكرة .

وكذلك ليس الأدب ما تنطق به من شعرٍ مثلاً ؛ لأن قراءتنا لهذا الشعر ستتأثر بصوتنا من حيث معدنه ؛ وبمقدرتنا على إخراج الحُرُوف إخراجاً سليماً ؛

وعندئذٍ : هل تكون هذه الأصوات التى تخرج من أفواهنا هى الشعر ؟

طبيعىٌّ أنها ليست كذلك ؛ لأنها أشياء مُتغيِّرة .

ومن هُنا ؛ كانت القطعة الأدبيَّة الواحدة تختلف على لسان القارئ نفسه من وقتٍ إلى آخر ؛ مُتأثرة بحالته الخاصة ؛ ولذلك فالصوت الذى يُؤدَّى بِهِ العمل الأدبىُّ حين يُقرأ يُضيف إليه عناصر ليست فى العمل الأدبىِّ ؛ ولكن القول بأن العمل الأدبىَّ حَشْدٌ من الأصوات ؛ يبدو غير كافٍ تماماً ؛ كما لا يكفى القول بأنه : تلك الحروف المنقوشة بالحبر على الورق .

......

ـ فَنُّ الكَلِمَة :

وعلى هذا ؛ فعبارة «فَنُّ الكَلِمَة » لا تكفى للدَّلالة على الأدب إذا كان المقصود بها الكلمة ـ سواء المكتوبة والمنطوق بها ـ ؛ فإذا لم يتمثَّل الأدب فيما هو مكتوب أو منطوق به ؛ ففيم إذاً يتمثَّلُ ؟!

هُنا يأتى القول بأن العمل الأدبىَّ ليس شيئاً خارج العمليَّة العقليَّة التى نُزاولها فى القراءة أو فى الاستماع إلى قصيدةٍ مثلاً .

ومعنى هذا : أن الأدب يتمثَّل فى نُفُوسنا ؛ فى نشاطنا النفسىِّ الذى نبذله حين نقرأ الكلمة أو نستمع إليها ؛ ولكنَّ هذا الحَلَّ النفسىَّ بدوره غير كافٍ .

صحيحٌ ـ بطبيعة الحال ـ أن القصيدة لا يُمكن أن تُعرف إلاَّ من خلال الخبرات الفرديَّة ؛ ولكن القصيدة ذاتها ليست هى نفس هذه الخبرات ؛ فَكُلُّ مُزَاوَلَةٍ فرديَّةٍ لقصيدةٍ من القصائد تحتوى على شىءٍ خاصٍّ وفردىٍّ صِرْفٍ ؛ فهى تتلوَّن بلون حالتنا ؛ واستعدادنا الفردىِّ ؛ والثقافة ؛ وشخصيَّة كل قارئ ؛ والجَوُّ الحضارىُّ العام فى فترةٍ من الزَّمن ؛ والمفاهيم الدينيَّة والفلسفيَّة والفنيَّة الصِّرْف لدى كُلِّ قارئٍ ؛ كُلُّ ذلك يُضيف شيئاً مُفاجئاً جديداً لِكُلِّ مرَّةٍ من مرَّات قراءة القصيدة ؛ فقراءتان فى زمنين مُختلفين للفرد نفسه يُمكن أن تختلفا اختلافاً واضحاً ؛ سواء لأنه قد نما عقليًّاً ؛ أو لأنَّ الظُّروف الوقتيَّة أضعفته ؛ كالتعب أو القلق أو التشتُّت الذِّهنىِّ .

وهكذا ؛ نجد أن كُلَّ مُزَاوَلَةٍ للقصيدة تترك شيئاً أو تُضيف شيئاً فرديًّا ؛ ولن تتسع المُزاولة حتَّى تشمل القصيدة ؛ فحتى القارئ الممتاز نفسه ؛ سيكشف فى القصيدة الواحدة فى كُلِّ مَرَّةٍ من مرَّات قراءتها تفاصيل جديدة لم يُعاينها خلال قراءاته السابقة .

ولا حاجة بنا إلى الإشارة إلى مبلغ الضحالة والاختلاط فى قراءة قارئٍ أقلُّ دُرْبَةً أو غير مُدَرَّبٍ .

فالقول :

إنَّ نَشَاطَ القارئ العقلىَّ هو القصيدة ذاتها ؛ أو العلم الأدبىُّ ذاته : يُؤدِّى إلى نتيجةٍ غير معقولةٍ : هِىَ أنَّ القصيدة لا تُوجد ما لم يُمارسها إنسان ؛ وأنها تُخْلَقُ من جديدٍ فى كُلِّ مُمارسةٍ ؛ فلن تكون هناك إذن « كوميديا إلهيَّة » واحدة ؛ بل كوميديات إلهيَّة بعدد ما يُوجد ؛ وما وُجِد ؛ وما سيُوجد من قُرَّاء.

وبذلك ننتهى إلى الشَّكِّ والفوضى التامة ؛ ونصل إلى العبارة الرَّديئة القائلة : « لا مَشَاحَةَ فِى الذَّوْق » .

......

ـ المُزَاوَلَةُ النَّفْسِيَّةُ لِلعَمَلِ الأَدَبِىِّ :

فالدِّراسة النَّفسيَّة إذن ـ التى تنظر إلى العمل الأدبىِّ مُتمثِّلاً خلال العمليَّة العقليَّة ؛ سواء لدى القارئ أو المُستمع ؛ وسواء لدى المُتحدِّث أو المُؤلِّف ـ تُثير من المُشكلات أكثر مِمَّا تُساعد على حَلِّ المُشكلة الأساسيَّة .

فكلمة « أدب » إذن لا تعنى ما هو مكتوب أو منطوق به ؛ ولا مُمارسة ما هو مكتوب أو منطوق به .

ولقد تغيَّرت مفهومات طبيعة الأدب ووظيفته عبر التاريخ ؛ وقد مال البعض فى تعريفه للأدب إلى تضييق ميدانه حين نظر إلى بعض الإنتاج الفكرىِّ دُونَ بعضه الآخر ؛ وفى الجانب المُقَابِل نجد من يتوسَّع فى معنى الأدب حتى لِيُدخل فى ميدانه الكتابات التشريعيَّة والدينيَّة والطبيَّة !؟ .

وهذان المفهومان المُتطرِّفان لا يُصيبان شيئاً من الحقيقة ؛ لأنهما تنقصهما الدِّقَّة اللازمة .

ويُمكن البدء فى محاولة تعريفٍ للأدب ؛ إذا نحن نظرنا إلى اعتبارين :

فالأدب يتكوَّن من تلك الكُتُب ؛ وتلك الكُتُب وحدها ؛ التى لها أوَّلاً وقبل كُلِّ شىءٍ - بحُكم موضوعها ؛ وطريقة تناول هذا الموضوع - أهميَّةً إنسانيَّةً عامة .

وهى - بعد ذلك - يُنظر إلى عُنصر الصُّورة فيها ؛ وَالمُتْعَة التى تُقدِّمُها الصُّورة : على أنها جوهريَّة ؛ فالقطعة الأدبيَّة تختلف - من ناحيةٍ - عن بحثٍ مُتَخَصِّصٍ فى علم الفلك أو الاقتصاد السياسىِّ أو الفلسفة أو حتى التَّاريخ : لأنها لا تتَّصل بطبقةٍ خاصَّةٍ من القُرَّاء فقط ؛ بل بالناس من حيث هم ناس ؛ رجالاً ونساءً .

وفى حين نجد موضوع البحث ـ من ناحيةٍ أُخرى ـ يكتفى بأن ينقل المعرفة ؛ إذا بالقطعة الأدبيَّة ـ سواء أكانت تنقل المعرفة كذلك أم لا ـ ؛ من أهدافها المثاليَّة أن تُحدِث الرِّضَا الفنىَّ ؛ وذلك بالطريقة التى تُقدِّم بها موضوعها .

......

ـ المُتْعَةُ وَالمَنْفَعَةُ فِى العَمَلِ الأَدَبِىِّ :

وهذه الخُطوة فى محاولة فهم ماهيَّة الأدب لم تزد على أن أدخلت عُنصراً جديداً فى البحث هو عُنصر « المُتْعَة الفَنِيَّة » التى يُحدثها الأدب .

وطبيعىٌّ أن هذا العُنصر الجديد ليس جُزءاً من طبيعة تكوين الأدب ؛ بل هو أثرٌ له ؛ فالمُتعة قد تحدث لشخصٍ يتلقَّى عملاً أدبيًّا ؛ ولا تحدث لشخصٍ آخرٍ يتلقَّى نفس هذا العمل .

على أننا كذلك قد نجد المُتعة فى أشياء ليس لها بالأدب صلة .

والغريب أن فلسفة الجمال فيما يتعلَّق بالفَنِّ والأدب كانت فى أغلب الأحيان تترك الأدب ذاته لتبحث فى آثاره ؛ ويُمكن تلخيص هذه الفلسفة ببساطةٍ فى مقولتين قال بهما « هوراس » مُنْذُ أَمَدٍ بعيدٍ ؛ هُما : « المُتْعَة » ؛ و« المَنْفَعَة » .

وقد كان تاريخ فلسفة الفَنِّ تسجيلاً للمواقف التى تتوزَّعها هاتان المقولتان ؛ فمن أديبٍ ينتهى إلى أن الفن مُتعة ؛ إلى مُفكِّرٍ يخلص إلى أن الفن منفعة .

وبإزاء المتعة والمنفعة نجد اللعب والعمل ؛ فالفنُّ لَعِبٌ فى رأيٍ ؛ وهو عملٌ فى رأيٍ آخرٍ .

والمحاولة الثالثة ؛ وهى المُحاولة التى قام بها عصر النهضة فى أُوروبا ؛ هى محاولة الجمع بين الخاصتين ؛ بحيث لا يُمكن أن يقوم فَنٌّ يُوصف بوصفٍ واحدٍ من الوصفين ؛ فالعمل الأدبىُّ يقوم بالمُهِمَّتين ؛ وَيُحدِث الأثرين معاً ؛ وبنجاحٍ .

وقد قُلنا : إن هُناك أشياء تُمتعنا وهى ليست من الأدب فى شىءٍ ؛ وكذلك هُناك أشياء نافعة ولا تُمتُّ إلى الأدب بصلة ؛ فحتَّى هذان الأثران المعروفان للأدب ليسا إذن أثرين خاصين به .

وهُنا : ينبغى أن نأخذ بأن مُتعة الأدب ليست مُتعة مختارة من بين قائمةٍ بالمُتع المُمكنة ؛ ولكنَّها متعة أعلى ؛ لأنها متعة لنشاط أرقى ؛ أعنى تأمُّلاً لا يهدف إلى حيازة شىءٍ .

أما المنفعة أو الجديَّة والتعليم فى الأدب ؛ فهى جديَّةٌ مُمتعة ؛ أعنى أنها ليست جديَّة الواجب الذى يجب أن يُعمل ؛ أو الدَّرس الذى يجب أن يُحفظ ؛ ولكنها جديَّةٌ فنيَّةٌ ؛ جديَّةُ إدراكٍ حسىٍّ .

فإذا ما خصَّصنا نوعى المُتعة والمنفعة اللذين يحدثهما الأدب ويُؤثِّر بهما فى التلقِّى ؛ أمكننا أن نصل إلى الحديث عن الأدب ذاته .

إذا ما تساءلنا عن سرِّ المُتعة والمنفعة فى العمل الأدبىِّ : لماذا كان الأدب مُمتعاً ونافعاً ؟

والحقُّ ؛ أن عنايتنا بالأدب ترجع أوَّلاً وقبل كُلِّ شيءٍ إلى أهميَّته الإنسانيَّة العميقة الباقية ؛ فالكتاب العظيم يستمد مُباشرةً من الحياة ؛ ونحن حين نقرؤه نستكشف بين أنفسنا والحياة علاقات كثيرة وطيدة وجديدة .

وفى هذه الحقيقة نجد التفسير النهائيَّ لما له من قُوَّةٍ ؛ فالأدب إبداعٌ جديدٌ حيٌّ لما رآه الناس فى الحياة ؛ وما خَبِرُوهُ منها ؛ وما فكَّروا فيه ؛ وأحسُّوا به : إزاء مظاهرها التى لها عندنا جميعاً أهميَّة مُباشرة وباقية ؛ تفوق كُلَّ أهميَّةٍ .

وهو بذلك يُعَدُّ - بصورةٍ أساسيَّةٍ - تعبيراً عن الحياة وسيلته اللغة ؛ ولكن من المُهِمِّ أن نفهم مُنْذُ البداية أن الأدب يعيش بفضل الحياة التى تتمثَّل فيه .

فالمُتعة والنَّفع اللذان نتحدَّث عنهما فى الأدب ؛ مصدرهما تلك الأشياء التى نجدها فى العمل الأدبىِّ ؛ والتى لها أهميَّةٌ إنسانيَّةٌ ؛ فبمقدار ما يكون لهذه الأشياء من أهميَّةٍ يكون إمتاعها ونفعها لنا .

وقد قال « هدسن » فى العبارة السابقة :

« إِنَّ الأَدَب : تَعْبِيرٌ عَن الحَيَاة ؛ وَسِيلَتُهُ اللُّغَة »

وهُنا نقُول :

إن هذه الصلة الوطيدة بين الأدب والحياة هى السِّرُّ فيما يتضمَّن من مُتْعَةٍ وَمَنْفَعَةٍ ؛ لأنَّنا نحب أن نرى الحياة « منقولة إلينا » ؛ نحب أن نجلس فى مكاننا لنُشاهد الحياة تمر بنا جزئياتها فى سلسلةٍ مُتَّصلة الحلقات ؛ وهذه المُتعة تتحقق فى جُلُوسنا لقراءة كتاب .

ولكن قيمة الكتاب الذى نقرؤه ؛ لا تقف عادةً عند مُجَرَّد قضاء سُويعات فى استعراض مشاهد مُمتعة من الحياة ؛ بل إننا نمضى بعد الفراغ من القراءة أو المُشاهدة لنُناقش ما قرأنا وما شاهدنا .

وكثيراً ما نُناقش أنفسنا بسبب كتابٍ قرأناه ؛ وهُناك كُتُبٌ غيَّرت من منهج حياة قارئيها تغييراً كاملاً ؛ وهُنا يتمثَّل ما للأدب من نفعٍ ؛ حين يُعَمِّق فهمنا للحياة ؛ بل أكثر من هذا : حين يُوجِّه حياتنا ؛ فالأدب يستمد من الحياة ؛ ويدفع الحياة ويُوجِّهها .

......

ـ الحَيَاةُ مَادَّةُ الأَدَب :

مَادَّة الأدب إذن فى أىِّ صُورةٍ من صُوره : هى الحياة ؛ وانتقال هذه المادة إلينا يحُدث فى نُفُوسنا المُتعة ؛ وقد يُشكِّل حياتنا ؛ ولكن هل هذا حقّاً هو كُلُّ شىءٍ فى الأدب ؛ أن ينقل إلينا الحياة ؟

لا شَكَّ أن الأدب يشتمل على عناصر أُخرى ؛ فإذا نحن رجعنا إلى العبارة القائلة :

« إِنَّ الأَدَب : تَعْبِيرٌ عَن الحَيَاة ؛ وَسِيلَتُهُ اللُّغَة »

: كان علينا أن نفهم أن الأدب لا ينقل إلينا الحياة حقّاً كما هى ؛ ولكنه يُعبِّر عنها .

وقد يُقال : إنه يُفسِّرُها .

وقيل أيضاً : إنه ينقُدها .

وَكُلُّ هذه العبارات المُختلفة عن علاقة الأدب بالحياة : تدُلُّ على أنه لا ينقل إلينا الحياة كما هى نقلاً حرفيًّا .

قد نقُول :

إنه ينقل إلينا فهم الأديب للحياة من خلال تجاربه الشخصيَّة ؛ وهُنا : نكون قد أدخلنا عُنصراً جديداً يقوم عليه الأدب ؛ فبجانب الحياة لابُدَّ من « فهم » الأديب لها .

......

ـ عَنَاصِرُ العَمَلِ الأَدَبِىِّ :

هُناك إذن عناصر كثيرة تشترك فى تكوين العمل الأدبىِّ ؛ فنحن أوَّلاً نجد ـ بطبيعة الحالة ـ العناصر التى تُقدِّمها الحياة ذاتها ؛ تلك التى تُمَثِّل المادة الأوليَّة لأىِّ عملٍ أدبىٍّ ؛ سواء أكان :

ـ قصيدة .

ـ أم مقالة .

ـ أم مسرحيَّة .

ـ أم قِصَّة .

ثُمَّ هُناك العناصر التى يُضيفها المُؤلِّف فى عمليَّة نقله هذه المادَّة الأوليَّة إلى هذه الصُّورة أو تلك من صُور الفَنِّ الأدبىِّ ؛ وهذه العناصر يُمكن أن تُقَسَّم تقسيماً تقريبيًّا إلى أربعة أقسام :

ـ أوَّلاً :

هُناك العنصر « العقليّ » ؛ ويتمثَّل فى الفكرة التى يأتى بها الكاتب ليبنى منها موضوعه ؛ والتى يُعَبِّرُ عنها فى عمله الفنىّ .

ـ ثانياً :

هُناك العنصر « العاطفىّ » ؛ وهو الشعور « كائناً ما كان نوعه » الذى يُثيره الموضوع فى نفسه ؛ والذى يَوَدُّ بدوره أن يُثيره فينا .

ـ ثالثاً :

هُناك عنصر « الخيال » ؛ ويشمل النوع الخفيف الذى نُسَمِّيه الوهم fancy ؛ وهو فى الحقيقة :

القُدرة على التأمُّل القوىّ العميق ؛ وبعمله سُرعان ما ينقل إلينا الكاتب قُدرةً مُماثلةً على التأمُّل .

وهذه العناصر تجتمع لِتُقدِّم للأدب المادة والحياة ؛ ولكن مهما تبلغ المواد التى قدَّمتها التجربة من الغِنَى ؛ ومهما يبلغ فكر الكاتب وشعوره وخياله من الجِدَّة ؛ فإن عُنصراً آخر يلزم الكاتب عند الاهتمام بهذه العناصر قبل أن يتمكَّن من إتمام عمله ؛ فهذه المادة يجب أن تُشَكَّلَ وَتُهَذَّبَ وفق مبادئ النِّظام والتناسق والجمال والتأثير .

ومن ثَمَّ نجد عُنصراً رابعاً فى الأدب هو العُنصر « الفنىّ » ؛ أو عُنصر « التأليف والأسلوب » .

هذا معناه :

أن الأدب يقوم على عناصر بعضها بمثابة :

ـ المادة ـ « الحَياة » ـ .

ـ الفكر .

ـ الخيال .

ـ العاطفة .

وبعضها يتحقّق فى عمليّة « التكوين : أى فى بناء العمل الأدبىّ من هذه المادة » .

وهذا فى الواقع تعبيرٌ آخرٌ ـ ولكنه ربما كان أكثر دِقّة ـ عمّا يُقَسّم إليه العمل الأدبىُّ من :

١ـ محتوى .

٢ـ صُورة .

فإذا كان المقصود بالمحتوى : الأفكار والعواطف التى يشتمل عليها العمل الأدبىُّ .

فإن الصورة عندئذٍ :

تشمل كل العناصر الشكليَّة التى تُعَبِّر عن هذا المُحتوى .

ولكنّنا إذا فحصنا هذا التمييز فحصاً أكثر دِقّةً ؛ لرأينا أن المحتوى يدُلُّ على بعض عناصر الصورة .

فمثلاً :

الحوادث المسرودة فى الرِّواية تُعَدُّ أجزاء من المحتوى ؛ فى حين أن الطريقة التى تُنَسَّق بها ؛ بحيث تكون عملاً قصصيّاً ؛ تُعَدُّ جُزءاً من الصُّورة ؛ فإذا هى انفصلت عن طريقة التنسيق هذه ؛ فلن يكون لها تأثيرٌ فنىٌّ بأىِّ حالٍ من الأحوال .

ومهما يكُن من أمر دلالة المُصطلحات المُستخدمة فى هذا المجال ؛ فإن هُناك صفات خاصَّة بما سمَّيناه مادَّة العمل الأدبىِّ ؛ وهى صفاتٌ تُعَدُّ جوهريَّةً ؛ ولابُدَّ من تحقُّقها كيما يُعَد الأدب أدباً ؛ وهُناك صفات أُخرى خاصَّة بالتكوين .

قد نقرأ العمل الأدبىَّ لأغراضٍ كثيرةٍ ؛ ولكنَّنا إذا نظرنا إلى الأدب على أنه قُوَّةٌ حقيقيَّةٌ ؛ وجب علينا أن نبحث عن مصدر أسباب الرِّضَا الأساسيَّة ؛ التى تتمثَّل فى صفات :

- الوضُوح .
- عُمق الفهم .
- سُمو الرُّوح .

ويتحقَّق الوضُوح من خلال إحساس المُؤلِّف بالصورة ؛ فالمُؤلِّف يختار المادة وينظمها وفقاً لغرضٍ خاصٍّ ؛ وهو بذلك يُركِّز الاهتمام على الشَّكْلِ الجوهرىِّ للأشياء فى العالم المرئىِّ وغير المرئىِّ ؛ وهو بذلك يُومئ أيضاً إلى الغرض الذى يُوجِّه التجربة .

ومُؤلَّفات كبار الكُتَّاب تهدى إلى السُّلوك السليم بأوسع معانيه ؛ لأنها تكشف لنا عن النظام الدقيق ؛ وعن الحكمة والتوافق بين العناصر المختلفة ؛ التى بدونها تبدو الحياة أجزاء لا معنى لها .

وهذا العمل يتضمَّن توضيحاً واعياً للتجربة ؛ لا عند المؤلف وحده ؛ بل عند القارئ كذلك ؛ وذلك باتحاده مع المؤلف خلال عمليَّة التمثيل .

......

- صِفَاتُ الأَدَبِ المَرْضِىِّ :

وهُنا يأتى بالضرورة السُّؤال عن الموضوعات التى تصلح للأدب وتلك التى لا تصلح ؛ والواقع أن الأديب - على الرَّغم من أنه يختار موضوعه بلا شكٍّ - يعمل فى ميدانٍ ؛ كل ما يلقاه فيه صالحٌ للعمل الأدبىِّ ؛ وهو ميدان الحياة ؛ فلم يعد من الممكن القول : إن هُناك بعض موضوعات تصلح للتناول وبعضاً آخر لا يصلح .

وفى خلال نمو الواقعيَّة فى الفنِّ القصصىِّ ؛ واستخدام التحليل النفسىِّ للشخصيَّة : اتسع ميدان الأدب اتساعاً عظيماً .

ثم يأتى دور الأدب فى أن يُعَمِّق فهمنا للحياة ؛ بأن يُطلعنا لا على عالم الرُّؤية الخارجىِّ فحسب ؛ بل على العالم الداخلىِّ للفكر والشُّعور كذلك .

إننا نبدأ فى فهم كيف يعيش الناس ؛ ومن أجل ماذا يموتون ؛ وكذلك فإننا ننظر فى ذلك العالم الغامض - عالم العواطف واللاشعور - ؛ وعلاقتنا العاطفيَّة الخاصة بالحقيقة الخارجيَّة تلمس هذه الحقيقة وتُوضِّحها بِوَمَضَاتٍ

اللون والضوء والظل ؛ وهذه العلاقة الخارجيَّة لا تكتفى بأن تخلق فى الحال علاقةً مثاليَّةً بين نفوسنا وبين العالم ؛ ولكنها كذلك تجعل من المُستطاع قيام علاقةٍ مَرِنَةٍ واضحةٍ بشكل غير عادىٍّ بين ظواهر تبدو مُنفصلة فى عُقُولنا . ويتبع ذلك أنه ينبغى علينا أن نشحذ مداركنا حتى نستطيع فهم ظلال المعنى الدقيقة ؛ وإدراك الطُّرُق التى يستطيع بها الأدب أن يُوسِّع من فهمنا عن طريق الدِّقَّة فى الكناية والإيحاء .

فالعمل الأدبىُّ يرتاد بنا الحياة ؛ ويخلق بيننا وبينها علاقات جديدة من الفهم والمعرفة ؛ وهى الغاية التى تسعى لها الإنسانيَّة فى نشاطها الدَّائِب .

وعندما نفهم طبيعة التجربة الموضوعيَّة ؛ وطابع الحياة الداخليَّة : فإننا نجد أنفسنا - وَقَلَّ أن يحدث ذلك - فى ميدان الرُّوح .

وكثيراً ما يأتى هذا الشُّعور بالسُّمو نتيجة مُثيرٍ عاطفىٍّ - له قُوَّةٌ وَرَهَافَةٌ غير عاديَّةٍ - يقف وحده غالباً - سواء أكانت هُناك علاقة بسيطة أم لم تكن - ؛ بينه وبين مجموعة من القِيَم الرَّاسخة فى السُّلوك البشرىِّ .

ولحظة من التفكير تُذكِّرنا بمجموعة من القصائد التى لها من هذه القُوَّة والإثارة ما يجعلنا نشعر بأننا نسمو عند قراءتها .

هذه الأسباب الثلاثة لرضائنا عن العمل الأدبىِّ ليست مُنفصلة ؛ ولكنها تتحد جميعاً لتُخرج لنا عملاً جميلاً مُحْكَمَاً .

••••••

ـ مُشْكِلَةُ العَمَلِ الأَدَبِيِّ :

فالعمل الأدبيُّ ـ فيما يبدو ـ ليس بسيطاً ؛ إنه يستمد من الحياة ؛ ولكنه ليس مجرَّد معنى للحياة أو فكرة عنها نتعلمها كما نتعلم الأشياء الأُخرى أو كما نتعلم ذلك من الفلسفة مثلاً ؛ إنه طاقةٌ هائلةٌ تُشِعُّ ألواناً من الإشعاعات على مَرِّ الزَّمن ؛ فلا يخبو لمعانها حتى يتجدَّد مع الإنسانيَّة المُتجدِّدة الدائبة التجدُّد .

وهى طاقةٌ هائلة التأثير ؛ فيكفى أن يقول الأديب كلماته حتى يكون لها من الفعل بالنُّفُوس ومن تحريك الأرواح ما يفوق أثره كُلَّ قُوَّةٍ ؛ ذلك أن فعلها لا يقتصر على جماعةٍ من الناس فى وقتٍ من الأوقات ؛ ولكنه من المُمكن أن يمتد إلى كُلِّ إنسانٍ فى كُلِّ زمانٍ وكُلِّ مكان .

ويوم يُطلق الشَّاعر قصيدته ؛ يكون العالم قد كسب قُوَّةً هائلةً جديدةً ؛ ولكنها قُوَّةٌ خالدةٌ باقية .

إنَّ خفقة القلب لتدفع إلى الوجُود وجُوداً ؛ وإن لمحة الرُّوح لتنفذ فتخترق القُيُود والسُّدُود .

وفى الوجُود الأكبر تلتقى كُلُّ طاقةٍ كونيَّةٍ ؛ تلتقى الطاقة تُشِعُّهَا الذرَّة ؛ وتلتقى الطاقة تُشِعُّهَا الكلمة .

فالأدب كائنٌ حىٌّ مُتجدِّد الحيويَّة ؛ مُتجدِّد الحرارة ؛ وله كيانه وشخصيَّته ؛ مثلى ومثلك .

إنها شخصيَّةٌ مُمتلئةٌ بالقُوَّة ؛ ولكنَّها شخصيَّةٌ أميز ما فيها أنها مَرِنَة ؛ وليست صلبة جامدة .

إنَّ النَّبات والحيوان والإنسان جميعاً تتكيَّف بحسب البيئة التى تُوجد فيها ؛ وهذه القُدرة على التكيُّف مرجعها إلى المرونة التى يتمتع بها كيانها وتتمتع بها شخصيَّاتها ؛ وهى كُلَّمَا اختلفت عليها الأزمنة والأماكن راحت تتكيف مع البيئة الجديدة ؛ ولولا هذه القُدرة على التكيُّف ؛ ولولا هذه المرونة التى تتمتع بها شخصيَّاتها - على تفاوتٍ بينها فى أنصبتها من هذه المرونة - لوجدناها تنقرض وتزول ؛ فالشخص لا يعيش إلاَّ بما فى شخصيَّته من مُرُونَةٍ يواجه بها ظُرُوف الحياة فيتكيف معها ؛ ويتغلَّب بذلك عليها ؛ ويستمر بعد كُلِّ مِحْنَةٍ فى وجُوده الحىِّ النَّابض ؛ وتزداد بذلك شخصيَّته قُوَّةً على قُوَّةٍ .

......

- شَخْصِيَّةُ العَمَلِ الأَدَبِىِّ :

العمل الأدبىُّ شخصيَّةٌ من هذا النوع ؛ ولكنها شخصيَّةٌ جبَّارةٌ !! ؛ إنها شخصيَّةٌ قد كسبت قُوَّتها من آلاف التفاعلات التى مرَّت بها فى حياتها الطويلة .

إننا نتفاعل مع أصدقائنا وأقاربنا وتلاميذنا ألواناً مُختلفةً من التفاعل بما هم كائنات حيَّة تؤثر وتتأثر ؛ وكذلك نتفاعل مع الأدب .

ألسنا نتخذ فى كثيرٍ من الأحوال من الشُّعراء الذين مرَّت عليهم مئات السنين أصدقاء لنا ؟! .

ألسنا نُطيل صُحبة قصيدة من القصائد ونعتزُّ بها ؟! .

إننا نتفاعل بذلك معها كما نتفاعل مع أصدقائنا ؛ نتفاعل معهـا فتـؤثر فينا ونؤثر فيها ؛ ولكنَّنا نمضى جميعاً وتبقى هى مُحتفظة بحصيلة تلك التفاعلات ؛ ممتعة بما أفادت من تأثرات الألُوف من الذين صاحبوها فى وقتٍ من الأوقات وتفاعلوا معها .

ألا يكون للعمل الأدبىِّ بعد ذلك شخصيَّةً جبَّارةً ؛ وطاقةً هائلةً ؟! ؛ ولكنها شخصيَّةٌ مَرِنَةٌ ؛ وطاقةٌ مُتَلَوِّنةٌ .

إنها شخصيَّةٌ مَرِنَةٌ لا تقف منك موقف عناد ؛ ولا تُصِرُّ على شىءٍ ؛ وهى بذلك تمتاز عن الحقائق الصارمة .

إنك تقرأ هذه العبارة الحسابية « ٢+٢=٤ » ؛ فلا تستطيع أن تفهم منها إِلاَّ فهماً واحداً ؛ ولن تخرج منها إِلاَّ بحقيقةٍ واحدةٍ ؛ وهى حقيقةٌ خالدةٌ باقيةٌ كذلك ؛ ولكنها حقيقةٌ جامدةٌ لا مُرونة فيها ؛ بل فيها إصرار .

ونحن نُذْعِن دائماً فى هذه الحالة للإصرار والبناء ؛ ويوم نُريد من « ٢+٢ » أن تُساوى خمسة مثلاً ؛ تخذُلنا العبارة ؛ لأنها تُصِرُّ على أن تُساوى أربعة فقط ؛ ولا يمكن التزحزح عن هذا الإصرار ؛ وعندئذٍ نمضى طائعين أو مُكرهين إلى التسليم بهذه الحقيقة التى نضطر جميعاً إلى الاتفاق عليها .

إنها حقيقةٌ صارمةٌ جامدةٌ لا حياة فيها ؛ ومن ثَمَّ لا نتفاعل معها ؛ فلا تتأثر بها شخصياتنا ؛ ولا تترك شخصياتنا فيها أثراً .

إنها شخصيَّةٌ ذات جانبٍ واحدٍ ؛ إذا أمكن التعبير .

ولكن العمل الأدبىّ شخصيَّةٌ مُتعدِّدة الجوانب ؛ وهذا هو السِّرُّ فى أنها تستطيع أن تجتذب أكبر عددٍ مُمكنٍ من الأصدقاء ؛ هذا يتفاعل مع جانبٍ ؛ وذلك مع جانبٍ آخر .

إشعاعاتٌ كثيرةٌ - كما قُلنا - تلك التى تصدر عن الطاقة الهائلة الكامنة فى العمل الأدبىّ .

وَكُلٌّ مِنَّا يتلقَّى من هذه الإشعاعات بمقدار استعداده للتفاعل ؛ وتبادُل الفهم والتفاهُم .

فمن أراد من العمل الأدبىِّ صُورةً جامدةً من الألفاظ ؛ فإنه واجدٌ من هذه الصُّورة ؛ ومن أراد شخصيَّةً حيَّةً نابضةً ؛ فإنه واجدٌ هذه الشخصيَّة ؛ هذه إشعاعةٌ وتلك إشعاعة ؛ ولكن فرقٌ بين من يتذوَّق الأدب رُوحاً ؛ ومن يتذوقه صُورةً جامدة !! .

هكذا تقوم للعمل الأدبىِّ شخصيَّته ؛ ويتحدَّد ما فيه من طاقةٍ وقُوَّةٍ بمقدار ما يستمد من الحياة ؛ وما يوصله إلى نُفُوس الآخرين من خبرةٍ جديدةٍ وفهمٍ عميقٍ لهذه الحياة .

ولكن يبدو أننا نتساهل كثيراً فى هذا التصور ؛ لأن كُلَّ ما يربطنا فى الواقع بالأديب لا يزيد عن ألفاظ ؛ وكأنَّ كُلَّ ما حسبناه للعمل الأدبىِّ من قُوَّةٍ هو كامنٌ فى الكلمات ؛ فالأدب - كما سبق - :

« تعبيرٌ عن الحياة ؛ أداته اللُّغة »

فكأن اللُّغة هى الظَّاهرة الأُولى التى ينبغى الوقُوف عندها عندما نتحدَّث عن الأدب ؛ لأن الأدب لا يُمكن أن يتحقَّق إلاَّ فيها ؛ وحين يفرغ الأديب من أداء كلماته يكون - فى الواقع - قد فرغ من أداء عمله الأدبىّ .

وليس هذا فى الحقيقة تبسيطاً للموضوع ؛ فقد يبدو أن استخدام اللُّغة للتعبير أمرٌ غايةٌ فى السُّهولة ؛ ألسنا نستخدم اللُّغة كُلَّ يومٍ وَكُلَّ دقيقةٍ فى قضاء حاجتنا ؛ وفى التفاهم مع غيرنا ؟! ؛ فاللُّغة وسيلةٌ طَيِّعَةٌ لقضاء أُمُورنا وربطنا بالآخرين ؛ ولكن اللُّغة فى العمل الأدبىّ تختلف عن هذا ؛ ومهما بلغت اللغة من وفرة المُفردات التى تستطيع أن تنقل أدق المعانى وأدق ظلالٍ لهذه المعانى ؛ فإنه تبقى هُناك صعوبةٌ تُواجه الأديب فى استخدامه اللغة فى عمله الأدبىّ ؛ والذين يُمارسُون الإنتاج مِنَّا يُلاحظون فى يُسْرٍ أن اللغة لا تكون فى كُلِّ الأحوال تلك الأداة الطَّيِّعَة للتعبير عن المعنى أو الفكرة أو الشُّعور ؛ فهذه الأشياء لا يتم نقلها خلال الألفاظ إلا بعد جهدٍ كبيرٍ ؛ ولا نذهب فى المثل بعيداً ؛ فكُلُّنا قد مارس الكتابة العاديَّة ؛ وصادف الصُّعوبات التى كانت تقتضيه أن يُقدِّم لفظةً على لفظةٍ ؛ أو يستبدل بلفظةٍ أُخرى ؛ أو يضرب عن التعبير كله ليبدأ من جديدٍ تركيباً آخر للألفاظ يراه أقرب إلى تكوين الجُملة التى تنقل المعنى أقرب ما يكون إلى الدِّقَّةِ أو أقرب ما يكون إلى ما فى نفسه ؛ فإذا أدركنا ذلك ؛ كان تقريرنا للصُّعوبات التى يُواجهها الأديب فى استخدام اللغة أمراً بدهيًّا ؛ ولكن حينما نعرف أن الأديب لا يكتفى بِمُجَرَّد أن يُفهمنا شيئاً أو ينقل إلى نُفُوسنا معنى ؛ ولكنه - إلى جانب ذلك - يهدف إلى التأثير

فينا ؛ عندئذٍ نُدرك الجَهْدَ الذى يبذله الأديب لتطويع الألفاظ لأداء مُهِمَّتِهِ الكُبرى ؛ فالمؤلف لا يكتفى بأن يجد اللغة الدَّالَّة على ما يرغب فى أن يقوله ؛ ولكنه يجب كذلك أن يذهب - أبعد من الدِّلالة - إلى الإيحاءات الفنيَّة خلال ذبذبات النَّفْس والفكر .

وهذا معناه : أن الأديب يختار فى عمله الأدبىِّ الكلمات ذات الإيحاء الفنىِّ . ولكن ينبغى ألاَّ تُوقعنا هذه العبارة فى الفكرة الخاطئة التى شاعت قديماً واتُّخِذَت فى كثيرٍ من الحالات أساساً للحُكم على الإنتاج بأنه أدبىٌّ أو غير أدبىٍّ ؛ وأعنى بذلك الفكرة القائلة : إن هُناك لُغَة أدبيَّة ؛ أو - على وجه التحديد - ألفاظاً أدبيَّةً وأُخرى غير أدبيَّة ؛ فكما أن موضوعات الحياة كلها تصلح للتناول الأدبىِّ - ومن الخطأ أيضاً بطبيعة الحال أن نقول : إن هُناك موضوعات تصلح للأدب وأُخرى لا تصلح - ؛ فكذلك كل ألفاظ اللغة صالحٌ لأن يُستخدم فى عملٍ أدبىٍّ .

كُلُّ ما فى الأمر أن الأديب يختار للكلمة المكان الذى تكون فيه أصلح كلمة تُستخدم ؛ وتكتسب الكلمة « وضعاً » خاصًّاً باستخدام الأديب لها فى ذلك المكان .

وهذا جُزءٌ من عمليَّة التطويع التى يتناول بها الأديب اللغة ليُخضعها لغرضه ؛ ويستخدمها استخداماً خاصًّاً .

ويُلاحظ « نيومان » أنه بينما تستخدم الأغلبيَّة من الناس لُغة زمانهم - كما يجدونها - ؛ فإن العبقريَّ يستخدم اللغة لأغراضه الخاصَّة ؛ ويُشَكِّلُهَا تبعاً لاستعداداته الخاصة .

ويُعلِّق « هدسون » بقوله :

« ومعنى هذا :

أن اللغة تستقبل دائماً أثراً جديداً خاصًّاً على يدى كُلِّ كاتبٍ له شخصيَّةٌ قويَّةُ التميُّز . » .

فالكلمة قد تكتسب قُوَّتها من الشخصيَّة التى استخدمتها ؛ وكم من عبارات كان لها أثرها فى النُّفُوس لم تكن لِتُحدث هذا الأثر لو لم تصدر عن شخصيَّةٍ بذاتها .

إن الأديب ذا الشخصيَّة القويَّة المُؤثِّرة يخلق للكلمة - باستخدامه إيَّاها - مجالاً واسعاً ؛ ولا يلبث الكثيرون أن يجدوا أنفسهم واقعين فى إسارها .

فمن حيويَّة الشخصيَّة وقُوَّتها تُستمد الكلمة ؛ وهى بهذه الحيويَّة والقُوَّة تؤثر فى الآخرين ؛ وتفرض نفسها عليهم .

فإذا كانت خاصيَّة اللغة التى يستخدمها العالم فى شرح نظريةٍ : هى نقل الدِّلالة العامة التى يتحد جميع الناس فى كُلِّ زمانٍ ومكانٍ فى معرفتها ؛ حتى لقد يستخدم العالم الرُّموز الإشاريَّة لنقل هذه الدِّلالات ؛ وكانت خاصيَّة اللغة التى تُستخدم لأغراض الحياة اليوميَّة : هى أنها محليَّة تُتخذ

وسيلة لقضاء الأُمُور المعيشيَّة ؛ فإن خاصيَّة اللغة - حين تُستخدم استخداماً أدبيَّاً - : هى أنها إيحائيَّة ؛ فهى لا تكتفى بأن تُقرِّر وتُعبِّر عمَّا تقول ؛ ولكنها كذلك تهدف إلى التأثير فى اتجاه القارئ وإقناعه ؛ وتغييره تغييراً تامَّاً .

......

- إِمْكَانِيَّةُ اللُّغَة :

إِنَّ لِكُلِّ لُغَةٍ إمكاناتها ؛ وليس العمل الأدبىُّ إلا بناءً لُغويَّاً يستغل أكبر قدرٍ مُمكنٍ من هذه الإمكانات .

ولكن هذا البناء لا تأخذ صورته شكلاً طبيعيَّاً ؛ فهى ليست تخطيطاً هندسيَّاً أو شكليَّاً ؛ ولكنها أقرب إلى أن تكون - كما هو الشأن فى المُوسيقى - تطوراً نامياً لموضوع .

فالأدب إذن - كالمُوسيقى والمسرحيَّة المُمثَّلة - : فَنٌّ حيوىٌّ ؛ بمعنى : أنه حركة تحدث نتيجة لِقُوَّةٍ .

معنى هذا :

أن الأدب يستخدم أداة تعبيريَّة من نوعٍ خاص ؛ يتحقَّق فيها إمكانات المُوسيقى من جهة ؛ كما أنه يتبع فى تكوينه نظاماً تشكيليَّاً خاصَّاً بها ؛ ولكن الأدب - بعد كُلِّ هذا ؛ أو قبله - ليس مُوسيقى وليس نحتاً ؛ فالأديب الذى يُخيَّل إليه أنه يستطيع فى عمله أن يخلق بناءً مُوسيقيَّاً ؛ إنما هو أديبٌ وَاهِمٌ ؛ لأن المُوسيقى فَنٌّ هائلٌ قائمٌ بذاته ؛ وإمكاناته الخاصة تقع نهائياً وراء مدى اللُّغة المُتكلِّمة .

وكذلك الأُدباء الذين يَظُنُّون أنهم يستطيعون أداء مُهِمَّة الفَنِّ التشكيلىِّ فى اللُّغة ؛ قد جَرَّهُم سُوء الفهم إلى أن يحاكوا الفنَّانين ؛ سواء باهتمامهم بالتفصيلات التى تقع عليها العين ؛ أو بوصف أعمالٍ من الفَنِّ التشكيلىِّ .

والحقُّ :

أن العمل الأدبىَّ من حيث هو بناءٌ لُغوىٌّ : يتضمَّن إمكانات موسيقيَّة وأُخرى تشكيليَّة ؛ ولكن هذه الإمكانات فى اللغة وسيلة لا غاية ؛ قد يستفيد الأديب من الإيقاع والتجانُس الصوتىِّ وغيره من الزَّخارف الصوتيَّة التى يستطيع تحقيقها فى عمله الأدبىِّ ؛ ولكن يوم تُصبح هذه الأشياء هى كُلُّ مُهِمَّتِهِ ؛ فعندئذٍ لا يُمكن أن يُقال : إنه قد أنتج أدباً ؛ لأن الأدب شىءٌ غير الموسيقى . ويستفيد الأديب - بلا شَكٍّ - من الصُّور الحسيَّة التى يلجأ إليها ليُحقِّق المشاعر والمعانى فى أشكالٍ ملموسةٍ مُؤثِّرة ؛ كما يحدث فى استخدامه للاستعارة مثلاً .

ولكن !! ؛ أين تقع هذه الصُّور الحسيَّة التى يُكوِّنها الأديب ؟

إنها فى الحقيقة لا تتمثَّل إلاَّ فى الخيال ؛ فحين يقول أبو تمَّام فى ممدوحه أنه :

رَقِيقُ حَوَاشِى الحِلْمِ ؛ لَو أَنَّ حِلْمَهُ
بِكَفَّيْهِ مَا مَارَيْتُ فِى أَنَّهُ بَرْدُ

ويرسم لنا هذه الصورة الحسيَّة للحِلْم ؛ فإنه لم يرسم لنا صورةً تنهض أمام العين كما هو شأن المُصَوِّر ؛ ولكنها صورة تتمثَّل فى الخيال .

وكذلك لا يُمكن أن يقوم العمل الأدبيُّ على حَشْدٍ من هذه الصُّور مُستقلة ؛ كما لا يُمكن أن يقوم على حَشْدٍ من الزَّخارف الصوتيَّة .

أليس من الأفضل أن نقُول :

إنَّ العمل الأدبيَّ : بناءٌ لُغويٌّ ؛ يستغلُّ كُلَّ إمكانات اللُّغة الموسيقيَّة والتصويريَّة والإيحائيَّة والدالة فى أن ينقل إلى المُتَلَقِّى خبرةً جديدةً مُنفعلة بالحياة ؟! .

ليس هذا بطبيعة الحال تعريفاً للأدب ؛ وإنما هو اقتراح لتعريف « العمل الأدبيّ » ؛ لأنَّ العمل الأدبيَّ هو الشيء القائم الملموس ؛ وهو ما يُمكن أن نتناوله بالدَّرس .

أما الأدب ؛ ذلك الشيء المُجَرَّد ؛ فما أولانا ألا نُتعب أنفسنا فى محاولة تعريفه .

وقد قُلنا فى سياق الكلام :

إن الأديب يستخدم اللغة استخداماً خاصَّاً ؛ والواقع أن هذا لابُدَّ أن يكون بدهيَّاً ؛ على الأقل من حيث أنَّ كُلَّ أديبٍ له شخصيَّته المُستقلة ؛ فيتبع ذلك أن تكون له لُغته الخاصة ؛ أو لِنَقُل : أسْلُوبه الخاص .

- تَمْهِيد :

۞ - فَنُّ المَقَامَة (١)

📖📖📖📖📖

« هي نوعٌ من القصص الأدبيَّة القصيرة التي تعتمد على الخيال في تأليف حوادثها ؛ وترمي إلى غايةٍ ؛ مثل :

١- تعليم اللغة .

٢- سرد الموعظة .

٣- وصف الأشياء .

٤ - نقد الأدب .

٥ - العناية بالعبارات الجزلة البديعة ؛ واشتقاقها من المقام - أي مكان القيام - .

وكل ذلك في الخُطب والتكلُّم في المحافل .

ثم قيل لما يُقال فيها من خُطبةٍ أو موعظةٍ : مقامة .

وقد ترقَّى هذا الفنُّ على يد بديع الزَّمان الهمذانيِّ [٣٩٥ هـ] ؛ إذ أنشأ مقاماته ونحلها أبا الفتح الإسكندريَّ على لسان عيسى بن هشام .

---

(١) - انْظُر : « الأسلوب » للأُستاذ أحمد الشايب : (ص : ١١١ - ١١٢) .

ثم تبعه الحريريُّ [٥١٦ هـ] ؛ فأنشأ خمسين مقامة نحلها أبا زيد السروجيَّ على لسان الحارث بن همَّام .

ثـم تبعهمـا فيهـا الأُدبـاء علـى مَـرِّ العُصُور ؛ كالسيوطيِّ ؛ وابن الجـوزيِّ ؛ والقلقشنديِّ ؛ وغيرهم كثير ؛ وحتى أطلقها المُعاصرون على مقالات فُكاهيَّة عاميَّة نشرتها ولا تزال تنشرها بعض الصُّحُف الأسبوعيَّة فى النَّقْد والفُكاهة .

وقد تُرجمت مقامات الحريريِّ إلى :

- اللاتينيَّة .
- الفرنسيَّة .
- الإنجليزيَّة .
- الألمانيَّة .
- الفارسيَّة .
- التُّركيَّة .

ولا تزال تُدرَّس فى الجامعات الأوربيَّة بشرح سلفستر دى ساسى الذى وضعه سنة ١٨٢٢م .

ويُمكن تمييز المقامات بما يلى :

١ـ أنها تدور فى الغالب على حادثٍ عاديٍّ واحدٍ يتكرَّر فيها ؛ فالبطل ـ كأبى الفتح الإسكندريِّ فى مقامات البديع ؛ أو أبى زيد السروجيِّ فى مقامات

الحريرىّ ـ يبدو للرَّاوى مُتنكِّراً ؛ ثم يكون بينهما فى حوارٍ فى موضوعٍ ما ؛ وأخيراً يعرفه الراوى ؛ فكأنَّ السِّرَّ هو عرفان البطل بعدما كان مُتنكِّراً مجهولاً .

٢ـ وتتناول ـ موضوعيّاً ـ مسائل مُنوَّعة من :

ـ النقد الأدبىّ .

ـ والاجتماعىّ .

والدِّينىّ .

ـ والخُلقىّ .

ـ ثم العظات ؛ والفُكاهات ؛ والأوصاف ؛ والحكايات التى تُصوِّر كثيراً من خواص البيئات التى أُنشئت فيها ؛ كالمقامة القريضيَّة والعراقيَّة والأسديَّة لبديع الزمان .

٣ـ وعباراتها تقوم على الصنعة البديعيَّة ؛ من : سجع ؛ وجناس ؛ وازدواج ؛ وطباق ؛ ومُبالغة ؛ واستعارات ؛ على اختلاف بُعْدِ ذلك فى الإغراب اللغوىّ ؛ ودرجة التكلُّف .

فلا شَكَّ أن الحريرىَّ كان أكثر إغراباً وأشد تكلُّفاً ومُبالغةً من بديع الزمان .

٤ـ يختلف الأسلُوب بعد ذلك بين : الوصف ؛ والقصص ؛ والحوار ؛ فيه : المديح ؛ والهجاء ؛ والجد ؛ والمُجون .

وهو ـ على صنعته ـ مُختلفٌ بين : الرِّقّة واللين ؛ والجزالة والقوة ؛ وكثيراً ما تجد النوعين فى مقامةٍ واحدةٍ .

٥ ـ تجمع المقامات إلى هذا النَّثر الجَزِل البديعىّ قطفاً من نظم الرجز وغيره ؛ وليس المنظوم هذا فى روعة الشِّعر المُمتاز الذى نجده عند البُحترىّ والمُتنبِّى مثلاً ؛ فهو من إنشاء مُؤلِّفى المقامات ؛ وقد عرفت طبعهم الصناعىُّ ؛ ووقوفهم عند غرائب المنثور .

وقد يَظُنُّ النَّاسُ أن المقامات من باب القِصَّة كما يعرفها الأدب الحديث ؛ والحَقُّ أن المقامات لا تثبت للقصة من كُلِّ ناحيةٍ ؛ نعم فيها : الحكاية ؛ والحوار ؛ والوصف ؛ والمغزى النقدىُّ ؛ أو الوعظىُّ ؛ ولكنَّها تنقصها أشياء أُخرى تُبعدها عن طبيعة القصة ؛ من ذلك : عدم التنويع فيها ؛ فالأشخاص لا يتغيَّرُون ؛ والحادثة واحدةٌ ؛ والحرص على المال سائدٌ فيها .

ومن ذلك : التجافى عن التحليل النَّفسىِّ ؛ أو عرض المشاكل وعلاجها ؛ أو الابتكار فى تصوير المواهب والأشخاص .

ومن ذلك : عدم استكمالها عُنصرى الحياة ـ الرَّجُل والمرأة معاً ـ بأُسلُوبٍ يبعث المشاكل ؛ أو يُثير العواطف ؛ أو يدرس المسائل الاجتماعيَّة .

على أن المواعظ ترد فيهم صريحةً مُباشرةً مقصودةً لذاتها .

وفوق ذلك :

فعندى أن أسلوبها فى صنعته وغرابته ؛ ليس أُسلُوب الرِّواية أو القصة التى تعنى بالموضوعات والأفكار التى تُهِمُّ القُرَّاء ؛ وحسبها أنها من هذه النَّاحية : مدرسةٌ لُغويَّةٌ أدبيَّةٌ ؛ وليس من اللازم أن نُورد هنا أمثلةً للمقامات ؛ ونعرض

لها بالشَّرح والتحليل ؛ فهى مشهورةٌ ذائعةٌ ؛ على أن المقام لا يتسع هنا لمثل ذلك. » .أهـ .

✿✿✿✿✿ ✿✿✿✿✿ ✿✿✿✿✿

ـ فَائِدة :

❁ ـ فَنُّ المَقَامَة

ـ مَعْرَكَةٌ بَيْنَ زَكِى مُبَارَك وَأَحْمَد أَمِين

جَاءَ فى كتاب (المعارك الأدبيَّة) للأُستاذ أنور الجندى ما يلى :

(ـ مَعْرَكَةٌ بَيْنَ زَكِى مُبَارَك وَأَحْمَد أَمِين

كتب أحمد أمين مجموعة مقالات فى مجلة الثقافة تحت عنوان « جناية الأدب الجاهلىِّ على الأدب العربىِّ » .[٩ و٢٣ مايو ١٩٣٩ ؛ و٤ يونيه ١٩٣٩ ؛ و٤ و١٥ أغسطس ١٩٣٩] ـ .

ثُمَّ كتب تحت عنوان « أدب الرُّوح وأدب المعدة » مقالاً فى ٦ يونيه ١٩٣٩ .

وفى ١٢ يونيه ١٩٣٩ فاجأت مجلة الرِّسَالة قُرَّائها باستهلالٍ لسلسلةٍ من المقالات العنيفة فى الرَّدِّ على أحمد أمين بقلم الدُّكتور زكى مبارك تحت عنوان « جنايةأحمد أمين على الأدب العربىِّ » .

وقد اتّصلت هذه المقالات حتى ١٣ نوفمبر ١٩٣٩ ـ أى أنها استمرّت ستة شهور ؛ وبلغت ٢٢ مقالة ـ .

ولم يشترك أحمد أمين فى المعركة على نحوٍ سافرٍ بما يُمكن معه أن يُطلق على هذا السِّجَال اسم : معركة ؛ وإن اشترك فيها بعض الباحثين ؛ أمثال : عبد الوهاب عزّام ؛ وعبد المتعال الصعيدى . ﴾ .

.....

﴿ ويرُد على قول أحمد أمين : (إن أدب المقامات : أدب معدة) :

إن احتقار المعدة لا يقوم على أساسٍ من الواقع ؛ ولا من المنطق ؛ وإنما هو مُجاراة للعوام الذين يصعب عليهم أن يُدركوا أن النفس تتبع الجسم فى : الصِّحّة والمرض ؛ والقُوّة والضعف ؛ والنّشاط والخُمول ؛ ويعسُر عليهم أن يفهموا أن الإنسان يرى المعنويّات والمحسوسات بأشكالٍ مُختلفةٍ فى وُجُوهٍ مُتباينةٍ تبعاً لاختلاف : الذّوق ؛ والحِس ؛ والمِزَاج .﴾ .

﴿ ... ؛ يقول أحمد أمين :

« ثُمَّ انظر بعد إلى الفَنِّ المُبتكر فى العصر العبّاسىِّ ؛ وهو فَنُّ المقامات ؛ فقد ابتدعها بديع الزمان الهمذانىُّ ؛ فلم يجعل محورها حُبّاً ولا غراماً كما يفعل الرّوائيُّون ؛ ولم يجعل محورها شيئاً يتصل بأدب الرُّوح ؛ ولكنّها كلها (أدب معدة) ؛ فأبو الفتح الإسكندرىُّ بطل المقامات كلها : رَجُلُ مكرٍ واحتيالٍ ؛ يصطنع جميع المهن لابتزاز الأموال ؛ تراه مرّةً قَرّاداً يُسَلّى الناس

ويُضحكهم ؛ ومرةً واعظاً مُزيّفاً يعظ وينصح ؛ ثم تتكشّف حيله ؛ فإذا هو مُهرّجٌ !! .

وجاء الحريريُّ ؛ فجعل مكان أبى الفتح الإسكندريّ أبا زيد السروجيَّ : وهو كصاحبه دناءة نفسٍ وخساسة حرفةٍ . » .

أبهذه الجرأة يحكم أحمد أمين على فَنِّ المقامات؟!! .

يُلاحظ أوَّلاً أن أحمد أمين لم يفهم أغراض الحريريّ وبديع الزَّمان ؛ فهو يتوهَّم أنهما يُحاولان إغراء الجماهير بالإقبال على ما فى تلك المقامات من شمائلٍ وخصالٍ ؛ بينما الغرض من تعلُّم المقامات عند بديع الزَّمان : هو نقد الحياة الاجتماعيَّة والأدبيَّة فى القرن الرَّابع .

وغفل أحمد أمين أن للفنِّ غايةً أُخرى ؛ وهى النظريَّة التى تقول : بأن للفن والأدب غايةً أصيلةً ؛ هى الصدق فى وصف ما ترى العُيُون ؛ وما تحَسُّ القُلُوب ؛ وما تُدْرِك العُقُول .

ثُمَّ يقول :

هل يُطلب من الكاتب ألا يغفل وصف الطُّفيليين لئلا يُقال : إن أدبه أدب معدة .

أتحبُّون أن تعرفوا من أين وصل الخطأ إلى الأُستاذ أحمد أمين؟!!

وصل إليه الخطأ من التلمذة للأُستاذ الكبير طه حسين !! ؛ فقد حكم الدكتور طه بأن العصر العباسىَّ عصر شَكٍّ ومجُونٍ ؛ لأن فيه عصابةً مشهورةً بالـزَّيع والفسق ؛ وهى جماعة أبى نُواس ومُطيع بن إياس .

مع أن العصر الذى عرف أمثال هذين الرَّجُلين ؛ هو نفس العصر الذى نبغ فيه كبار الفُقهاء والنُّسَّاك والزُّهَّاد ؛ وهو الذى بلغ فيه الفكر العربىُّ غاية الغـايات فى فهـم أُصُـول الفلسفـة وَأُصُـول الأخـلاق .) . أ هـ . (١) .

۞۞۞۞۞ ۞۞۞۞۞ ۞۞۞۞۞

---

(١) ـ ((المعارك الأدبيَّة)) : أحمد أنور سيِّد أحمد الجندى (المتوفى : ١٤٢٢هـ) : (ص : ٢٤١) ؛ (ص : ٢٤٢ ـ ٢٤٣) ؛ (ص : ٢٤٧ ـ ٢٥١) .

فَنُّ المَقَامَةِ العَرَبِيَّة

❁ـ مَقَامَات بَدِيع الزَّمَان الهَمَذَانِيِّ

(ت سَنَة ٣٩٨هـ)

.....

ـ التَّعْرِيفُ بِالرَّجُل :

❁ـ بَدِيعُ الزَّمَانِ الهَمَذَانِيُّ

١ـ اسْمُهُ ؛ وكُنْيَتُهُ ؛ ولَقَبُهُ ؛ وَنِسْبَتُهُ :

قَالَ ياقُوت الحمويُّ فِي « مُعْجَم الأُدَبَاء » ؛(جـ ١ / ٢٣٤) :

« قال أبو شجاع شيرويه بن شهردار في ‹ تاريخ همذان › : إن أحمد بن الحسين بن يحيى بن سعيد بن بشر ؛ أبا الفضل ؛ المُلَقَّب ببديع الزمان .... » .

٢ـ مَوْلِدُهُ :

فِي « مُعجم الأُدباء » ؛ (جـ ١ / ٢٣٥) :

« وُلِدَ في ثالث عشر جمادى الآخرة ؛ سنة ثمان وخمسين وثلاثمائة » .

قُلْتُ : وكان مولدهُ ببلدة همذان

قَالَ يَاقُوت فى « مُعجم البُلدان » ؛ (جـ ٥ / ٤١٠ ـ ٤١٧) ـ باختصار ـ :

« ـ هَمَذَان :

بالتحريك ؛ والذال مُعجمة ؛ وآخره نون : فى الإقليم الرّابع ؛ وطولها من جهة المغرب ثلاث وسبعون درجة ؛ وعرضها ستٌّ وثلاثون درجة .

قال هشام بن الكلبىُّ : همذان سُمّيَت بهمذان بن الفلّوج بن سام بن نوح ـ عليه السّلام ـ ؛ وهمذان وأصبهان أخوان بنى كُلُّ واحدٍ منهما بلدة ؛ وَوُجِدَ فى بعض كُتُبِ السريانيين فى أخبار الملوك والبُلدان : إن الذى بنى همذان يُقال له كرميس بن حليمون ؛ وذكر بعض علماء الفُرس : أن اسم همذان إنما كان نادمه ومعناه المحبوبة ؛ وروى عن شُعبة أنه قال : الجبال عسكر وهمذان معمعتها ؛ وهى أعذبها ماءً وأطيبها هواءً ؛ وقال ربيعة بن عثمان : كان فتح همذان فى جُمادى الأولى على رأس ستة أشهرٍ من مقتل عمر بن الخطّاب ـ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ ـ ؛ وكان الذى فتحها المُغيرة بن شُعبة فى سنة ٢٤ من الهجرة ؛ وفى آخر : وَجّهَ المُغيرة بن شُعبة وهو عامل عمر بن الخطّاب على الكوفة بعد عزل عمّار بن ياسر عنها جرير بن عبد الله البجلىَّ إلى همذان فى سنة ٢٣ ؛ فقاتله أهلها ؛ وأُصيبَت عينه بسهم ؛ فقال : أحتسبها عند الله الذى زَيّنَ بها وجهى ونوّر لى ما شاء ثم سلبنيها فى سبيله ؛ وجرى أمر همذان على مثل ما جرى عليه أمر نهاوند ؛ وذلك فى آخر سنة ٢٣ ؛ وغلب على أرضها قسراً ؛ وضمّها المُغيرة إلى كثير بن شهاب والى الدينور ؛ وإليه يُنسب قصر كثير فى نواحى الدينور ؛ وقال بعض عُلماء الفُرس : كانت همذان أكبر

مدينة بالجبال ؛ وكانت أربعة فراسخ فى مثلها ؛ طولها من الجبل إلى قريةٍ يُقال لها زينوآباذ ؛ وكان صنف التجار بها وصنف الصيارف بسنجاباذ ؛ وكان القصر الخراب الذى بسنجاباذ تكون فيه الخزائن والأموال ؛ وكان صنف البَزَّازين فى قريةٍ يُقال لها برشيقان ؛ فيُقال إن بخت نصَّر بعث إليها قائداً يُقال له صقلاب فى خمسمائة ألف رَجُلٍ ؛ فأناخ عليها ؛ وأقام يُقاتل أهلها مُدَّةً وهو لا يقدر عليها ؛ فلما أعيته الحيلة فيها وعزم على الانصراف استشار أهله ؛ فقالوا : الرأى أن تكتب إلى بخت نصَّر وتُعلمه أمرك وتستأذنه فى الانصراف ؛ فكتب إليه :

أمَّا بعدُ ؛ فإنى وردت على مدينةٍ حصينةٍ ؛ كثيرة الأهل ؛ منيعة ؛ واسعة الأنهار ؛ ملتفة الأشجار ؛ كثيرة المُقاتلة ؛ وقد رُمْتُ أهلها فلم أقدر عليها ؛ وضجر أصحابى المقام ؛ وضاقت عليهم المِيرَة والعلوفة ؛ فإن أذن لى الملك بالانصراف فقد انصرفت .

فلما وصل الكتاب إلى بخت نصَّر كتب إليه :

أمَّا بعد ؛ فقد فهمت كتابك ؛ ورأيت أن تُصوِّر لى المدينة بجبالها وعيونها وطرقها وقُراها ومنبع مياهها ؛ وتُنفذ إلىَّ بذلك حتى يأتيك أمرى .

ففعل صقلاب ذلك ؛ وصوَّر المدينة ؛ وأنفذ الصورة إليه وهو ببابل ؛ فلما وقف عليه جمع الحكماء وقال : أجيلوا الرأى فى هذه الصورة ؛ وانظروا من أين تُفتح هذه المدينة ؛ فأجمعوا على أن مياه عيونها تُحبس حولاً ثم تُفتح وتُرسل على المدينة ؛ فإنها تغرق .

فكتب بخت نصَّر إلى صقلاب بذلك ؛ وأمره بما قاله الحُكماء ؛ ففتح ذلك الماء بعد حبسه وأرسله على المدينة ؛ فهدم سُورها وحيطانها وغرق أكثر أهلها ؛ فدخلها صقلاب وقتل المُقاتلة وسبى الذريَّة ؛ وأقام بها ؛ فوقع فى أصحابه الطاعون ؛ فمات عامتهم حتى لم يبق منهم إلا قليل ؛ وَدُفِنُوا فى أحواضٍ من خزفٍ ؛ فقبورهم معروفةٌ توجد فى المحالِّ والسِّكك إذا عمروا دورهم وخرَّبوا ؛ ولم تزل همذان بعد ذلك خراباً ؛ حتى كانت حرب دارا بن دارا والإسكندر ؛ فإن دارا استشار أصحابه فى أمره لمَّا أظلَّهُ الإسكندر ؛ فأشاروا عليه بِمُحاربته بعد أن يحُرز حرمه وأمواله وخزائنه بمكانٍ حريزٍ لا يُوصل إليه ويتجرَّد هو للقتال ؛ فقال : انظروا موضعاً حريزاً حصيناً لذلك ؛ فقالوا له : إن من وراء أرض الماهين جبالاً لا تُرام ؛ وهى شبيهةٌ بالسند ؛ وهُناك مدينةٌ منيعةٌ عتيقةٌ قد خربت وبارت وهلك أهلها وحولها جبالٌ شامخةٌ يُقال لها همذان ؛ فالرأى للملك أن يأمر ببنائها وإحكامها ؛ وأن يجعل فى وسطها حصناً يكون للحرم والخزائن والعيال والأموال ؛ ويبنى حول الحصن دور القُوَّاد والخاصة والمرازبة ؛ ثم يُوكل بالمدينة اثنى عشر ألف رَجُلٍ من خاصَّة الملك وثقاته يحمونها ويُقاتلون عنها من رامها .

قال : فأمر دارا ببناء همذان ؛ وبنى فى وسطها قصراً عظيماً مُشرفاً له ثلاثة أوجهٍ وسمَّاه (ساروقا) ؛ وجعل فيه ألف مخبإٍ لخزائنه وأمواله ؛ وأغلق عليه ثمانية أبواب حديد ؛ كل بابٍ فى ارتفاع اثنى عشر ذراعاً ؛ ثم أمر بأهله وولده

وخزائنه فحوّلوا إليها وأسكنوها ؛ وجعل فى وسط القصر قصراً آخر صيَّر فيه خواص حرمه وأحرز أمواله فى تلك المخابىء ؛ ووكَّلَ بالمدينة اثنى عشر ألفاً وجعلهم حُرَّاساً .

وحكى بعض أهل همذان عنها مثل ما حكيناه أوَّلاً عن بخت نصَّر : من حبس الماء وإطلاقه على البلد حتى خرَّبه وفتحه ؛ والله أعلم .

ويُقال : إنَّ أوَّلَ من بنى همذان جم بن نوجهان بن شالخ بن أرفخشد بن سام ابن نوح ـ عليه السَّلام ـ ؛ وسمَّاها : سارو ؛ ويُعرَّب فيُقال : ساروق ؛ وحصَّنها بهمن بن إسفنديار ؛ وإن دارا وجد المدينة حصينة المكان دارسة البناء ؛ فأعاد بناءها ؛ ثم كَثُرَ الناس بها فى الزمان القديم حتى كانت منازلها تُقدَّر بثلاثة فراسخ ؛ وكان صنف الصاغة بها بقرية سنجاباذ ؛ واليوم تلك القرية على فرسخين من البلد .

قال شيرويه فى أخبار الفرس بلسانهم :

سارو جم كرد دارا كمر بست بهمن إسفنديار بسر آورد ؛ معناه : بنى الساروق جم ؛ ونطَّقه دارا ؛ أى : سوَّره وعمَّم عليه سُوراً واستتمَّه وأحسنه بهمن بن إسفنديار .

وذكر أيضاً بعض مشايخ همذان أنها أعتق مدينةٍ بالجبل ؛ واستدلُّوا على ذلك من بقيَّة بناءٍ قديمٍ باقٍ إلى الآن ؛ وهو طاقٌ جسيمٌ شاهقٌ لا يُدرى من بناه ؛ وللعامَّة فيه أخبارٌ عاميَّةٌ ؛ ألغينا ذكرها خوف التُّهمة .

قال المُؤلِّف : ولا شَكَّ عند كُلٍّ من شاهد همذان : بأنها من أحسن البلاد ؛ وأنزهها ؛ وأطيبها ؛ وأرفهها ؛ وما زالت مَحَلاً للملوك ومعدناً لأهل الدين والفضل ؛ إلاّ أن شتاءها مُفرط البرد ؛ بحيث قد أُفرِدَت فيه كُتُبٌ !! ؛ وَذُكِرَ أمره بالشِّعْرِ والخُطَب !! ؛ وسنذكر من ذلك مُناظرةً جرت بين رَجُلٍ من أهل العراق يُقال له : عبد القاهر بن حمزة الواسطىّ ؛ وَرَجُلٍ من همذان يُقال له الحُسين بن أبى سرح فى أمرها ؛ فيه كفايةٌ ؛ قالوا :

وكانا كثيراً ما يلتقيان ؛ فيتحادثان الأدب ويتذاكران العلم ؛ وكان عبد القاهر لا يزال يَذُمُّ الجبل وهواءه وأهله وشتاءه ؛ لأنه كان رَجُلاً من أهل العراق ؛ وكان ابن أبى سرح مُخالفاً له كثيراً ؛ يَذُمُّ العراق وأهله ؛ فالتقيا يوماً عند محمد ابن إسحاق الفقيه ؛ وكان يوماً شاتياً صادق البرد كثير الثلج ؛ وكان البرد قد بلغ من عبد القاهر مبالغه !! ؛ فلمَّا دخل وسلَّم ؛ قال : لعن الله الجبل ولعن ساكنيه !! ؛ وخصَّ الله همذان من اللعن بأوفره وأكثره !! ؛ فما أكدر هواءها !! وأشد بردها وأذاها !! ؛ وأشد مؤونتها !! ؛ وأقلَّ خيرها !! ؛ وأكثر شرِّها !! ؛ فقد سَلَّطَ الله عليها الزمهرير الذى يُعذِّبُ به أهل جهنم ؛ مع ما يحتاج الإنسان فيها من الدِّثار والمؤن المُجحفة !! ؛ فوجوهكم يا أهل همذان مائلة ؛ وأنوفكم سائلة ؛ وأطرافكم خصرة ؛ وثيابكم مُتَّسِخَة ؛ وروائحكم قذرة ؛ ولحاكم دُخانيَّة ؛ وسبلكم منقطعة ؛ والفقر عليكم ظاهر ؛ والمستور فى بلدكم مهتوك : لأن شتاءكم يهدم الحيطان ؛ ويُبرز الحَصَان ؛ ويُفسد الطُّرُق ؛ ويُشَعِّث الآطام ؛ فطُرقكم وحلة تتهافت فيها الدواب ؛ وتتقذَّر فيها الثياب ؛ وتتحطَّم

الإبل ؛ وتُخسف فيها الآبار ؛ وتفيض المياه ؛ وتكف السطوح ؛ وتهيج الرياح العواصف ؛ وتكون فيها الزلازل والخسوف والرعود والبروق والثلوج والدّمق ؛ فتنقطع عند ذلك السُّبُل ؛ ويكثر الموت ؛ وتضيق المعايش ؛ فالناس فى جبلكم هذا فى جميع أيَّام الشتاء يتوقَّعون العذاب ؛ ويخافون السُّخْطَ والعقاب ؛ ثم يُسَمُّونه العدو المُحاصِر والكَلْب الكَلِب ؛ ولذلك كتب عمر بن الخطَّاب ـ رَضِىَ اللهُ عَنْهُ ـ إلى بعض عُمَّاله : إنه قد أظلَّكم الشتاء ؛ وهو العدو المُحاصِر ؛ فاستعدوا له الفراء ؛ واستنعلوا الحذاء .

فالشتاء يهدم الحيطان !! ؛ فكيف الأبدان ؟!! ؛ لا سيَّما شتاؤكم الملعون !! ؛ ثم فيكم أخلاق الفُرس ؛ وجفاء العلوج ؛ وبخُل أهل أصبهان ؛ ووقاحة أهل الرَّى ؛ وفدامة أهل نهاوند ؛ وغلظ طبع أهل همذان ؛ على أن بلدكم هذا أشد البُلدان برداً ؛ وأكثرها ثلجاً ؛ وأضيقها طُرقاً ؛ وأوعرها مسلكاً ؛ وأفقرها أهلاً ؛ وكانُ يقال : أبرد البُلدان ثلاثة : برذعة ؛ وقاليقلا ؛ وخوارزم ؛ وهذا قول من لم يدخل بلدكم ولم يشاهد شتاءكم !! .

وقد حدَّثنى أبو جعفر محمد بن إسحاق المُكتِّب ؛ قال : لمَّا قدم عبد الله بن المبارك همذان ؛ أُوقدت بين يديه نار ؛ فكان إذا سخن باطن كَفِّه أصاب ظاهرها البرد ؛ وإذا سخن ظاهرها أصاب باطنها البرد !! .

ثم التفت إلى ابن أبى سرح ؛ وقال : يا أبا عبد الله ! ؛ وهذا والدك يقول :

النَّارُ فِى هَمَذَانَ يَبْرُدُ حَرُّهَا

وَالبَرْدُ فِى هَمَذَانَ دَاءٌ مُسْقِمُ (١).

قالوا : ومن عجائب همذان : صورة أسدٍ من حَجَرٍ على باب المدينة ؛ يُقال إنه طلسمٌ للبرد من عمل بليناس صاحب الطلسمات حين وجَّههُ قباذ ليطلسم آفات بلاده ؛ ويُقال إن الفارس كان يغرق بفرسه فى الثلج بهمذان لكثرة ثلوجها وبردها !! ؛ فلمَّا عمل لها هذا الطلسم فى صورة الأسد قلَّ ثلجها وصلح أمرها ؛ وعمل أيضاً على يمين الأسد طلسماً للحيَّات وآخر للعقارب فنقصت ؛ وآخر للغرق فأمنوه ؛ وآخر للبراغيث فهى قليلة جدًّا بهمذان ؛ ولمَّا عمل بليناس هذه الطلسمات بهمذان استهان بها أهلها ؛ فاتخذ فى جبلهم الذى يُقال له أروند طلسماً مُشرفاً على المدينة للجفاء والغلظ ؛ فهم أجفى الناس وأغلظهم طبعاً !! ؛ وعمل طلسماً آخر للغدر ؛ فهم أغدر الناس ؛ فلذلك حوَّلت الملوك الخزائن عنها خوفاً من غدر أهلها ؛ واتخذ طلسماً آخر للحروب ؛ فليست تخلو من عسكرٍ أو حربٍ .

وقال البديع الهمذانىُّ فيها :

هَمَذَانُ لِى بَلَدٌ أَقُولُ بِفَضْلِهِ

... ؛ لَكِنَّهُ مِن أَقْبَحِ البُلْدَانِ

---

(١) ـ عِنْدَ هَذَا المَوْضِعِ رَأَيْنَا أَن نَقِف ؛ إِذ هَذَا هُوَ مَا نَحتَاجُهُ مِن أَمْرِ هَذِهِ المُنَاظَرَةِ الطَّرِيفَة .

صِبْيَانُهُ فِى القُبْحِ مِثْلُ شُيُوخِهِ
وَشُيُوخُهُ فِى العَقْلِ كَالصِّبْيَانِ » . أهـ .

عَوْدٌ عَلَى بَدْءٍ:

٣ـ مَوْطِنُهُ الَّذِى اسْتَقَرَّ بِهِ :

فِى « مُعجم الأُدباء » ؛ (جـ ١ / ٢٣٤) :

« قال أبو شُجاع شيرويه بن شهردار فى (تاريخ همذان) : سكن هراة » .

قُلْتُ : وَإِلَيْكَ الحديث عن مَاهِيَّةِ هذهِ المدينة :

قَالَ يَاقُوت فِى « مُعجم البُلدان » ؛ (جـ ٥ / ٣٩٦ ـ ٣٩٧) ـ باختصار ـ :

« هَرَاةُ :

بالفتح : مدينةٌ عظيمةٌ مشهورةٌ ؛ من أُمَّهات مُدُن خراسان ؛ لم أر بخراسان عند كونى بها فى سنة ٦٠٧ مدينةً أجلَّ ولا أعظم ولا أفخم ولا أحسن ولا أكثر أهلاً منها !! ؛ فيها بساتينٌ كثيرةٌ ؛ ومياهٌ غزيرةٌ ؛ وخيراتٌ كثيرةٌ ؛ محشُوَّةٌ بالعُلماء ؛ ومملوَّةٌ بأهل الفضل والثراء .

وقد أصابها عين الزمان ؛ ونكبتها طوارق الحدثان ؛ وجاءها الكُفَّار من التتر ؛ فخرَّبوها حتى أدخلوها فى خبر كان !! ؛ فإنَّا لله وإنَّا إليه راجعون ؛ وذلك فى سنة ٦١٨ .

قال الرّهنى : إن مدينتها بُنيت للإسكندر ؛ وذلك أنه لَمَّا دخل الشرق ومرَّ بها إلى الصين ؛ وكان من عادته أن يُكلِّفَ أهل كُلِّ بلدٍ ببناء مدينةٍ تحصِّنهم من

الأعداء ؛ فيُقدِّرها ويُهندسها لهم ؛ وأنه أُعْلِمَ أن فى أهل هراة شِمَاساً وقلَّة قبولٍ ؛ فاحتال عليهم ؛ وأمرهم أن يبنوا مدينةً ويُحكموا أساسها ؛ ثم خَطَّ لهم طولها وعرضها وسُمك حيطانها وعدد أبراجها وأبوابها ؛ واشترط لهم أن يُوفِّيهم أجورهم وغراماتهم عند عوده من ناحية الصين ؛ فلما رجع من الصين ونظر إلى ما بنوه ؛ عابه وأظهر كراهيته ؛ وقال : ما أمرتكم أن تبنوا هكذا ؛ فردَّ بناءهم عليهم بالعيب ولم يُعطهم شيئاً .

ونُسِبَ إليها خلقٌ من الأئمة والعُلماء ؛ منهم :

ـ الحُسَيْن بن إدريس بن المُبارك بن الهيثم بن زياد ؛ أبو علىٍّ الأنصاريُّ ؛ مولاهم ؛ الهرويُّ ؛ أحد مشهورى المُحدِّثين بهراة : سمع بدمشق هشام بن عمَّار ؛ وسمع ببغداد عثمان بن أبى شيبة ؛ وغيره خلقاً كثيراً ؛ وروى عنه جماعةٌ كثيرةٌ ؛ منهم حاتم بن حبَّان .

وقال الدَّارقطنيُّ :

الحُسَيْنُ بن حزم ؛ وأخوه يوسف بن حزم ؛ الهرويَّان ؛ يُنسبان إلى الأنصار ؛ واسم أبيهما : إدريس ؛ ولقبه : حزم ؛ وللحسين كتابٌ صنَّفهُ فى التاريخ على حروف المعجم نحو كتاب البُخاريِّ الكبير ؛ ذكر فيه حديثاً كثيراً وأخباراً ؛ وكان من الثقات ؛ ومات سنة ٣٠١ .)) .

٤ـ شُيُوخُهُ :

فِى ((مُعجم الأُدباء)) ؛ (جـ ١ / ٢٣٤) :

« قال أبو شجاع شيرويه بن شهردار فى (تاريخ همذان) : إن أحمد بن الحسين ... ؛ المُلقَّب ببديع الزمان ... ؛ روى عن : أبى الحُسَيْن أحمد بن فارس ابن زكريا ؛ وعيسى بن هشام الأخبارىّ » .

وَفى هذا المصدر أيضاً ؛ (ج ١ / ٢٣٥ ـ ٢٣٦) :

« وقد درس على أبى الحُسين بن فارس ؛ وأخذ عنه جميع ما عنده ؛ واستنفد علمه » .

قُلْتُ : هَكَذَا ذُكِرَ أنَّ ابن فارس كان من شيوخه ؛ بل كان أبرز شيوخه ؛ وَإِذَا كان ذلك كذلك ؛ فلابُدَّ من حديثٍ عن هذا الرَّجُل :

ترجم لهُ عبد أبو منصور الثعالبىُّ « ت ٤٢٩هـ » فى « يتيمة الدهر فى محاسن أهل العصر » ؛ (جـ ٣/ ٤٦٣ ـ ٤٧٠) ـ باختصار ـ :

« ـ أَبُو الْحُسَيْن أَحْمد بن فَارس بن زَكَرِيَّا ؛ الْمُقِيم ؛ كَانَ بهمذان ؛ من أَعْيَان العلم ؛ وأفراد الدَّهْر ؛ يجمع : إتقان العُلمَاء ؛ وظرف الكُتَّاب وَالشُّعرَاء .

وَهُوَ بِالْجَبَلِ : كَابْن لنكك بالعراق ؛ وَابْن خالويه بِالشَّام ؛ وَابْن العلاَّف بِفَارِس ؛ وَأبى بكر الْخَوَارِزْمِيّ بخُراسان ؛ وَله كُتُبٌ بديعةٌ ؛ ورسائلٌ مُفيدةٌ ؛ وأشعارٌ مليحةٌ ؛ وتلامذةٌ كَثِيرَةٌ ؛ مِنْهُم : بديع الزَّمَان .

وَأَنا أكتب من رِسَالَةٍ لأبى الْحُسَيْن كتبهَا لأبى عَمْرو مُحَمَّد بن سعيد الكَاتِب فصلاً فِى نِهَايَة الملاحة يُنَاسب كتابى هَذَا فِى محَاسِن أهل العَصْر ؛ ويتضمَّن أنموذجاً من مُلَحِ شُعراء الجَبَل وَغَيرهَا من العصريين وظرف

أخبارهم ؛ كَأبى مُحَمَّد القزْوِينِىّ ؛ وَابْنِ الرياشىّ ؛ والهمذانىّ الْمُقِيم بشيراز ؛ وَابْن الْمَنَاوِىّ ؛ وَأبى عبد الله المغسلىّ المراغىّ ؛ وَغَيرهم ؛ثُمَّ أُورِدُ مَا وَقع إِلَىَّ من مُلَحِ أبى الْحُسَيْن إِن شَاءَ الله تَعَالَى .

ـ الْفَصْل من الرسَالَة الْمَذْكُورَة :

ألهمـك الله الرَّشاد ؛ وأصـحبك السَّـداد ؛ وجنَّبك الْخلاف ؛ وحبَّـبَ إِلَيْـكَ الإِنْصَاف ؛ وَسَبَبُ دُعائى بِهَذَا لَكَ : إنكارك على أبى الحسن مُحَمَّد بن عَلىّ العجلِىّ تأليفه كتاباً فِى الحماسة ؛ وإعظامك ذَلِك ؛ وَلَعَلَّه لَـو فعـل حَتَّـى يُصِيب الغَرَض الَّـذِى يُريدهُ ؛ وَيَرِد المنهـل الَّـذِى يَؤمُّهُ ؛ لاستدرك مـن جيِّـد الشِّعْر ونقيِّه ومُختاره ورضيِّه كثيراً مِمَّا فَاتَ الْمُؤَلِّف الأوَّل ؛ فَمَاذَا الإِنْكَار ؟!! وَلِمَ هَذَا الإعتراض ؟!! وَمن ذَا حظر على الْمُتَأَخِّر مُضادة الْمُتَقَدِّم ؟!! ولمه تَأْخُذ بقول من قَالَ : مَا ترك الأول للآخر شَيْئاً ؛ وَتَدَع قَول الآخر : كـم تـرك الأول للآخر ؟!! ؛ وَهل الدُّنيَا إِلاَّ أزمان ؛ وَلكُلِّ زمَان مِنْهَا رجال ؟!! ؛ وَهـل العُلُوم بعد الأُصُول المحفوظة إِلاَّ خطرات الأوهام ونتائج الْعُقُول ؟!! ؛ وَمن قَصَرَ الآدَاب على زمَانٍ مَعْلُومٍ ؛ ووقفها على وَقتٍ مَحْدُودٍ ؟!! ؛ ولمه لا ينظر الآخر مثل مَا نظر الأوَّل حَتَّى يُؤلِّف مثل تأليفه ؛ وَيجمع مثل جمعه ؛ وَيرى فِى كل ذَلِك مثل رَأيه ؟!! ؛ وَمَا تَقول لفُقهاء زَمَاننَا إِذا نزلت بهم مـن نَـوَادِر الأَحْكَام نازلةٌ لم تخطر على بَال من كَانَ قبلهم ؟!! ؛ أَو مَـا علمـت أن لكُـلِّ قلبٍ خاطراً ؛ وَلكُلِّ خاطرٍ نتيجة ؟!! ؛ ولمه جَازَ أن يُقَال بعـد أبـى تَمَّـام مثـل شعره ؛ وَلم يجُز أن يُؤلِّـف مثـل تأليفـه ؟!! ؛ ولمـه حجـرت وَاسِعاً ؛ وحظرت

مُبَاحاً ؛ وَحرَّمت حَلالاً ؛ وسددت طَرِيقاً مسلوكاً ؟!! ؛ وَهل حبيبٌ إلاّ وَاحِدٌ من الْمُسلمين لَهُ مَا لَهُم وَعَلَيْهِم مَا عَلَيْهِم ؟!! ؛ وَلم جَازَ أن يُعَارض الْفُقَهَاء فِي مؤلفاتهم ؛ وَأهل النَّحْو فِي مصنفاتهم ؛ والنُّظَّار فِي موضوعاتهم ؛ وأرباب الصناعات فِي جَمِيع صناعاتهم ؛ وَلم يجز مُعَارضَة أبي تَمَّام فِي كتابٍ شَذَّ عَنهُ فِي الأَبْوَاب الَّتِي شرعها فِيهِ أمرٌ لا يُدْرك وَلا يُدْرى قدره؟!! ؛ وَلَو اقْتصرَ النَّاسُ على كُتُبِ القُدماء ؛ لضاع علمٌ كثيرٌ ؛ ولذهب أدبٌ غزيرٌ ؛ ولضلَّت أفهامٌ ثاقبةٌ ؛ وَلَكَلَّت أَلْسُنٌ لَسِنَةٌ ؛ وَلَمَّا توشَّى أحدٌ الخطابة ؛ وَلا سلك شِعْبَاً من شِعَابِ البلاغة ؛ وَلَمَجَّت الأسماع كُلَّ مُردَّدٍ مُكَرَّرٍ ؛ وللفظت القلوب كل مُرَجَّعٍ مُمضَّغٍ .

... ؛ وَهَذِه مُلَحٌ من شعر أبي الْحُسَيْن بن فَارس :

مِنْهَا قَوْله فِي الشَّكوى :

سَقَى هَمَذَانَ الغَيْثُ لَسْتُ بِقَائِلٍ
سِوَى ذَا وَفِي الأَحْشَاءِ نَارٌ تَضَرَّمُ
وَمَا لِيَ لا أُصْفِي الدُّعَاءَ لِبَلْدَةٍ
أَفَدتُ بهَا نِسْيَانَ مَا كُنْتُ أَعْلَمُ ؟!!
نَسِيتُ الَّذِي أَحْسَنْتُهُ غَيْرَ أَنَّنِي
مَدِينٌ وَمَا فِي جَوْفِ بَيْتِيَ دِرْهَمُ !!

وَقوله :

وَقَالُوا كَيْفَ حَالُكَ قُلْتُ خَيْرٌ
تُقَضَّى حَاجَةٌ ؛ وَتَفُوتُ حَاجُ
إذَا ازْدَحَمَت هُمُومُ الصَّدْرِ قُلْنَا
عَسَى يَوْمَاً يَكُونُ لَهَا انْفِرَاجُ
نَدِيمِى هِرَّتِى ؛ وَأَنِيسُ نَفْسِى
دَفَاتِرُ لِى ؛ وَمَعْشُوقِى السِّرَاجُ

وَقَوله :

اسْمَع مَقَالَةَ نَاصِحٍ
جَمَعَ النَّصِيحَةَ وَالمِقَهْ
إِيَّاكَ وَاحْذَرْ أن تَبِيتَ مِنَ الثِّقَاتِ عَلَى ثِقَهْ

وَقَوله :

إِذَا كُنْتَ فِى حَاجَةٍ مُرْسِلاً ؛ وَأَنْتَ بِهَا كَلِفٌ مُغْرَمُ
فَأَرْسِل حَكِيماً وَلا تُوصِهِ وَذَاكَ الْحَكِيمُ هُوَ الدِّرْهَمُ

وَقَوله :

عَتَبْتُ عَلَيْهِ حِينَ سَاءَ صَنِيعُهُ وَآلَيْتُ لا أَمْسَيْتُ طَوْعَ يَدَيْهِ
فَلَمَّا خَبِرْتُ النَّاسَ خُبْرَ مُجَرِّبٍ وَلَم أَرَ خَيْراً مِنْهُ عُدتُ إِلَيْهِ

أخذه من قَول القَائِل :

عَتَبْتُ عَلَى سَلْمٍ ؛ فَلَمَّا هَجَرْتُهُ
وَجَرَّبْتُ أَقْوَامَاً ؛ رَجَعْتُ إِلَى سَلْمٍ . ».

وفى « المُسْتَفَاد مِن تَارِيخ بَغْدَاد » لابْنِ الدِّمْيَاطِيِّ ؛ [جـ ٢١ / ٤٦ ؛ رَقَمُ التَّرْجَمَة : ٤٣] :

« قال : كان الصاحب بن عبَّاد يقول : شيخنا أبو الحسين بن فارس : رُزِقَ التصنيف ؛ وَأَمِنَ من التصحيف .

وله من التصانيف :

- الجمل فى اللغة .
- وكتاب : مُتخيَّر الألفاظ .
- وكتاب : فقه اللغة .
- وكتاب : غريب إعراب القرآن .

يُقال : إن أبا الحسين بن فارس كان بقزوين يُصنِّف فى كُلِّ ليلة جمعة كتاباً ؛ ويبيعه يوم الجمعة قبل الصَّلاة ؛ ويتصدَّق بثمنه ؛ فكان هذا دأبه !! .

توفِّى بالرَّى فى صفر سنة خمس وتسعين وثلاثمائة .

رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى . » .

وذكرهُ ياقُوت الحمويُّ فى « مُعجم الأُدباء » ؛ (جـ ١ / ٤١٠ - ٤١٨) ؛ وَإِلَيْكَ المُسْتَفَادُ مِن هَذِهِ التَّرْجَمَة :

« أحمد بن فارس بن زكريا اللغوىُّ

وقال ابن الجوزىّ : أحمد بن زكريا بن فارس ؛ ولا يُعاج به .

مات سنة تسع وستين وثلاثمائة ؛ وقال قبل وفاته بيومين :

يَا رَبِّ إِن ذُنُوبِى قَد أَحَطتَ بِهَا
عِلْمَاً وَبِى وَبِإِعْلانِى وَإِسْرَارِى
أَنَا المُوحِّدُ لَكِنِّى المُقِرُّ بِهَا
فَهَب ذُنُوبِى لِتَوْحِيدِى وَإِقْرَارِى

وَوُجِدَ بخط الحُميدىِّ : أن ابن فارس مات فى حدود سنة ستين وثلاثمائة ؛ وكُلٌّ منهما لا اعتبار به ؛ لأنى وجدت خطَّ كَفِّهِ على (كتاب تتمة الفصيح) من تصنيفه ؛ وقد كتبه فى سنة إحدى وتسعين وثلاثمائة .

وذكره الحافظ السِّلَفِىُّ فى (شرح مُقدِّمة معالم السنن) للخطَّابى ؛ فقال : أصله من قزوين .

وقال غيره : أخذ أحمد بن فارس عن أبى بكر أحمد بن الحسن الخطيب راوية ثعلب ؛ وأبى الحسن علىِّ بن إبراهيم القطَّان ؛ وأبى عبد الله أحمد بن طاهر المُنَجِّم ؛ وعلىِّ بن عبد العزيز المكىِّ صاحب أبى عُبَيْد ؛ وأبى القاسم سُليمان بن أحمد الطبرانىِّ .

وكان ابن فارس يقول : ما رأيت مثل أبى عبد الله أحمد بن طاهر ؛ ولا رأى هو مثل نفسه .

وكان كريماً جواداً ؛ لا يُبقى شيئاً ؛ وربما سُئِلَ فوهب ثياب جسمه وَفَرْشَ بيته .

وله من التصانيف :

- كتاب : المُجمل .
- وكتاب : مُتخيَّر الألفاظ .
- كتاب : فقه اللغة .
- كتاب : غريب إعراب القرآن .
- كتاب : تفسير أسماء النَّبِيِّ عَلَيْهِ السَّلام .
- كتاب مُقدِّمة نحو .
- كتاب : دارات العرب .
- كتاب : حلية الفُقهاء .
- كتاب : الفرق .
- كتاب : مُقدِّمة الفرائض .
- كتاب : ذخائر الكلمات .
- كتاب : شرح رسالة الزُّهرِيِّ إلى عبد الملك بن مروان .
- كتاب : الحجر .
- كتاب : سيرة النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم - كتابٌ صغير الحجم - .
- كتاب : الليل والنهار .
- كتاب : العَمُّ والخال .

- كتاب : أُصُول الفقه .
- كتاب أخلاق النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم .
- كتاب : الصاحبيُّ - صنَّفهُ لخزانة الصاحب - .
- كتاب : جامع التأويل فى تفسير القرآن - أربع مُجَلَّدات - .
- كتاب : الشيات والحُلى .
- كتاب : خلق الإنسان .

كتاب : الحماسة المُحدثة .

- كتاب : مقاييس اللُّغة - وهو كتابٌ جليلٌ لم يُصنَّف مثله - .
- كتاب : كفاية المتعلمين فى اختلاف النحويين .

... ؛ قال يحيى بن منده الأصبهانيُّ : سمعت عمِّى عبد الرحمن بن محمد بن العبديّ يقول : سمعت أبا الحسين أحمد بن زكريا بن فارس النحويّ يقول : دخلت بغداد طالباً للحديث ؛ فحضرت مجلس بعض أصحاب الحديث وليست معى قارورة ؛ فرأيت شابَّاً عليه سِمَة جمال ؛ فاستأذنته فى كَتْبِ الحديث من قارورته ؛ فقال : من انبسط إلى الإخوان بالاستئذان ؛ فقد استحقَّ الحرمان !! .

قال عبد الرحمن بن منده : وسمعت ابن فارس يقول : سمعت أبا أحمد بن أبى التيار يقول : أبو أحمد العسكريُّ يكذب على الصوليِّ ؛ مثلما كان الصوليُّ يكذب على الغلابيِّ ؛ مثلما كان الغلابيُّ يكذب على سائر الناس .

وجدت على نُسخةٍ قديمةٍ بكتاب (المُجمل) من تصنيف ابن فارس ما

صورته : ... ؛ وكتبه مجمع بن محمد بن أحمد بخطِّه فى شهر ربيع الأول سنة ست وأربعين وأربعمائة .

وكان فى آخر هذا الكتاب ما صورته أيضاً : قضى الشيخ أبو الحسين أحمد ابن فارس رَحِمَهُ الله : فى صفر سنة خمس وتسعين وثلاثمائة بالرَّى ؛ وَدُفِنَ بها مُقابل مشهد قاضى القُضاة أبى الحسن علىٍّ بن عبد العزيز - يعنى الجرجانىَّ - . » .

وترجم لهُ جمال الدين القفطىُّ « ت ٦٤٦هـ » فِى « إنباه الرُّواة على أنباه النُّحاة » ؛ (جـ ١/ ١٢٧ - ١٣٠) ؛ ومِمَّا جاء فيه :

« من أعيان أهل العلم ؛ وأفراد الدهر .

ولابن فارس شعرٌ جميلٌ ؛ ونثرٌ نبيلٌ .

وذكره أبو الحسن الباخرزىُّ ؛ وسجع له ؛ فقال :

‹ أبو الحسين بن فارس : إذا ذُكِرَت اللغة فهو صاحب مجملها ؛ لا ؛ بل صاحبها المجمل لها ؛ وعندى أنَّ تصنيفه ذلك من أحسن ما صُنِّفَ فى معناها ؛ وأن مُصنِّفها إلى أقصى غايةٍ من الإحسان تناهى . › .

ورأيت ترجمةً لأحمد بن فارس فى بعض تصانيف المُتأخِّرين ؛ وقد لقفها من أماكن مُتعدِّدة ؛ فنقلتها على صورتها ؛ وهى :

‹ أحمد بن فارس بن زكريا بن محمد بن حبيب ؛ أبو الحسين الرَّازى ؛ وقيل : القزوينىّ الزهراوىّ الأشتاجردىّ .

واختلفوا فى وطنه ؛ فقيل : كان من قزوين ؛ ولا يصح ذلك ؛ وإنما قالوه لأنه كان يتكلّم بكلام القزاونة .

وقيل : كان من رُسْتَاق الزهراء ؛ من القرية المدعوّة كرسف جياناتاذ .

كان واسع الأدب ؛ مُتبحّراً فى اللغة العربيّة ؛ فقيهاً شافعيّاً ؛ وكان يُناظر فى الفقه ؛ وكان ينصر مذهب مالك بن أنس .

وطريقته فى النحو طريقة الكوفيين ؛ وإذا وجد فقيهاً أو مُتكلّماً أو نحويّاً : كان يأمر أصحابه بسؤالهم إيّاه ؛ ويُناظره فى مسائل من جنس العلم الذى يتعاطاه ؛ فإن وجده بارعاً جَدِلاً ؛ جَرّهُ فى المُجادلة إلى اللغة ؛ فيغلبه بها ؛ وكان يحُثُّ الفُقهاء دائماً على معرفة اللغة ؛ ويُلقى عليهم مسائل ؛ ذكرها فى كتابٍ سمّاه (كتاب فُتيا فقيه العرب) ؛ ويُخجلهم بذلك ؛ ليكون خجلهم داعياً إلى حفظ اللغة ؛ ويقول : من قَصَّرَ علمه عن اللغة وغولط غلط) .

قال أبو عبد الله الحُميدىُّ : سمعت أبا القاسم سعد بن على بن محمد الزَّنجانىّ يقول : كان أبو الحسين أحمد بن فارس الرَّازىّ من أئمة أهل اللغة فى وقته ؛ مُحتجّاً به فى جميع الجهات غير مُنازعٍ ؛ مُنجباً فى التعليم ؛ ومن تلاميذه : بديع الزمان الهمذانىّ ؛ وغيره .

وأصله من همذان ؛ ورحل إلى قزوين إلى أبى الحسن إبراهيم بن علىٍّ بن إبراهيم بن سلمة بن فخر : الإمام الفقيه الجليل الأوحد فى العلوم ؛ فأقام هُنالك مُدّةً .

ورحل إلى زنجان إلى أبى بكر أحمد بن الحسن بن الخطيب راوية ثعلب ؛ ورحل إلى ميانج .

ومن شيوخه : أحمد بن طاهر بن المُنجِّم أبو عبد الله .

وكان أبو الحسين بن فارس يقول عن أبى عبد الله هذا : إنه ما رأى مثله ؛ ولا رأى هو مثل نفسه .

واستوطن أبو الحُسين الرَّىَّ بأخرةٍ ؛ وكان سبب ذلك : أنه حُمِلَ إليها من همذان ؛ ليقرأ عليه مجد الدولة أبو طالب بن فخر الدولة ؛ فسكنها ؛ واكتسب مالاً ؛ وبلغ ذلك بتعليمه من النجابة مبلغاً مشهوراً .

وكان ابن فارس كريم النَّفس ؛ جواد اليد ؛ لا يكاد يَرُد سائلاً حتى يهب ثيابه وفرش بيته ؛ ومن رُؤساء أهل السُّنَّة المجُوِّدين على مذهب أهل الحديث .

وتوفِّى بالرَّى فى سنة خمس وتسعين وثلاثمائة ؛ وَدُفِنَ مُقابل مشهد القاضى علىٍّ بن عبد العزيز الجرجانىٌّ ـ رَحِمَهُمَا اللهُ تَعَالَى ـ .

... ؛ وله مُقَطَّعَاتٌ مُتعدِّدةٌ من الشِّعر ؛ توجد فى كتب من صنَّف أخبار الشُّعراء .» .

وترجم لهُ ابنُ خَلِّكان فى « وفيات الأعيان » ؛ (جـ ١ / ١١٨ ـ ١٢٠) ؛ ومما قالهُ هُناك :

« كان إماماً فى عُلُوم شتَّى ؛ وخُصوصاً اللغة ؛ فإنه أتقنها ؛ وألَّف كتابه (المجمل) فى اللغة ؛ وهو على اختصاره جمع شيئاً كثيراً ؛ وله كتاب (حلية الفقهاء) ؛ وله رسائل أنيقة ؛ ومسائل فى اللغة ؛ وَيُعَايى بها الفقهاء ؛ ومنه

اقتبس الحريريُّ صاحب المقامات ـ الآتي ذكره إن شاء الله تعالى ـ ذلك الأسلوب ؛ ووضع المسائل الفقهيَّة في المقامة الطيبة ؛ وهي مائة مسألة .

وكان مُقيماً بهمذان ؛ وعليه اشتغل بديع الزمان الهمذانيُّ صاحب المقامات . » .

وترجم لهُ الشَّمْسُ الذَّهبيُّ في « سِيَر أعلام النُّبَلاء » ؛ (جـ ١٢ / ٥٣٨ ـ ٥٤٠) ؛ (رَقَمُ التَّرْجَمَة : ٣٦٩٠) ؛ قَال الشَّيْخ :

« الإِمَامُ ؛ العَلاَّمَةُ ؛ اللُّغَوِيُّ ؛ المُحَدِّثُ : أَبُو الحُسَيْنِ ؛ أَحْمَدُ بنُ فَارسِ بنِ زَكَرِيَّا ابن مُحَمَّدِ بنِ حَبِيبٍ ؛ القَزْوِينِيُّ ؛ المَعْرُوفُ بِالرَّازِيِّ ؛ المَالِكِيُّ ؛ اللُّغَوِيُّ ؛ نَزِيلُ هَمَذَان ؛ وَصَاحِبِ كِتَاب (المُجْمَل) .

حَدَّثَ عَن : أَبِي الحَسَنِ عَلِيِّ بنِ إِبْرَاهِيمَ بنِ سَلَمَةَ القَطَّان ؛ وسُليمان بن يَزِيْد الفَامِي ؛ وَعَلِيِّ بن مُحَمَّدِ بنِ مِهْرَوِيه القَزْوِينيين ؛ وَسَعِيْدِ بن مُحَمَّدٍ القَطَّان ؛ وَمُحَمَّدِ بن هَارُونَ الثَّقَفِيِّ ؛ وَعَبْدِ الرَّحْمَنِ بنِ حَمْدَان الجَلاَّب ؛ وَأَحْمَد بن عُبَيْد الهَمَذَانيين ؛ وَأَبِي بَكْرِ بنِ السُّنِّيِّ الدينوريِّ ؛ وأبي القاسم الطبرانيِّ ؛ وطائفةٍ .

حدَّث عَنْهُ : أَبُو سَهْلِ بنُ زيرك ؛ وَأَبُو مَنْصُورٍ مُحَمَّدُ بنُ عِيْسَى ؛ وَعَلِيُّ بنُ القَاسِمِ الخَيَّاط المُقْرِئ ؛ وَأَبُو مَنْصُوْرِ بنُ المُحْتَسِب ؛ وَآخَرُوْن .

مَوْلِدُهُ بقَزْوِين ؛ وَمَرْبَاهُ بهَمَذَان ؛ وَأَكْثَر الإِقَامَةَ بِالرَّيِّ .

وَكَانَ رَأْسَاً فِي الأَدب ؛ بَصِيْراً بفقهِ مَالِك ؛ مُنَاظِراً ؛ مُتَكَلِّماً عَلَى طريقَةِ أَهْلِ الحَقِّ ؛ وَمَذْهَبُهُ فِي النَّحْوِ عَلَى طريقَةِ الكُوفِيِّين ؛ جمع إِتْقَانَ العِلْم إِلَى ظَرْفِ أَهْلِ الكِتَابَةِ وَالشِّعر .

وَلَهُ مُصَنَّفَاتٌ وَرسَائِل ؛ وَتَخَرَّجَ بِهِ أَئِمَّةٌ .

وَكَانَ يَتَعَصَّبُ لآل العَمِيْدِ ؛ فَكَانَ الصَّاحِبُ بنُ عَبَّاد يَكْرَهُهُ لذلك ؛ وَقَدْ صنَّف باسمه كِتَاب « الحِجْر » ؛ فَأَمَرَ لَهُ بِجَائِزَةٍ قَلِيْلَةٍ .

وكَانَ يَقُوْلُ : مَنْ قَصُرَ عِلْمُهُ فِي اللُّغَةِ وغُولِطَ ؛ غَلِطَ .

قَالَ سَعْدُ بنُ عَلِيٍّ الزَّنْجَانِيُّ : كَانَ أَبُو الحُسَيْنِ مِن أَئِمَّةِ اللُّغَةِ ؛ مُحْتَجَّاً بِهِ فِي جَمِيعِ الجِهَات غَيْرَ مُنَازعٍ ؛ رَحَلَ إِلَى الأَوْحدِ فِي العُلُوم أَبِي الحسَن القَطَّان ؛ وَرَحَلَ إِلَى زَنْجَان : إِلَى صَاحِبِ ثَعْلَب أَحْمَد بن الحَسَنِ الخَطِيب ؛ وَرَحَلَ إِلَى مَيَانَج : إِلَى أَحْمَدَ بن طَاهِرِ بن النَّجم ؛ وَكَانَ يَقُوْل : مَا رَأَيْتُ مِثْلَهُ .

قَالَ سَعْدٌ : وَحُمِلَ أَبُو الحُسَيْنِ إِلَى الرَّيِّ ؛ لِيَقْرَأَ عَلَيْهِ مجدُ الدولة ابن فَخر الدَّوْلَة ؛ وَحصَّل بِهَا مَالاً مِنْهُ ؛ وَبرع عَلَيْهِ .

وَكَانَ أَبُو الحُسَيْنِ مِنَ الأَجوَاد ؛ حَتَّى إِنَّهُ يَهَبُ ثِيَابَهُ وَفَرْشَ بَيْتِهِ ؛ وَكَانَ مِن رُءوس أَهْلِ السُّنَّة المُجَرِّدين عَلَى مَذْهَبِ أَهْلِ الحَدِيْث .

قَالَ : وَمَاتَ بِالرَّيِّ فِي صَفَرٍ سَنَة خَمْسٍ وَتِسْعِينَ وَثَلاَثِ مائَةٍ .

وَفِيْهَا ورَّخه أَبُو القَاسِمِ بنُ مَنْدَه ؛ وَوَهِمَ مَن قَال : مَاتَ سَنَةَ تِسْعِيْن . » .

ثُمَّ وقفتُ على ترجمتهِ بكتاب « التدوين فى أخبار قزوين » لأبى القاسم الرافعىِّ القزوينىِّ « ت ٦٢٣هـ » ؛ (جـ ٢/ ٢١٥ - ٢١٩) ؛ وهى ترجمةٌ نفيسةٌ جِداً ؛ بها ما ليس بسواها ؛ قَالَ المُصَنِّفُ - رَحِمَهُ الله (باختصار) - :

« - فصل :

- أَحْمَدُ بْنُ فارس بْنِ زكريا بْنِ مُحَمَّد بْنِ حبيب ؛ أبو الحُسين ؛ النَّحوىُّ ؛ أحد أئمَّة الأدب المرجوع إليهم فِى بلاد الجبل ؛ مُتقنٌ ؛ حاذقٌ ؛ صنَّف : جامع التأويل ؛ و : مجمل اللغة ؛ و : مقائيس اللغة ؛ و : الصاحبىّ فِى فقه اللغة ؛ وفيهما دلالةٌ ظاهرةٌ عَلَى : جودة تصرُّفه ؛ وحُسن نظره ؛ وتمام فقهه .

وصنَّف من المُختصرات مالا يُحصى .

وُلِدَ بِقَزْوِين ؛ ونشأ بهمدان ؛ وكان أكثر مقامه بالرَّى ؛ وله بِقَزْوِين فِى الجامع صندوقٌ ؛ فيها كُتُبٌ من وقفه سنة إحدى وستين وثلاثمائة ؛ وكان يُناظر فِى الفقه ؛ وينصر مذهب مالك .

سمع الكثير بِقَزْوِين مِن : عَلِىِّ بْنِ مُحَمَّدِ بْنِ مهرويه ؛ وعلىِّ بْنِ إبراهيم القطَّان ؛ وعلىِّ بْنِ عُمر الصيدنانىِّ ؛ ومما سمعه منه : كتاب مكة لأبى الوليد مُحَمَّد بْنِ عَبْدِ اللهِ بْنِ أَحْمَد الأزرقىِّ ؛ بسماعه من عُبَيْد بْنِ مُحَمَّد بْنِ إبراهيم الكشورىِّ الأزرقىِّ .

وسمع بزنجان : أَحْمَد بن محمود بن شُعيب القطَّان .

وبآذربيجان : أبا عبد الله أَحْمَد بن طاهر ؛ وأبا حفص عُمر بن هشام القاضى .

وكان له مجالسُ إملاء عَلَى رَسْمِ أهل الحديث .

... ؛ قَالَ أَحْمَد بْنُ فارس فِي جُزْءٍ جمعه فِي السِّواك : أخبرنى ... .

... ؛ وحدَّث فِي مُختصرٍ جمعه فِي تلخيص معنى الآل : حدَّثنى ... .

تُوفِّى أبو الحُسين سنة خمس وتسعين وثلاثمائة بالرَّى . » .

وفى « المُختصر فى أخبار البشر » ؛ (جـ ٢/ ١٣٥) لأبى الفداء عماد الدين إسماعيل بن علىٍّ بن محمود بن محمد بن عمر بن شاهنشاه بن أيوب ؛ الملك المُؤيِّد ؛ صاحب حماة (ت ٧٣٢هـ) :

« ـ ثم دخلت سنة تسعين وثلاثمائة :

فى هذه السنة ـ وقيل : بل فى سنة خمس وتسعين وثلاثمائة ـ تُوفِّى أبو الحُسين أحمد بن فارس بن زكريا الرَّازى ؛ اللغوىُّ ؛ كان إماماً فى عُلُومٍ شتَّى ؛ وخُصوصاً فى اللُّغة ؛ وله عِدَّة مُصنَّفات ؛ منها : كتابه المجمل فى اللُّغة ؛ ووضع المسائل الفقهيَّة ؛ وهى [مائة] مسألة فى المقامة الطيبيَّة . » .

قُلْتُ : كذا قال ؛ وَالصَّوابُ الذى لا ريب فيهِ ؛ أنَّهُ تُوفِّىَ فى سنة خمسٍ وتسعين وثلاثمائة .

فى « تاريخ الإسلام » ؛ (جـ ٢٧/ ٣١١) ـ نُسْخَة تدمرى ـ :

« توفِّى فى صفر ؛ سنة خمسٍ وتسعين .

انتهى قول الزَّنْجانىِّ .

وكذا وَرَّخهُ عَبْد الرَّحْمَن بْن مَنْدَه ؛ وغيره .

وقيل : مات سنة تسعين وثلاثمائة ؛ وهو قولٌ ضعيفٌ . » .

قُلْتُ : ولكن الحافظ ابن كثير قالَ فى « البداية والنهاية » ؛ (جـ ١١ / ٣٣٥) :

« قَالَ ابْنُ خَلِّكَان : تُوُفِّىَ سَنَةَ تِسْعِينَ وَثَلاثِمِائَةٍ ؛ وَقِيلَ سَنَةَ خَمْسٍ وَتِسْعِين . وَالأَوَّلُ أَشْهَرُ . » .

قُلْتُ : وافقهُ على ذلكَ جمعٌ من المؤرِّخين ؛ ولكن الرأى الذى قدَّمْناهُ واعتمدناهُ : هو الأبيْنُ والأظهر ؛ واللهُ أعلم .

وَبَعْدُ : فهذا هو ما نَشِطْنَا لتقييدهِ فى شأنِ هذا الرَّجُل ؛ وإذا كان ذلك كذلك ؛ فلقد آزرت الأقدارُ بديع الزَّمان ؛ فأظفرتهُ بهذا الإمامِ الهُمَام ؛ وَلا غرابةَ حينئذٍ من وصولِ البديع إلى مرتبةٍ فائقةٍ من الفُحُولةِ اللُّغويَّةِ والأدبيَّةِ .

عَوْدٌ عَلَى بَدْءٍ :

٥ ـ حَيَاتُهُ :

فى « مُعجم الأُدباء » ؛ (جـ ١ / ٢٣٤ ـ ٢٣٥) :

« قال شيرويه : ومحمد بن الحُسين بن يحيى بن سعيد بن بشر الصفَّار الفقيه ؛ أبو سعد ؛ أخو بديع الزمان أبى الفضل أحمد بن الحُسين بن يحيى لأبيه وأُمِّه : مُفتى البلد .

روى عن : ابن لال ؛ وابن تركان ؛ وعبد الرحمن الإمام ؛ وأبى بكر محمد بن الحُسين الفرَّاء ؛ وابن جائحان ؛ وذكر جماعةً وافرةً . » .

ثُمَّ :

فى «مُعجم الأُدباء» ؛(جـ ١ / ٢٣٥) :

« وفارق همذان سنة ثمانين وثلاثمائة : وهو مُقتبل الشبيبة ؛ غضُّ الحداثة . » .

وفى « مُعجم الأُدباء » ؛(جـ ١ / ٢٣٩) :

« قال أبو الحسن البيهقىُّ : وبديع الزمان أبو الفضل أحمد بن الحسين الحافظ : كان يحفظ خمسين بيتاً بسماعٍ واحدٍ ؛ ويُؤدِّيها من أوَّلها إلى آخرها ؛ وينظر فى كتابٍ نظراً خفيفاً ويحفظ أوراقاً ويُؤدِّيها من أوَّلها إلى آخرها ؛ فارق همذان فى سنة ثمانين وثلاثمائة ؛ وكان قد اختلف إلى أحمد بن فارس صاحب (المجمل) ؛ وورد حضرة الصاحب وتزوَّد من ثمارها ؛ واختصَّ بالدهخداه أبى سعد محمد بن منصور ؛ ونفقت بضاعته لديه ؛ ووافى نيسابور فى سنة اثنتين وثمانين وثلاثمائة ؛ وبعد موت الخوارزمىِّ خلا له الجوُّ ؛ وجرت بينه وبين أبى علىٍّ الحُسين بن محمد الخشنامىِّ مُصاهرة ؛ وألقى عصا المقام ... ؛ وحدَّث الثعالبىُّ فى أخبار أبى فراس ؛ قال : حكى أبو الفضل الهمذانىُّ قال : قال الصاحب أبو القاسم يوماً لِجُلسائه وأنا فيهم ؛ وقد جرى ذكر أبى فراس الحارث بن سعيد بن حمدان : لا يقدر أحدٌ أن يُزوِّر على أبى فراس شعراً ؛ فقلتُ : من يقدر على ذلكَ وهو الذي يقول :

رُوَيْدَكَ لا تَصِلِ يَدَهَا بِبَاعِكْ

وَلا تُغْزِ السِّبَاعَ إِلَى رِبَاعِكْ

... ؛ وَلا تُغْرِ العَدُوَّ عَلَيَّ إِنِّي
يَمِينٌ إِن قَطَعْتَ فَمِن ذِرَاعِكْ

فقال الصاحب : صدقت ؛ فقُلتُ : أيَّدَ اللهُ مولانا فقد فعلت !! . » .

وفى « مُعجم الأُدباء » ؛ (جـ ١ / ٢٣٦) :

« وورد حضرة الصاحب بن عبَّاد ؛ فتزوَّد من ثمارها وَحُسْنِ آثارها ؛ ثم قدم جرجان ؛ وأقام بها مُدَّةً على مُداخلة الإسماعيليَّة والتعيُّش فى أكنافهم ؛ واختصَّ بالدهخداه أبى سعد محمد بن منصور ؛ ونفقت بضاعته لديه ؛ وتوفَّر حظُّه من عادته المعروفة فى إسداء الإفضال على الأفاضل .

ولمَّا أراد ورود نيسابور أعانه بما سيَّره إليها ؛ فوردها فى سنة اثنتين وتسعين وثلاثمائة ؛ ونشر بها بَزَّهُ ؛ وأظهر طَرْزَهُ ؛ وأملى أربعين مقامة ؛ نحلها أبا الفتح الإسكندريَّ فى الكُدْيَة وغيرها ؛ وضمَّنها ما تشتهى الأنفس وتلذ الأعين .

ثم شجر بينه وبين الأُستاذ أبى بكر الخُوارزميِّ ما كان سبباً لهبوب ريح الهمذانيِّ وعُلوِّ أمره ؛ إذ لم يكن فى الحساب أن أحداً من العُلماء ينبرى لِمساجلته ؛ فلما تصدَّى الهمذانيُّ لِمباراته ؛ وجرت بينهما مقاماتٌ ومُبادهاتٌ ومُناظراتٌ ؛ وغلَّب قومٌ هذا ؛ وغلَّب آخرون ذاك : طار ذكر الهمذانيِّ فى الآفاق... ؛ ودرَّت له أخلاف الرِّزق ؛ فلما مات الخوارزميُّ : خلا له الجوُّ ؛ وتصرَّفت به أحوالٌ جميلةٌ وأسفارٌ كثيرةٌ ؛ ولم يبق من بلاد خُراسان وسجستان وغزنة بلدةٌ إلاَّ دخلها وجنى ثمارها ؛ ولا ملكٌ ولا وزيرٌ إلا

واستمطر بنوئه ؛ وسرى فى ضوئه : فحصلت له نعمةٌ حسنةٌ ؛ وثروةٌ جميلةٌ ؛ وألقى عصاه بهراة ؛ فاتخذها دار قراره ؛ وصاهر بها أبا علىّ الحُسين بن محمد الخشنامىّ ؛ وهو الفاضل الكريم الأصيل ؛ وانتظمت أحواله بِمُصاهرته ؛ واقتنى بمعونته ضياعاً فاخرةً .)) .

قُلْتُ : وها هُنا لابُدَّ من وقفةٍ !!... ؛ فقد أطالَ النَّاسُ وأفاضوا فى ذكر المُناظرةِ الشَّهيرةِ التى جرت بين الإمامِ أبى بكر الخُوارزمىِّ والأديب الشَّاب بديع الزَّمان الهمذانىِّ !!... ؛ وَلِذَا ؛ فلابُدَّ من مُباحثةٍ :

٦ ـ بَيْنَ الهَمَذَانِىِّ وَالخُوَارَزْمِىِّ :

ـ أوَّلاً : بَدْءُ العَلاقَةِ بَيْنَ الهَمَذَانِىِّ وَالخُوَارَزْمِىِّ :

فى ((مُعجم الأُدباء)) ؛ (جـ ١ / ٢٤٥ ـ ٢٤٩) :

((وكانت أوَّلُ رُقعةٍ كتبها البديع إلى الخوارزمىِّ عند وروده نيسابور :

‹ أنا لقُرب الأستاذ ـ أطال الله بقاءه ـ :

كما طرب النشوان مالت به الخمرُ

ومن الارتياح للقائه :

كما انتفض العصفور بلَّلهُ القطرُ

ومن الامتزاج بولائه :

كما التقت الصهباء والبارد العذبُ

ومن الابتهاج بمزاره :

كما اهتزَّ تحت البارح الغُصن الرَّطبُ

فكيف ارتياح الأُستاذ لصديقٍ طوى إليه ما بين قصبتى العراق وخُراسان؟!! ؛ بل ما بين عتبتى الجبل ونيسابور؟!! ؛ وكيف اهتزازه لضيفٍ فى بُردة حَمَّال ؛ وجلدة جمَّال؟!! :

رَثُّ الشَّمَائِلِ مُنْهَجُ الأَثْوَابِ

بَكَرَت عَلَيْهِ مُغِيرَةُ الأَعْرَابِ

كَمُهَلْهَلٍ وَرَبِيعَةَ بْنِ مُكَدَّمٍ

وَعُتَيْبَةِ بْنِ الحَارِثِ بْنِ شِهَابِ

وهو ولىُّ إنعامه بإنفاذ غُلامه إلى مُستقرِّى ؛ لأُفضى إليه بما عندى - إن شاء الله تعالى وحده - .

ثم اجتمع إليه ؛ فلم يحمد لقيه ؛ فانصرف عنه ؛ وكتب إليه :

الأُستاذ - واللهُ يُطيل بقاءه ؛ ويُديم تأييده ونعماءه - : أزرى بضيفه أن وجده يضرب آباط القِلَّة فى أطمار الغُربة ؛ فأعمل فى ترتيبه أنواع المصارفة ؛ وفى الاهتزاز له أصناف المُضايقة ؛ من إيماءٍ بنصف الطَّرْف ؛ وإشارةٍ بشطر الكف ؛ ودفعٍ فى صدر القيام عن التمام ؛ ومضغ الكلام وتكلُّفه لِرَدِّ السَّلام ؛ وقد قبلت هذا الترتيب صعراً ؛ واحتملته وزراً ؛ واحتضنته نُكراً ؛ وتأبَّطته شَرّاً ؛ ولم آله عُذراً ؛ فإن المرء بالمال وثياب الجمال ؛ وأنا مع هذه الحال وفى هذه

الأسمال : أتقزَّز صفَّ النِّعال ؛ ولو حاملته العتاب ؛ وناقشته الحساب ؛ وصدقته المصاع ؛ لقُلتُ : إن بوادينا ثاغية صباح ؛ وراغية رواح ؛ وقوماً يجُرُّون المطارف ؛ ولا يمنعون المعارف :

وَفِيهِم مَقَامَاتٌ حِسَانٌ وُجُوهُهُم
وَأَنْدِيَةٌ يَنْتَابُهَا القَوْلُ وَالفِعْلُ
عَلَى مُكْثِرِيهِم حَقُّ مَن يَعْتَرِيهُمُ
وَعِنْدَ المُقِلِّينَ السَّمَاحَةُ وَالبَذْلُ

ولو طوَّحت بالأستاذ أيدى الغُربة إليهم ؛ لوجد منال البِشْرِ قريباً ؛ ومحطَّ الرَّحْلِ رحيباً ؛ ووجه المضيف خصيباً .

ورأيه ـ أيَّدَهُ الله ـ : فى أن يملأ من هذا الضيف أجفان عينه ؛ ويوسع أعطاف ظَنِّه ؛ ويجُيبه بموقع هذا العتاب الذى معناه ود ؛ والمُر الذى يتلوه شهد : مُوفَّقٌ إن شاء الله تعالى .

ـ الجواب من الخوارزمىِّ

إِنَّكَ إِن كَلَّفْتَنِى مَا لَم أُطِقْ
سَاءَكَ مَا سَرَّكَ مِنِّى مِن خُلُقْ

فهمت ما تناوله سيِّدى من خشن خطابه ؛ ومؤلم عتبه وعتابه ؛ وصرفت ذلك منه إلى الضجر الذى لا يخلو منه من نَبَا به دهر ؛ وَمَسَّهُ من الأيَّام ضُر ؛ والحمد لله الذى جعلنى موضع أُنسه ؛ ومَظِنَّة مُشتكى ما فى نفسه .

أمَّا ما شكاه سيِّدى من مُضايقتى إيَّاه - زعم - فى القيام ؛ وتكلُّفى لِرَدِّ السَّلام ؛ فقد وفَّيته حقَّه : كلاماً ؛ وسلاماً ؛ وقياماً : على قدر ما قدرت عليه ؛ ووصلت إليه ؛ ولم أرفع عليه غير السيِّد أبى القاسم ؛ وما كنت لأرفع أحداً على من أبوه الرَّسُول ؛ وأُمُّهُ البتول ؛ وشاهداه التوراة والإنجيل ؛ وناصراه التأويل والتنزيل ؛ والبشير به جبرائيل وميكائيل !! .

وأمَّا عدم الجمال ؛ ورثاثة الحال : فما يضعان عندى قدراً ؛ ولا يضُرَّان نجراً ؛ وإنما اللباس جِلدة ؛ والزِّىُّ حِلية ؛ بل قشرة ؛ وإنما يشتغل بالجل ؛ من لا يعرف قيمة الخيل ؛ ونحن - بحمد الله - نعرف الخيل عارية من جلالها ؛ ونعرف الرجال بأقوالها وأفعالها ؛ لا بآلاتها وأحوالها .

وأمَّا القوم الذين صدر سيِّدى عنهم ؛ وانتمى اليهم : ففيهم لعمرى فوق ما وصف : حُسْنُ عِشرة ؛ وسداد طريقة ؛ وجمال تفصيلٍ وجُملة ؛ ولقد جاورتهم : فنلت المُراد ؛ وأحمدت المَرَاد :

فَإِن أَكُ قَد فَارَقْتُ نَجْدَاً وَأَهْلَهُ
فَمَا عَهْدُ نَجْدٍ عِنْدَنَا بِذَمِيمِ

والله يعلم نيَّتى للأحرار عامة ؛ ولسيِّدى من بينهم خاصَّة ؛ فإن أعاننى على مُرادى له ونيَّتى فيه بحُسن العشرة ؛ بلغت له بعض ما فى المُنْيَة ؛ وجاوزت مسافة القُدرة ؛ وإن قطع علىَّ طريق عزمى بالمُعارضة وسوء المؤاخذة ؛ صرفت عنانى عن طريق الاختيار بيد الاضطرار :

فَمَا النَّفسُ إلاَّ نُطفَةٌ بِقَرَارَةٍ

إذَا لَم تُكَدَّر كَانَ صَفْواً غَدِيرُهَا

وعلى هذا : فحبَّذا عتاب سيِّدى إذا صادف ذنباً ؛ واستوجب عتباً . فأمَّا أن يسلفنا العربدة ؛ ويستكثر المعتبة والموجدة : فتلك حالةٌ نصونه عنها ؛ ونصون أنفسنا عن احتمال مثلها ؛ فليرجع بنا إلى ما هو أشبه بهِ ؛ وأجمل لهُ ؛ ولست أسومه أن يقول :

﴿ استَغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا إِنَّا كُنَّا خَاطِئِين ﴾

ـ (يوسف : ٩٧) ـ .

ولكن أسأله أن يقول :

﴿ لا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ ؛ يَغْفِرُ اللَّهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِين ﴾

ـ (يوسف : ٩٢) ـ .

ـ رُقعة البديع الثالثة إلى الخُوارزميّ

أنا أرِدُ من الأُستاذ سيِّدى شرعة ودِّه ؛ وإن لم تصف ؛ وألبس خِلْعَة بِرِّه ؛ وإن لم تضف ؛ وقُصاراى أن أكيله صاعاً بصاعٍ ؛ وَمُدّاً عن مُدٍّ ؛ وإن كنت فى الأدب دعىَّ النَّسَب ؛ ضعيف السبب ؛ ضيِّق المُضطرب ؛ سيء المُنقلب ؛ أَمُتُّ إلى أهله بعشرةٍ رشيقة ؛ وأنزع إلى خدمة أصحابه بطريقة .

ولكن بقىَ أن يكون الخليط مُنصفاً فى الإخاء ؛ عادلاً فى الوداد ؛ إذا زُرت زار ؛ وإن عدت عاد ؛ والأُستاذ سيِّدى ـ أيَّدَهُ الله ـ ضايقنى فى القبول أوَّلاً ؛

وناقشنى فى الإقبال ثانياً ؛ فأما حديث الاستقبال ؛ وأمر الإنزال والإنزال ؛ فنطاق الطمع ضيِّقٌ عنه ؛ غير مُتَّسعٍ لتوقُّعه منه ؛ وبعد : فكلفة الفضل هيِّنة ؛ وفروض الودِّ مُتعيِّنة ؛ وَطُرُق المكارم بيِّنة ؛ وأرض العشرة ليِّنة ؛ فلم اختار قعود التعالى مركباً ؛ وصعود التغالى مذهباً ؟!!! ؛ وهلاَّ ذاد الطير عن شجر العشرة إذا كان ذاق الحلو من ثمرها ؛ وقد علم الله أن شوقى إليه قد كَدَّ الفؤاد برحاً على برح ؛ ونكأه قرحاً على قرح ؛ فهو شوقٌ داعيته محاسن الفضل ؛ وجاذبته بواعث العلم ؛ ولكنها مَرَّةٌ مُرَّة ؛ ونفسٌ حُرَّة ؛ ولم تقد إلا بالإعظام ؛ ولم تُلق إلا بالاكرام .

وإذا استعفانى سيِّدى الأُستاذ من مُعاتبته واستعادته ؛ ومُؤاخذته إذا جفا واستزادته ؛ وأعفى نفسه من كُلَفِ الفضل يتجشَّمها ؛ فليس إلا غُصَص الشوق أتجرَّعُها ؛ وحُلَل الصبر أتدرَّعها ؛ فلم أعره من نفسى ؛ وأنا لو أُعرت جناحى طائرٍ لما رنَّقت إلاَّ إليه ؛ ولا حلَّقت إلاَّ عليه :

أُحِبُّكَ يَا شَمْسَ النَّهَارِ وَبَدْرَهُ
وَإِن لامَنِى فِيكَ السُّهَا وَالفَرَاقِدُ
وَذَاكَ لأَنَّ الفَضْلَ عِنْدَكَ بَاهِرٌ
وَلَيْسَ لأَنَّ العَيْشَ عِنْدَكَ بَارِدُ

ـ جواب الخوارزميّ عنها

شريعة ودّى لسيّدى ـ أدَامَ اللهُ عِزَّهُ ـ إذا وردها صافية ؛ وثياب بِرِّى إذا قبلها ضافية ؛ هذا ما لم يُكدّر الشريعة بتعنُّته وتعصُّبه ؛ ولم تخُرِّق الثياب بتجنِّيه وتسحُّبه ؛ فأما الإنصاف فى الإخاء ؛ فهو ضالّتى عند الأصدق ؛ ولا أقول :

وَإِنّى لَمُشْتَاقٌ إِلَى ظِلِّ صَاحِبٍ
يَرُوقُ وَيَصْفُو إِن كَدَرْتُ عَلَيْهِ

فإن قائل هذا البيت قاله والزمان زمان ؛ والإخوان إخوان ؛ وَحُسْنُ العشرة سُلطان .

ولكنّى أقول :

وإنى لَمُشتاقٌ إلى ظلِّ :

رَجُلٍ يُوازِنُكَ المَوَدَّةَ جَاهِدًا
يُعْطِى وَيَأْخُذُ مِنْكَ بِالمِيزَانِ
فَإِذَا رَأَى رُجْحَانَ حَبَّةِ خَرْدَلٍ
مَالَت مَوَدَّتُهُ مَعَ الرُّجْحَانِ

وقد كان الناس يقترحون الفضل ؛ فأصبحنا نقترح العدل ؛ وإلى الله المشتكى لا منه !! .

ذكر الشيخ سيّدى ـ أيّدَهُ الله ـ حديث الاستقبال ؛ وكيف يُستقبل من انقضّ علينا انقضاض العقاب الكاسر ؛ ووقع بيننا وقوع السهم العائر :

وَتَكْلِيفُكَ المَـرْءَ مَا لا يُطِيقُ
يَجُوزُ عَلَى مَذْهَبِ الأَشْعَرِى

وقد زاد سيِّدى على أُستاذه الأشعرىِّ !! ؛ فإن أُستاذه كلَّف العاجز ما لا يُطيق مع عجزه عنه ؛ وسيِّدى كلَّف الجاهل علم الغيب مع الاستحالة منه !! .

والمنزل بما فيه قد عرضته عليه ؛ ولو أطقت حمله لحملته إليه ؛ والشوق الذى ذكره سيِّدى : فعندى منه الكثير الكبير ؛ وعنده منه الصغير اليسير ؛ وأكثرنا شوقاً أقلّنا عتاباً ؛ وألييننا خطاباً.

ولو أراد سيِّدى أن أُصدِّق دعواه فى شوقه إلىَّ : لغضٌ من حجم عتبه علىَّ !! ؛ فإنما اللّفظ زائد ؛ واللحظ وارد ؛ فإذا رقَّ اللفظ ؛ دَقَّ اللحظ ؛ وإذا صدق الحُب ؛ ضاق العتاب وَالعتْب :

فَبِالخَيْرِ لا بِالشَّرِّ فَارْجِ مَوَدَّتِى
وَأَىُّ امْرِىءٍ يَقْتَالُ مِنْهُ التَّرَهُّبُ

عتاب سيِّدى قبيحٌ ولكنه حسن ؛ وكلامه لَيِّنٌ ولكنه خَشِن ؛ أما قُبحه فلأنه عاتب بريئاً ؛ ونسب إلى الإساءة من لم يكن مُسيئاً .

وأما حُسنه فلألفاظه الغُرَر ؛ ومعانيه التى هى كالدُّرَر ؛ فهى كالدُّنيا : ظاهرها يَغُر ؛ وباطنها يَضُر ؛ وكالمرعى على دمن الثرى : منظره بهىٌّ ؛ ومخبره وَبِىٌّ ؛ ولو شاء سيِّدى نظم الحُسْنَ والإحسان ؛ وجمع بين صواب الفعل واللسان :

يَا بَدِيعَ القَوْلِ حَاشَا   لَكَ مِن هَجْوٍ بَدِيعِ
وَلِحُسْنِ القَوْلِ عَوِّدْ   تُكَ مِن سُوءِ الصَّنِيعِ
لا يَعِب بَعْضُكَ بَعْضَاً   كُن مَلِيحَاً فِي الجَمِيعِ

ـ رُقعةٌ أُخرى من البديع إلى الخُوارزميّ

أنا وإن كنت مُقصِّراً فى مُوجبات الفضل من حضور مجلس الأُستاذ سيِّدى ؛ فما أفرى إلاّ جلدى ؛ ولا أبرى إلاّ قدحى ؛ ولا أبخس إلاّ حظّى ؛ وإن يكن ذاك جُرْمَاً ؛ فكفى هذا عقاباً ؛ ومع ذاك فما أعمر أوقاتى إلا بمدحه ؛ ولا أُطرِّز ساعاتى إلا بذكره ؛ ولا أركض إلا فى حلبة وصفه ؛ حرس الله فضله .

نعم ؛ وقد رددت (كتاب الأوراق) للصولى ؛ وتطاولت لكتاب (البيان والتبيين) للجاحظ ؛ وللأُستاذ سيِّدى فى الفضل والتفضُّل به رأيه .)) .

ـ ثَانِيَاً : قِيَامُ السِّجَالِ وَالعِرَاكِ بَيْنَ الهَمَذَانِيِّ وَالخُوَارَزْمِيِّ :

فى ((مُعجم الأُدباء)) ؛ (ج ١ / ٢٣٩ ـ ٢٤٤) :

((وحدَّث أبو الحسن بن أبى القاسم البيهقىُّ صاحب كتاب (وشاح الدُّمْيَة) وقد ذكر أبا بكر الخوارزمىَّ : وقد رُمِىَ بحجر البديع الهمذانىِّ فى سنة ثلاث وثمانين وثلاثمائة ؛ وأعان البديع الهمذانىَّ قومٌ من وجُوه نيسابور كانوا مُستوحشين من أبى بكر ؛ فجمع السيِّد نقيب السَّادة بنيسابور أبو علىٍّ بينهما ؛ وأراده على الزيارة ؛ وداره بأعلى ملقباذ ؛ فترفَّع ؛ فبعث إليه السيِّد

مركوبه ؛ فحضر أبو بكر مع جماعةٍ من تلامذته ؛ فقال له البديع : إنما دعوناك لتملأ المجلس فوائد ؛ وتذكر الأبيات الشوارد ؛ والأمثال الفوارد ؛ ونُباحثك فنسعد بما عندك ؛ وتسألنا فتُسر بما عندنا .

ونبدأ بالفنِّ الذى ملكت زمامه ؛ وطار به صيتك : وهو الحفظ إن شئت ؛ والنظم إن أردت ؛ والنثر إن اخترت ؛ والبديهة إن نشطت ؛ فهذه دعواك التى تملأ منها فاك .

فأحجم الخُوارزميُّ عن الحفظ لكبر سِنِّه ؛ ولم يجل فى النثر قداحاً ؛ وقال : أُبادهك ؛ فقال البديع : الأمر أمرك يا أُستاذ .

فقال له الخوارزميُّ : أقول لك ما قال موسى للسَّحرة ﴿ قَالَ بَلْ أَلْقُوا ﴾

فقال البديع :

الشِّعْرُ أَصْعَبُ مَذْهَباً وَمَصَاعِداً
مِن أَن يَكُونَ مُطِيعَهُ فِى فَكِّهِ
وَالنَّظْمُ بَحْرٌ وَالخَوَاطِرُ مَعْبَرٌ
فَانْظُرْ إِلَى بَحْرِ القَرِيضِ وَفُلْكِهِ
فَمَتَى تَوَانَى فِى القَرِيضِ مُقَصِّرٌ
عَرَّضتَ أُذْنَ الامْتِحَانِ لِعَرْكِهِ

قال : وهذه أبياتٌ كثيرةٌ فيها مدح الشريف أبى علىٍّ ؛ والمفاخرة ؛ وتهجين الخوارزمىِّ .

فقال الخوارزمىُّ أيضاً أبياتاً ؛ ولكن ما أبرزها من الغلاف .

فقال له البديع : أما تستحى أن يكون السُّنُّور أعقل منك ؛ لأنه يجعر فيغطيه بالتُّراب ؟!!

فقال لهما الشَّريف : انسجا على منوال المُتنبِّى :

أَرَقٌ عَلَى أَرَقٍ ؛ وَمِثْلِى يَأْرَقُ

فابتدأ أبو بكر ؛ وكان إلى الغايات سبَّاقاً ؛ وقال :

فَـإِذَا ابْـتَـدَهْتُ بَـدِيـهَـةً يَـا سَـيِّـدِى
فَـأَرَاكَ عِـنْـدَ بَـدِيـهَـتِـى تَـتَـقَـلَّـقُ
مَا لِى أَرَاكَ وَلَسْتَ مِثْلِى فِى الـوَرَى
مُتَمَـوِّهَـاً بِـالـتُّـرَّهَـاتِ تُـمَـخْـرِقُ ؟!!

ونظم أبياتاً ؛ ثم اعتذر ؛ فقال : هذا كما يجىء لا كما يجب .

فقال البديع : قَبِلَ الله عُذرك ؛ لكن وقفت بين قافاتٍ خشنةٍ ؛ كُلُّ قافٍ كجبل قاف !! ؛ فخذ الآن جزاءً عن قرضك ؛ وأداءً لفرضك :

مَـهْـلاً أَبَـا بَـكْـرٍ فَـزَنْـدُكَ أَضْـيَـقُ
وَاخْرَس فَإِنَّ أَخَاكَ حَىٌّ يُرْزَقُ
يَا أَحْمَقَاً وَكَفَاكَ تِلْكَ فَضِيحَةً
جَـرَّبْـتَ نَـارَ مَـعَـرَّتِـى هَـل تَحْـرِقُ

فقال له أبو بكر : (يا أحمقاً) لا يجوز ؛ فإنه لا ينصرف .

فقال البديع : لا نزال نصفعك حتى ينصرف وتنصرف معه ؛ وللشّاعر أن يرد ما لا ينصرف إلى الصرف ؛ وإن شئت قُلت : (يا كودناً) ؛ ثم قولك فى البيت (يا سيِّدى) ؛ ثم قُلت (تتقلَّقُ) ؛ مدحت أم قدحت ؟!! ؛ فإن اللفظين لا يركضان فى حلبةٍ !! .

فقال لهما الشَّريف : قولا على منوال المتنبى :

أَهْـلاً بِـدَارٍ سَبَـاكَ أَغْـيَدُهَا

قال البديع :

يَا نِعْمَةً لا تَزَالُ تَجْحَدُهَا وَمِنَّـةً لا تَزَالُ تَكْنُدُهَا

فقال أبو بكر : الكُنُود : قِلَّة الخير لا الكُفران ؛ فكذُبهُ الجمع ؛ وقالوا : ما قرأت قوله تعالى ﴿ إِنَّ الإِنْسانَ لِرَبِّهِ لَكَنُودٌ ﴾ ـ (العاديات/الآيَة : ٦) : أى : لكفور ؛ فقال له أبو بكر : أنا اكتسبت بفضلى دية أهل همذان ؛ فما الذى اكتسبت أنت بفضلك ؟!!

فقال له البديع : أنت فى حرفة الكُدْيَة أحذق ؛ وبالاستماحة أحرى وأخلق ؛ فقطعه الكلام ؛ ثم أنشد القوّال :

وَشَبَّهْنَـا بَنَفْسَجَ عَـارِضَيْـهِ بَقَـايَا اللَّـطْمِ فِى الخَـدِّ الرَّقِيـقِ

فقال الخوارزمىُّ : أنا أحفظ هذه القصيدة .

فقال البديع : أخطأت !! ؛ فإن البيت على غير هذه الصيغة ؛ وهى :

وَشَبَّهْنَـا بَنَفْسَجَ عَـارِضَيْـهِ بَقَـايَا الوَشْمِ فِى الوَجْهِ الصَّفِيـقِ

فقال له أبو بكر : والله لأصفعنَّك ولو بعد حين .

فقال البديع : أنا أصفعك اليوم وتضربنى غداً ؛ اليوم خمر ؛ وغداً أمر ؛ وأنشد قول ابن الرومىّ :

رَأَيْتُ شَيْخَاً سَفِيهَاً   يَفُوقُ كُلَّ سَفِيهِ
وَقَد أَصَابَ شَبِيهَاً   لَهُ وَفَوْقَ الشَّبِيهِ

ثم أنشد البديع :

وَأَنْزَلَنِى طُولُ النَّوَى دَارَ غُرْبَةٍ
إِذَا شِئْتُ لاقَيْتُ امْرِءاً لا أُشَاكِلُهْ
أُحَامِقُهُ حَتَّى يُقَالَ سَجِيَّةٌ ؛ .
وَلَو كَانَ ذَا عَقْلٍ لَكُنْتُ أُعَاقِلُهْ

فأمال النُّعَاسُ الرُّؤوس ؛ وسكنت الألحان والنُّفُوس ؛ وسلب الرُّقاد الجُلوس ؛ فنام القوم كعادتهم فى ضيافات نيسابور ؛ وأصبحوا فتفرَّقوا ؛ وبعض القوم يحكم بغلبة البديع ؛ وبعضهم يحكم بغلبة الخوارزمىّ ؛ وسعى الفضلاء بينهما بالصُّلح ؛ ودخل عليه البديع واعتذر وتاب واستغفر مما تقدم من ذنبه وما تأخَّر ؛ وقال له البديع : بعد الكدر صفو ؛ وبعد الغيم صحو .

فعرض عليه الخوارزمىُّ الإقامة عنده سحابة يومه ؛ فأجابه البديع وأضافه الخوارزمىُّ .

وكان بعض الرُّؤساء مُستوحشاً من الخوارزمىّ ؛ وهيَّأ مجمعاً فى دار الشيخ السيِّد أبى القاسم الوزير ؛ وكان أبو القاسم فاضلاً ملء إهابه ؛ وحضر أبو الطيِّب سهل الصعلوكىُّ ؛ والسيِّد أبو الحُسين العالم ؛ فاستمال البديع

قلب السيِّد أبى الحُسين بقصيدةٍ قالها فى مدائح أهل البيت ؛ أولها :

يَا مَعْشَراً ضَرَبَ الزَّمَا ... نُ عَلَى مُعَرَّسِهِم خِيَامَهْ

ثم حضر المجلس القاضى أبو عمر البسطامىُّ ؛ وأبو القاسم بن حبيب ؛ والقاضى أبو الهيثم ؛ والشيخ أبو نصر بن المرزبان ؛ ومع الإمام أبى الطيِّب الفُقهاء والمُتصوِّفة ؛ وحضر أبو نصر الماسرجسىُّ مع أصحابه ؛ والشيخ أبو سعد الهمذانىُّ ؛ ودخل مع الخوارزمىِّ جمعٌ غفيرٌ من أصحابه ؛ فقيل لهما : أنشدا على منوال قول أبى الشيص :

أَبْقَى الزَّمَانُ بِهِ نُدُوبَ عِضَاضِ ... وَرَمَى سَوَادَ قُرُونِهِ بِبَيَاضِ

فابتدر الخوارزمىُّ ؛ فقال :

يَا قَاضِيَاً مَا مِثْلُهُ مِن قَاضِ ... أَنَا بِالَّذِى تَقْضِى عَلَيْنَا رَاضِ

منها :

وَلَقَد بُلِيتُ بِشَاعِرٍ مُتَهَتِّكٍ ... لا ؛ بَل بُلِيتُ بِنَابِ ذِئْبٍ غَاضِ

فقال البديع : ما معنى قولك (ذئب غاض) ؟!!

فقال أبو بكر : ما قلته ؛ فشهد عليه الحاضرون أنه قاله ؛ فقال أبو بكر : الذئب الغاضى : الذى يأكل الغضا .

فقال البديع : استنوق الذئب !! ؛ صار الذئب جملاً يأكل الغضا !! .

ثم دخل الرئيس أبو جعفر ؛ والقاضى أبو بكر الحيرىُّ ؛ والشيخ أبو زكريا ؛ والشيخ أبو الرشيد المُتكلِّم .

فقال الرّئيس : قُولا على هذا النمط :

بَرَزَ الرَّبِيعُ لَنَا بِرَوْنَقِ مَائِهِ   فَانْظُر لِمَنْظَرِ أَرْضِهِ وَسَمَائِهِ

وَالتُّرْبُ بَيْنَ مُمَسَّكٍ وَمُعَنْبَرٍ   مِن نُورِهِ بَل مَائِهِ وَرَوَائِهِ

ثم أنشد الخوارزمىُّ على هذا النمط ؛ فلمّا فرغ من إنشاده قال البديع للوزير والرئيس : لو أن رَجُلاً حلف بالطلاق أنّى لا أقول شعراً ؛ ثم نظم تلك الأبيات التى قالها الخوارزمىُّ : هل كُنتم تُطلّقون امرأته عليه ؟!!! ؛ فقالت الجماعة : لا يقع بهذا طلاق ؛ ثم قلت : انقد علىَّ فى ما نظمت ؛ واحكم عليه كما حكمت ؛ فأخذ الأبيات ؛ وقال : لا يُقال نظرت لكذا ؛ ويقال : نظرت إلى كذا ؛ وأنت قلت : فانظر لمنظر ؛ وشبّهت الطير بالمحصنات ؛ وهذا تشبيهٌ فاسدٌ ؛ ثم شبّهتها بالمُغنيّات حين قلت :

وَالطَّيْرُ مِثْلُ المُحصَنَاتِ صَوَادِحٌ   مِثْلُ المُغَنِّى شَادِياً بِغِنَائِهِ

المحصنات كيف توصف بالغناء ؟!!!

ثم قلت : (كالبحر فى تزخاره والغيث فى أمطاره) ؛ والغيث هو المطر ؛ فقال البديع : الغيث المطر والسَّحَاب ؛ وصدَّقهُ الحاضرون ؛ وأنكروا على الخوارزمىِّ .

فقال الإمام أبو الطيِّب : علمنا أىّ الرَّجُلين أفضل وأشعر .

فقام البديع وقبَّلَ رأس الخوارزمىِّ ويده ؛ وقال : اشهدوا أن الغلبة له ؛ قال ذلك على سبيل الاستهزاء ؛ وتفرَّق الناس واشتغلوا بتناول الطعام ؛ وأبو بكر ينطق عن كَبِدٍ حَرَّى ؛ والوزير يقول للبديع : ملكت فاسجح .

فلما قام أبو بكر أشار إلى البديع وقال : لأتركَنَّك بين الميمات ؛ فقال : ما معنى الميمات ؟!!!

فقال : بين مهدومٍ ؛ مهزومٍ ؛ مغمومٍ ؛ محمومٍ ؛ مرجومٍ ؛ محرومٍ !!

فقال البديع :

لأتركنَّك بين الهيام ؛ والسَّقَام ؛ والسَّام ؛ والبرسام ؛ والجذام ؛ والسرسام ؛ وبين السينات : بين منحوس ؛ ومنخوس ؛ ومنكوس ؛ ومعكوس ؛ وبين الخاءات : من مطبوخ ؛ ومسلوخ ؛ ومشدوخ ؛ ومفسوخ ؛ وممسوخ ؛ وبين الباءات : بين مغلوب ؛ ومسلوب ؛ ومصلوب ؛ ومنكوب .

فخرج البديع وأصحاب الشافعيِّ يُعظِّمونه بالتقبيل والاستقبال ؛ والإكرام والإجلال ؛ وما خرج الخوارزميُّ حتى غابت الشمس ؛ وعاد إلى بيته ؛ وانخزل انخزالاً شديداً ؛ وانكسف باله ؛ وانخفض طرفه ؛ ولم يَحُل عليه الحول حتى خانه عمره !! ؛ وذلك في شوال سنة ثلاث وثمانين وثلاثمائة !!.)) .

.....

وَبَعْد :

فهل بُعَيْدَ هذا الذى ذُكِر ؛ هل نُسَلِّمُ بضعفِ الخوارزميِّ وفُسُولتِهِ أمام فُحُولةِ بديع الزَّمان الهمذانيِّ ؟!!!... ؛ من العبثِ أن نحكُمَ بذلكَ من دُونِ مُحاققةٍ ... ؛ فمن هو الخُوارزميُّ هذا ؟

قَالَ السُّيوطىُّ فى « بُغية الوعاة فى طبقات اللُّغويين والنُّحاة » ؛ (جـ ١ / ١٢٥) :

« ومولده سنة ثلاث وَعشرين وثلاثمائة ؛ وَخرج من وَطنه فِى حداثته ؛ وطوَّف البلاد ؛ وَلَقِىَ سيف الدولة بن حمدَان وخدمه ؛ وَورد بُخَارى ؛ وَصَحِبَ الوَزير أَبَا عَلِىّ البلعمىَّ ؛ فَلم يحمده ؛ وهجاه ؛ وبنيسابور اتَّصل بالأمير أحْمد الميكالىّ ومدحه ؛ وَقصد سجستان ؛ ومدح واليها طَاهِر بن مُحَمَّد ؛ ثمَّ هجاه ؛ فحبسه ؛ ثمَّ خَلُصَ وَسَار إِلَى غرشستان ؛ فاتفق لَهُ مَعَ واليها مَا اتَّفق لَهُ مَعَ وَالِى سجستان ؛ وفارقه هاجياً لَهُ ؛ وَعَاد إِلَى نيسابور ؛ فقصد حَضْرَة الصاحب ؛ فربحت تِجَارَتُهُ ؛ وأوفده الصاحب بِكِتَابِهِ إِلَى عضُد الدولة ؛ فَكَانَ سَبَب انتعاشه ؛ ثمَّ عَاد إِلَى نيسابور ؛ واستوطنها ؛ ودرس أَهلُهَا عَلَيْهِ الأَدَب . » .

وفى « مُعجم الأُدباء » ؛ (جـ ٦ / ٢٥٤٣) :

« ـ محمد بن العبَّاس ؛ أبو بكر الخوارزمىُّ :

الشاعر المشهور : يُقال له الطبرخزىُّ ؛ لأنه كانت أُمُّهُ من خوارزم وأبوه من طبرستان ؛ وكان ابن أخت محمد بن جرير الطبرىِّ .

قال الحاكم فى (تاريخه) : كان أوحد عصره فى حفظ اللغة والشِّعر ؛ وكان يُذاكرنى بالأسماء والكُنى حتى يحيِّرنى من حفظه !! .

وقد أقام الخوارزمىُّ بالشَّام مُدَّةً ؛ وسكن حلب ؛ وتُوفِّىَ بنيسابور سنة ثلاث وثمانين وثلاثمائة .

قال ياقوت : قرأت فى آخر ديوانه له :

بِآمُلَ مَوْلِدِى ؛ وَبَنُو جَرِيرٍ
فَأَخْوَالِى وَيَحْكِى المَرْءُ خَالَهْ
فَهَا أَنَا رَافِضِىٌّ عَن تُرَاثٍ
وَغَيْرِى رَافِضِىٌّ عَن كَلالَهْ ».

وقالَ صاحبُ « وفيات الأعيان » ؛ (جـ ٤ / ٤٠١) :

« وأبو بكر المذكور : أحد الشُّعراء المُجيدين الكبار المشاهير ؛ كان إماماً فى اللُّغة والأنساب .

أقام بالشام مُدَّةً ؛ وسكن بنواحى حلب ؛ وكان مُشاراً إليه فى عصره .

ويُحكى أنه قصد حضرة ابن عبَّاد وهو بأرجان ؛ فلما وصل إلى بابه قال لأحد حُجَّابه : قُل للصاحب على الباب أحد الأُدباء ؛ وهُو يستأذن فى الدُّخُول ؛ فدخل الحاجب وأعلمه ؛ فقال الصاحب : قُل له : قد ألزمت نفسى أن لا يدخل علىَّ من الأُدباء إلاَّ من يحفظ عشرين ألف بيت من شعر العرب ؛ فخرج إليه الحاجب وأعلمه بذلك ؛ فقال له أبو بكر : ارجع إليه وقُل له : هذا القدر من شعر الرجال أم من شعر النساء ؟ ؛ فدخل الحاجبُ فأعاد عليه ما قال ؛ فقا الصاحب : هذا يريد أن يكون أبا بكرٍ الخوارزمىَّ . ».

قَالَ نِزَار : كَانَ مِن رِجَالاتِ الحِفْظِ فِى عَصْرِهِ .

وترجم لهُ الذهبىُّ فى « سير أعلام النُّبلاء » ؛ (جـ ١٢ / ٤٦٢ ؛ رقم الترجمة : ٣٥٩٦) ـ نُسْخَة دار الحديث ـ ؛ فقال :

« شَاعِرُ وَقتِهِ ... ؛ وَكَانَ مُشَاراً إِلَيْهِ فِى عَصْرِهِ. ... ؛ وَلَهُ ديوَانُ نظمٍ ؛ وَديوَانُ ترسُّلٍ ؛ ومُلَحٌ وَنوَادرٌ .

مَاتَ بِنَيسَابُور : فِى رَمَضَان ؛ سَنَةَ ثَلاَثٍ وَثَمَانِينَ وَثَلاَثِ مائَةٍ ؛ وَيُقَالُ : سَنَةَ ثَلاَثٍ وَتِسْعِين . » .

وقد ظفرت بترجمتهِ فى « يَتِيمَة الدَّهْر » ؛ (جـ ٤ / ٢٢٣ ـ ٢٧٧) ؛ وهى ترجمةٌ طويلةٌ جِداً ؛ أظْفَرَت بما لا يُوجَدُ فى المصادرِ الأُخرى ؛ وهذا هو ما انتخبتهُ منها :

« ـ أَبُو بكر مُحَمَّد بن العَبَّاس الخَوَارِزْمِيُّ :

بَاقِعَة الدَّهْر ؛ وبحر الأَدَب ؛ وَعَلَم النَّثْر وَالنَّظم ؛ وعالم الفضل والظرف ؛ وَكَانَ يجمع بَين : الفصاحة العجيبة ؛ والبلاغة المُفيدة ؛ ويحُاضر بأخبار العَرَب وأيَّامها ؛ ودواوينها ؛ وَيُدَرِّس كُتُب : اللُّغَة ؛ والنَّحو ؛ وَالشِّعْر ؛ وَيتَكَلَّم بِكُلِّ نادرة ؛ وَيَأْتِى بِكُلِّ فقرة ودُرَّة ؛ ويبلغ فِى محَاسِن الأَدَب كُلَّ مبلغ ؛ ويغلب على كُلِّ محُسنٍ : بحُسْنِ مُشاهدته ؛ وملاحة عِبَارَته ؛ ونعمة نغْمَته ؛ وبراعة جَدِّه ؛ وحلاوة هزله .

وديوان رسائله مخُلَّدٌ سَائِر ؛ وَكَذَلِكَ ديوَان شِعره .

وَهَذِه كَلِمَاتٌ لَهُ تجْرِى مجرى الأَمْثَال أخرجتها من رسائله :

ـ الشُّكْر على قدر الإِحْسَان ؛ والسِّلَع بِإِزَاءِ الأَثْمَان .

ـ الإذكار حَيْثُ التناسى ؛ والتقاضى حَيْثُ التغاضى .

ـ النَّفْسُ مائلةٌ إِلَى أشكالها ؛ وَالطير وَاقعَةٌ على أمْثَالهَا .

ـ الأَيَّام مِرآةٌ للرِّجَال ؛ والأطوار معيار النَّقْص فيهم والكمال .

ـ العشْرَة مجُاملة لا مُعَاملَة ؛ والمجُاملة لا تسع الاسْتِقْصَاء والكشف ؛ وَلا تحْتَمل الْحِسَاب وَالصَّرْف .

ـ الكَرِيم يَعَزُّ من حَيْثُ يهون ؛ وَالرُّمْح يشْتَدُّ بأسه حِين يلين .

ـ الاعْتِذَار فِي غير مَوْضِعه ذَنْب ؛ والتكلُّف مَعَ وُقُوع الثِّقَة عتب .

ـ الدَّوَاء لغير حَاجَةٍ إِلَيْهِ دَاء ؛ كَمَا أنه عِنْدَ الْحَاجة إِلَيْهِ شِفَاء .

ـ الاستقالة تَأتى على العثرات ؛ كَمَا أن الْحَسَنَات يُذْهبن السَّيِّئَات .

ـ الذَّنْب للعين العشواء : فِي محبَّة الظلماء ؛ وكراهية الضياء .

ـ فَم الْمَرِيض يستثقل وَقع الغذَاء ؛ ويستمرئ طعم المَاء .

ـ الْكَرِيم إِذا أَسَاءَ فَعَن خَطِيئَة ؛ وَإِذا أحسن فَعَن عمدٍ وَنِيَّة .

ـ الْحُرُّ إِذا جرح أَسَاءَ ؛ وَإِذا خرق رفا ؛ وَإِذا ضرَّ من جَانب : نفع من جَوَانِب .

ـ الْحُرُّ كريم الظَّفر : إِذا نَالَ أنال ؛ واللئيم سيئ الظفر : إِذا نَالَ استنال .

ـ الآبَاء أَبَوَان : أَبُو ولادَة ؛ وَأَبُو إِفَادَة : فَالأوَّل سَبَب الْحَيَاة الجُسمانيَّة ؛ وَالثَّانِي سَبَب الْحَيَاة الرُّوحانيَّة .

ـ الغَيْرَة على الكُتُب من المكارم ؛ بل هِيَ أُخْتُ الغَيْرَة على الْمَحَارِم ؛ وَالبُخل بِالْعلمِ على غير أَهله قَضَاءٌ لحقِّه ؛ وَمَعْرِفَةٌ بفضله .

ـ الرَّجُل إِذا قَيَّدَهُ عِقَال الوجل : لم ينْطَلق نَحْو مَطِيَّة الأمل .

ـ المحجوج بِكُلِّ شَيْءٍ ينطق ؛ والغريق بِكُلِّ حَبل يَعْلَق .

ـ الْعَاقِل يخْتَار خير الشَّرَّيْن ؛ وَيميل مَعَ أعدل الثقتين .

ـ الْحُرُّ وقاية الْحُرِّ من فقره ؛ وسلاحه على دهره .

ـ الدَّهْرُ غَرِيمٌ رُبَمَا يَفِي بِمَا يَعِد ؛ وَالزَّمَان حُبْلَى رُبَمَا يتثم فِيمَا يلد .

ـ الدَّهْرُ أصمُّ عَن الكَلام ؛ صبورٌ على وَقع سِهَام الملام ؛ يختصر العيدان ؛ ويهتصر الأغصان ؛ ويخترم الشُّبَّان ؛ ويُبلي الآمال والأبدان ؛ وَيُلْحق من يكون بِمن كَان .

ـ الْحقُّ حَقٌّ وَإِن جَهِلَهُ الوَرَى ؛ وَالنَّهَار نَهَار وَإِن لم يره الأَعْمَى .

ـ الشُّجاع محُبَّبٌ حَتَّى إِلَى من يحُاربه ؛ كَمَا أن الجبان مُبَغَّضٌ إِلَى من يُنَاسِبه ؛ وَكَذَلِكَ الْجواد خَفِيفٌ حَتَّى على قلب غَرِيمه ؛ والبخيل ثقيلٌ حَتَّى على قلب وَارثه وحميمه .

ـ وَرَاء الْغَيْب أقفال ؛ وللمنح والمحن أعمارٌ وآجال .

ـ وَهَذِه جُملَةٌ من أخباره تطرق لأشعاره :

أصله من طبرستان ؛ ومولده ومنشؤه خوارزم ؛ وَكَانَ يتسم بالطبريٌ ؛ وَيُعرف بالخوارزميٌ ؛ ويُلقَّب بالطبرخزميٌ ؛ فَارق وَطنه فِي ريعان عُمُرِهِ وحداثة سِنِّه ؛ وَهُوَ قويُّ الْمعرفَة ؛ قويم الأَدَب ؛ نَافِذ القريحة ؛ حسن الشِّعْر ؛ وَلم يزل يتقلَّب فِي البلاد ؛ وَيدخُل كور العرَاق وَالشَّام ؛ وَيَأْخُذ عَن العُلمَاء ؛ ويقتبس من الشُّعَرَاء ؛ ويستفيد من الفُضَلاء ؛ حَتَّى تخَرَّج ؛ وَخرج فَرد الدَّهْر من الأَدَب وَالشّعر ؛ وَلَقِيَ سيف الدولة وخدمه ؛ واستفاد من يُمْن حَضرته ؛ وَمضى على غُلوائه فِي الاضْطِرَاب والاغتراب ؛ وشرَّقَ بعد أن غرَّب ؛ وَورد بُخَارى ؛ وَصَحب أَبَا عَليٍّ البلعميَّ ؛ فَلم يحمد صحبته ؛ وفارقه وهجاه .

ووافى نيسابور ؛ فاتصل بالأمير أبى نصر أحْمَد بن عَلِىٍّ المكالىٍّ ؛ واستكثر من مدحه ؛ وداخل أَبَا الْحسن القزْوِينِىَّ ؛ وَأَبا مَنْصُور البَغَوِىَّ ؛ وَأَبا الْحسن الْحكمِىَّ ؛ فارتفق بهم ؛ وارتفق من الأَمِير أحْمد ؛ ومدحه ؛ ونادم كثير بن أحْمد .

ثمَّ قصد سجستان ؛ وَتمَكَّن من واليها أبى الحُسَيْن طَاهِر بن مُحَمَّد ؛ ومدحه ؛ وَأخذ صلته ؛ ثمَّ هجاه وأوحشه حَتَّى أطَالَ سجنه .

فَجعل الله لَهُ من مضيق الحَبْسِ مخرجاً ؛ فَنَهَضَ إِلَى طبرستان ؛ وَكَانَت حَاله مَعَ صَاحبهَا كهىَ مَعَ طَاهِر بن شار .

ثمَّ إِنَّه عاود نيسابور ؛ وَأَقَام بهَا إِلَى أن وُفِّقَ التَّوْفِيق كُلّهُ بقصد حَضْرَة الصاحب بأصبهان ولقائه بمدحه ؛ فأنجحت سفرته ؛ وربحت تِجَارَته ؛ وَسَعُدَ جَدُّهُ بخدمته ومُداخلته ؛ والحصول فِى جُمْلَة نُدمائه الْمُختصِّين بِهِ ؛ فَلم يخل من ظلِّ إحسانه ووابله ؛ وغامر إنعامه وقابله ؛ وتزوَّد من كتابِ إِلَى حَضْرَة عضُد الدولة بشيراز : مَا كَانَ سَبباً لارتياشه ويساره ؛ فَإِنَّهُ وجد قبولاً حسناً ؛ واستفاد مِنْهَا مَالاً كثيراً ؛ وَلما انْقَلب عَنْهَا بِالْغَنِيمَةِ البَارِدَة إِلَى نيسابور ؛ استوطنها ؛ واقتنى بهَا ضِيَاعاً وعقاراً ؛ وَدرَّت عَلَيْهِ أخلاف الدُّنْيَا من الْجِهَات ؛ وَحين عاود شيراز ؛ ورد مِنْهَا عَلَلاً بعد نَهْلٍ ؛ فأجرى لَهُ عِنْدَ انْصرَافه رسماً يصل إِلَيْهِ فِى كُلِّ سنةٍ بنيسابور مَعَ المَال الَّذِى كَانَ يحْمل من فَارس إِلَى خُرَاسَان .

وَلم يزل يحَسُن حَالهُ من رَوَاءٍ وثروةٍ واستظهارٍ ؛ يُقيمُ للأدب سُوقاً ؛ ويُعيده غضّاً وريقاً ؛ ويُدرِّس ويمُلى ؛ ويُشعر ويروى ؛ وَيقسم أَيَّامه بَين مجَالِس الدَّرْس ومجالس الأُنس .

وكَانَ يتعصَّبُ لآل بويه تعصُّباً شَدِيداً ؛ ويغُضُّ من سُلْطَان خُرَاسَان ؛ وَيُطلق لِسَانه بِمَا لا يقدر عَلَيْهِ ؛ إِلَى أن كَانَت أَيَّام تاش الْحَاجِب ؛ وَرجع من خُرَاسَان إِلَى نيسابور مُنْهَزِماً ؛ فشمت بِهِ ؛ وَجعل يَقُول : قُبحاً لَهُ وللوزير أبى الحسن الْعُتْبِىِّ ؛ فأُبلغ الْعُتْبِىُّ أبياتاً منسوبةً إِلَى الْخَوَارِزْمِىِّ فِى هجائه ؛ وَلم يكُن قَالَهَا ؛ فكتب إِلَى تاش فِى أخذه ومُصادرته وَقطع لِسَانه ؛ وَإِلَى أبى الْمُظفَّر الرُّعينىِّ فِى مَعْنَاه ؛ وَكَانَ يَلِي البندرة بنيسابور إِذ ذَاك ؛ فَتَولَّى حَبسه وتقييده ؛ وَأخذ خطَّهُ بِمِائَتى ألف دِرْهَم ؛ واستخرج بعض المَال ؛ وَأَذِنَ لَهُ فِى الرُّجُوع إِلَى منزله مَعَ الْموكَّلين بِهِ ليحمل البَاقِى ؛ فاحتال عَلَيْهِم يَوْمَاً وشغلهم بِالطَّعَام وَالشَّرَاب ؛ وهرب مُتنكِّراً إِلَى حَضْرَة الصاحب بجرجان ؛ فتجلَّت عَنهُ غُمَّة الْخَطْب ؛ وانتعش فِى ذَلِك الفناء الرَّحْب ؛ وعاود العَادة المألوفة من المبارِّ والأحبَّة ؛ وَاتفقَ قتل أبى الْحسن الْعُتْبِىِّ ؛ وَقيام أبى الحسن الْمُزنِىِّ مقَامه ؛ وَكَانَ من أشدِّ النَّاس حُبّاً للخوارزمىِّ ؛ فاستدعاه ؛ وَأكْرم مورده ومصدره ؛ وَكتب إِلَى نيسابور فِى رَدِّ مَا أُخِذَ مِنْهُ عَلَيْهِ ؛ فَفُعِلَ ؛ وزادت حَاله ؛ وَثَبت قدمه ؛ وَنظر إِلَيْهِ وُلاة الأمر بنيسابور بِعَين الحشمة والاحتشام ؛ وَالإِكْرَام والإعظام ؛ فارتفع مِقْدَاره ؛ وطاب عيشه ؛ إِلَى أن رُمِىَ فِى آخر أَيَّامه بِحجرٍ من الهمذانىِّ الْحَافِظ البديع ؛ وَبُلِىَ بِمُساجلته ومُناظرته

ومُناضلته ؛ وأعان الهمذانيَّ الْحَافِظ البديع عَلَيْهِ قومٌ من الْوُجُوه كَانُوا مُستوحشين مِنْهُ جداً ؛ فلاقى مَا لم يكُن فِي حسابه من مُباراة الْمُزنِيِّ وقُوَّتهِ بِهِ ؛ وَأنِفَ من تِلْكَ الحَال ؛ وانخزل انخزالاً شَدِيداً ؛ وَكُسِفَ بالُه ؛ وانخفض طرفه .

وَلم يَحُل عَلَيْهِ الْحول حَتَّى خانه عُمُرُهُ ؛ وَنفذ قَضَاء الله تَعَالَى فِيهِ ؛ وَذَلِكَ فِي : شَوَّال ؛ سنة ثَلَاث وَثَمَانِينَ وثلاثمائة .

وَكَانَ مولده فِي سنة : ثَلَاث وَعشْرين وثلاثمائة .

ورثاه الهمذانيُّ بِأَبْيَاتٍ دَسَّ فِيهَا سِعَايَةً ثَانِيَةً !! . » .

قُلْتُ : كانَ الخوارزميُّ أديباً مُبَرَّزاً ؛ طارت شُهرتهُ في الآفاق ؛ وَعَرفَ قدرهُ القاصي والدَّاني ؛ وَأَقَرَّ أهلُ العلم بِفُحُولتِهِ وقُوَّتِهِ فيما كان يتعاطاهُ من عُلُومٍ .

قُلْتُ : ولقد كان شاعراً مُفْلَقاً ؛ لهُ أشعارٌ تقفُ بحذاءِ بعض أشعار المُتنبِّي .

أورد لهُ صاحبُ « تاريخ الإسلام » ؛ (جـ ٢٧ / ٦٩) ـ نُسخة تدمري ـ هذين البيتين ؛ وما أبدعهما !! :

« ـ

مَضَت الشَّبِيبَةُ وَالحَبِيبَةُ فَالْتَقَى
دَمْعَانِ فِي الأَحْشَاءِ يَزْدَحِمَانِ

مَا أَنْصَفَتْنِى الحَادِثَاتُ رَمَيْنَنِى
بِمُودِّعَيْنِ وَلَيْسَ لِى قَلْبَانِ » .

قُلْتُ : وما شَانَهُ إلاَّ عقيدتهُ الفاسدة .

قال صاحبُ « الوافى بالوفيات » ؛ (جـ ٣ / ١٦٠) :

« وَذكر أَبُو إِسْحَق إِبْرَاهِيم بن عَلىٍّ الحُصرىُّ فِى كتاب النورين ؛ قَال : كَانَ أَبُو بكر الْخَوَارِزْمِىُّ رَافِضِيًّاً غالياً ؛ وَفِى مرتبَة الكُفْر عَالِياً . » .

وَبَعْدُ ؛ فهذا هو الخُوارزمىُّ ؛ إِمامٌ من أئمَّةِ العلم والمعرفة ... ؛ وإذا كان ذلك كذلك ؛ فهل كان بديع الزَّمان وهو فى هذه السِّنِّ الصغيرةِ أفحل من الخُوارزمىِّ الذى قضى أيَّام دهرهِ مُطالعةً واكتساباً لخفايا عُلُومِهِ ؛ وأذْعَنَ لهُ رجالاتُ عصره ؟!!

قالَ محمد حُسين الأعرجى ـ الأُستاذ بجامعة آدم مسكيفج فى بوزنان ؛ بولندة ـ فى مُقدِّمة تحقيق « الأمثال المولَّدة » لأبى بكر الخُوارزمىِّ (ص : ٣٢ ـ ٣٩) ما نَصُّهُ :

« واستغلَّ حُسَّاد أبى بكر وخصومه المُناخ النفسىَّ السائد ؛ فوضعوا على لسان أبى بكر شعراً يُشمِّت فيه بالوزير ؛ وسعوا به إليه ؛ فأمر صاحب الجيش تاش بقطع لسان الخوارزمىِّ وبمصادرته ؛ وكتب بذلك إلى أبى المُظفَّر الرُّعينىِّ ؛ فتولَّى حبسه وتقييده ؛ وأخذ خَطَّهُ بمائتى ألف درهم ؛ واستخرج بعض المال ؛ وَأذِنَ له فى الرُّجُوع إلى منزله مع المُوكَّلين به ليُحمل الباقى ؛

فاحتال عليهم يوماً وشغلهم بالطعام والشراب ؛ وهرب مُتنكِّراً إلى حضرة الصاحب بجرجان ؛ وورد عليه فى هرويه كتابٌ من صديقه القديم ونديم لياليه : كثير بن أبى نصر أحمد الميكالىّ : يعرض عليه فيه أن يعود إلى داره بعد أن تلطّف بالأمير حتى سَلَّ منه السَّخيمة ؛ وحمله على أن اغتفر الجريمة .

ولكن أبابكر رفض - كما هو مُنتظرٌ منه - العرض ؛ ورأى فيه مكيدة قُصاراها أن تعود به إلى ما كان عليه .

ومكث أبوبكر فى حضرة الصاحب يُجدِّد عهده القديم بصاحبه ؛ ولكنَّ هذا المُكْثَ لم يكن طويلاً ؛ ولعلَّه لم يبلغ السَّنة ؛ فقد قُتِلَ خصمه الوزير أبو الحُسَيْن العيبىُّ ؛ وقام مقامه أبو الحُسَيْن المُزَنِىُّ وزيراً ؛ وكان من أشدِّ الناس حُبَّاً للخوارزمىِّ ؛ فاستدعاه ؛ وأكرم مورده ومصدره ؛ وكتب إلى نيسابور فى رَدِّ ما أُخِذَ منه عليه ؛ ففُعِل ؛ وزادت حاله .

وعاد صاحبنا إلى داره فى نيسابور ؛ وإلى نسق حياته فيها قبل نكبته ؛ حتى بلغ عدد تلاميذه فى هذه المرحلة شيئاً كثيراً ؛ وكان ذلك فى سنة ٣٧٢ هـ .

ولكنَّ عقارب الخصومة السياسيَّة لم تكن لتهدأ - كما يبدو - ؛ وما كان لها أن تهدأ ؛ لأنَّ دواعيها ما زالت قائمة ؛ إذ هى لم تكن قائمة على حَزَازَةٍ شخصيَّةٍ تموت بموت صاحبها أو بهلاك أصحابها ؛ ولم يكن المُقدَّر أن تسلك مثل هذه الخصومة طريقاً مُباشراً واضحاً إليه بعد إذ بسط عليه الوزير المُزَنِىُّ ظلَّه ؛ فكان أن دُبِّرَت له مكيدة المناظرة بينه وبين بديع الزمان الهمذانىِّ ؛

عسى أن يخمل ذكره ؛ (وأعان الهمذانيَّ ... عليه قومٌ من الوجوه كانوا مُستوحشين منه جدًّا) ؛ وينبغي لي أن أفيض في أمر هذه المناظرة ووجوه الكيد لأبي بكر فيها ؛ فأقول :

إنَّهُ ورد على نيسابور بديع الزمان الهمذانيُّ ؛ وكان قد سُلِبَ في الطريق إليها ؛ فكتب رُقْعَةً إلى أبي بكر ؛ فاستقبله في داره استقبالاً لم يرض عنه بديع الزمان ؛ فقد كان يُريد من أبي بكر أن يقوم له عن مجلسه قياماً تامًّاً !! ؛ وكان أبوبكر يرى أنه قد أجَلَّهُ بما فيه الكفاية ؛ ولم يرفع عليه في المجلس أحداً سوى رَجُلٍ من ذُريَّة رسول الله - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - ؛ مما جعل في نفس بديع الزمان - وهو لم يخلُ من سُكْرِ الشَّباب بعد - ؛ شيئا أقرب ما يكون إلى الاعتقاد بأنه لم يُوفَّ حقَّه !! .

ويلفت النظر في هذه المسألة برُمَّتها : أنَّ بديع الزمان وهو ابن أربع وعشرين سنة يوم جاء إلى نيسابور سنة ٣٨٢ هـ يريد من أبي بكر أن يُوفيه فضله ؛ ثم ينسى أن لأبي بكر من الفضل والسِّنِّ ما يجعلان استقبال أبي بكر إيَّاه في داره على غير معرفةٍ سابقةٍ تشريفاً ؟!! ؛ وإلاَّ فمن هو بديع الزمان يومئذٍ إزاء مكانة أبي بكر وفضله ؟!! .

تُرَى : أكان بديع الزمان يجهل هذا الأمر ؟!! ؛ أم أنَّ هُنالك جماعة من خصوم أبي بكر في نيسابور يستغلُّون حداثة سِنِّ بديع الزمان وإعجابه الزائد بنفسه فيدفعون به إلى حيث يُريدون ؟!! .

أمَّا بديع الزمان ـ وهو يكاد يكون المصدر الوحيد فى رواية ما وقع له مع أبى بكر ـ ؛ فيعترف بأنَّ طائفة من الناس كانت تسعى إليه بما يتفوَّه به أبو بكر ؛ ويلغ البديع من تصديق ما يُنقل إليه أن كتب إلى أبى بكر رُقعةً يتهمه فيها بالتعالى عليه !! ؛ ويلغ أبوبكر ـ على ما يبدو ـ من الضيق بهذه المسألة الطارئة ؛ وَرُبَّما من العلم بما يُراد لها أن تصل إليه ؛ بحيث قال : « لو أنَّ بهذا البلد رَجُلاً تأخذه أريحيَّة الكرم ... ؛ يجمع ... » بينه وبين البديع ؛ فَتَلَقَّفَ خصومه قوله يُوجِّهونه الوجهة التى يرضونها ؛ ونشط من بينهم أبو الطَّيِّب سهل الصُّعلوكىُّ ؛ فجمع بين أبى بكر والبديع فى داره ؛ وحاول البديع أن يَجُرَّ أبابكر إلى شىءٍ مما يُمكن أن يُسمَّى مُناظرة فلم يستطع ؛ وَظَلَّ البديع ينتظر أن يُنْجِدَ هو وأبوبكر ـ كما يقول ـ فى الفضل وَيُغْوِر ؛ فكان انتظاره سراباً .

وَلَعَلَّ ما جعل أبا بكر يحُجم عن مُفاوضة البديع : علمه بما ينطوى عليه صدر أبى الطَّيِّب إزاءه .

أمَّا لماذا حضر داره ؛ واستجاب إلى دعوته : فلعلَّ ذلك كان ضرباً من مُجاملته ؛ وسعياً إلى التخلُّص من مُشكلة البديع الطارئة على أىِّ وجهٍ يكون ميسوراً .

وهكذا أخفقت المحاولة الأولى فى جَرِّ أبى بكر إلى حلبة البديع ؛ فانعقد العزم على محاولةٍ ثانيةٍ لا يرتاب بها كثيراً ؛ وأىُّ ريبةٍ فى مجلسٍ يعقده نقيب العلويين بنيسابور أبو علىٍّ للغناء ؛ ويكون من حُضَّاره البديع ؛ ثم يُدعى إليه

أبوبكر ؟!!! .

وَكُوتِبَ أبوبكر بالحضور ؛ فاعتذر ؛ فما كان من أهل المجلس إلاّ أن يُخرجوا أبابكر ؛ فيبعثوا إليه بمركوبٍ يجيء به إليهم ؛ فدخل وهو يتحدّث عن سباقٍ وعن حُبَالَةٍ وكأنه يعلم بما يُراد به ؛ ولكنّه يُريد أن ينأى بنفسه عنه .

والحَقُّ أن حديث أبى بكر عن الفَخّ الذى نُصِبَ له : حتديثٌ أقرب إلى الحكمة ؛ فإنّه وُضِعَ بين حالتين لا تُشرّفه أية منهما :

- الأولى : أنْ يُناظر البديع وأن يغلبه ؛ ولكن أىُّ فضلٍ لأبى بكر فى هذا والبديع شَابٌّ فى أوّل الطريق ؟!!! .

- والثانية : أن يغلبه البديع ؛ ولكن أىُّ حَرَجٍ سيلحق به بعد هذا وهو إمام عصره علماً وأدباً ؟!!! .

إن مُجرَّد رضاه أن يجلس من البديع مجلس المُناظر : فيه غَضٌّ من قيمته ؛ واعترافٌ بمكانة البديع ؛ ولكنَّ الحُبَالَة كانت قد أُعِدَّت بإحكامٍ .

وراح البديع يُلِحُّ على أبى بكر ؛ وأبوبكر يتحاماه ؛ حتى أذْعَنَ آخر الأمر ؛ وما كان له إلاّ أن يُذْعِنَ ؛ وإلاّ فُسِّرَ تحاميه بالعجز .

ولا أُرِيدُ أن أُصَدِّقَ ما نقله البديع مما دار فى هذا المجلس : من أنه أشعر من أبى بكر ؛ وأعلم باللغة منه ؛ وما إلى ذلك مما ساقه !! ؛ ولكننى أُرِيدُ أن أقول إنه كان قد أُعِدَّ لنهاية المجلس أن يحكم بعض القوم بغلبة البديع ؛ وبعضهم يحكم بغلبة الخوارزمىّ .

ونهايةٌ مثل هذه من شأنها أن تُرْغِمَ صاحبنا على حضور مجلس مُناظرةٍ آخرٍ ؛ أو يُقِرُّ بالعجز ؛ (وكان بعض الرُؤساء مُستوحشاً من الخوارزميِّ ؛ وهيَّأ مجمعاً فى دار الشيخ أبى القاسم الوزير ؛ وحضر أبو الطيِّب سهل الصُّعلوكىُّ ؛ والسيِّد أبو الحسين العالم ؛ فاستمال البديع قلب السيد أبى الحسين بقصيدةٍ قالها فى أهل البيت ؛ ثم حضر المجلس القاضى أبو عمر البسطامىُّ ؛ وأبو القاسم بن حبيب ؛ والقاضى أبو الهيثم ؛ والشيخ أبو نصر ابن المرزبان ؛ وأبو نصر الماسرجسىُّ) .

وكان قد أُعِدَّ لهذا المجلس أن يحكم أبو الطيِّب والبسطامىُّ وصاحب الدار أبو القاسم المستوفى الوزير بغلبة البديع .

وأقول : إنه أُعِدَّ للمجلس هذه النهاية : لا للدِّفاع عن أبى بكر ؛ ولكن لأننى قرأت ما كتبه البديع نفسه عنها ؛ وما أثبته من كلامه وكلام أبى بكر ؛ فلم أجد فيه شيئاً ينتهى إلى هذا الحُكم !! ؛ اللَّهُمَّ إلاَّ أن يكون المُنصفون من حُضَّار المجلس قد اشتُرِيت ذممهم من قبل كما اشتُرِيت ذِمَّةُ أبى الحسين العالم بمديح أهل البيت ؛ فقد زَلَّ قلم البديع فقال عن حال أبى الحسين بعد سماعه القصيدة قبل حضور الخوارزمىِّ : إنه : (انحلَّت له العُقدة ؛ وصار سِلْمَاً ؛ يُوسعنا حلماً) .

وأقول : (اشتُرِيت ذممهم) ؛ لأننى لا أستطيع أن أُصَدِّق ـ وقد قرأت شيئاً من شعر أبى بكر ـ أن قائله ـ أعنى الخوارزمىَّ ـ قال فى المجلس (تسعة أبيات ... ؛ جمع فيها بين : إقواء ؛ وإكفاء ؛ وإخطاء ؛ وإيطاء) !! .

أمَّا ما أثبته البديع من نثره في الدِّينار والدِّرهم ؛ فهو يُمكن أن يدخل في عزائم السَّحَرَة وَرُقَى العقارب ؛ ولكنه لا يُمكن أن يكون له أدنى صلة بالفنِّ والنثر الفنِّيِّ ؛ إذ هو من قبيل قوله ـ وقد أثبته كما قلت ـ بنفسه : (الله شاء إن المحاضر ؛ صدور بها وتملأ المنابر ؛ ظهور لها وتفرغ الدفاتر ؛ وجوه بها ومشق المحابر ... ؛) ؛ فهل يُعقل أن يكون البديع قد غلب أبابكر بمثل هذا ؟!! .

أمَّا إذا لم تُشترِ ذممهم ؛ فإنَّهم كانوا من انعدام الحِسِّ النقديِّ في تقويم النثر بهوىً سحيقٍ !! .

ولم يكن لمثل هذه الحال أن تَسُرَّ أبابكر حتى ولو حُكِمَ له بالغلبة ؛ فأنف ـ كما هي طبيعة الأمور ـ منها ؛ (وانخزل انخزالاً شديداً ؛ وَكُسِفَ باله ؛ وانخفض طَرْفُهُ ؛ ولم يَحُل عليه الحَوْل حتى خانه عمره ؛ ونفذ قضاء الله تعالى فيه .

وذلك في شوَّال سنة ثلاث وثمانين وثلاثمائة) ؛ في نيسابور .

ولم يكتف البديع بوفاته ؛ ولا من هم وراءه ؛ فرثاه (بأبياتٍ دَسَّ فيها سِعَايَةً ثانيةً) !! .

أمَّا هذه السعاية ؛ فهي ـ كما تُستَشَفُّ من الأبيات ـ : تحريض أولى الأمر في نيسابور على مُصادرة ما خَلَّفَهُ أبوبكر لابنه من إرثٍ !! :

تَحَمَّلْتُ فِيكَ مِنَ الحُزْنِ مَا
تَحَمَّلَهُ ابْنُكَ مِن صَامِتٍ

وهكذا طُويت صفحة حياة أبى بكر ـ عليه رحمة الله ـ بِمُؤامرةٍ من خصومه ـ وهو ابن ستين سنة أو يكاد ـ ؛ نفَّذها لهم بديع الزمان الهمذانىُّ ؛ وواصلها بعد وفاته ؛ وهو ـ بزعمه ـ يرثيه !! .)) .أهـ .

عَوْدٌ عَلَى بَدْءٍ :

ـ ثَالِثاً : المَرْحَلَةُ الأَخِيرَةُ فِى العَلاقَةِ بَيْنَ

الهَمَذَانِىِّ وَالخُوَارَزْمِىِّ :

جاء فى ((مُعجم الأُدباء)) ؛ (ج ١ / ٢٤٥ ـ ٢٥١) :

((قال البديع يمدح الصحابة ويهجو الخُوارزمىَّ ويجُيبه عن قصيدةٍ رُويت له فى الطعن عليهم :

وكَّلـنى بالـهـمِّ والـكـآبـهْ

. ؛ طعَّـانـةٌ لـعَّـانـةٌ سبَّابـهْ

للسَّلف الصالح والصحابهْ

أسـاء سـمـعاً فـأسـاء جـابـهْ

تـأملوا يـا كُبـراء الشـيـعـهْ

لعشرة الإسلام والشريعهْ

أتُستـحـلُّ هـذه الـوقـيـعـهْ

فى بيع الكفر وأهل البيعَهْ

فكيف من صدَّق بالرِّسالهْ
.. ؛ وقام للدين بكُلِّ آلهْ
وأحرز الله يد العُقبى لهْ
ذلكمُ الصِّدِّيق لا محالهْ

إمام من أُجمع فى السقيفهْ
قطعاً عليه أنَّهُ الخليفهْ
ناهيك من آثاره الشريفهْ
فى ردِّه كيد بنى حنيفهْ

سَل الجبال الشُّمَّ والبحارا
.. ؛ وسائل المنبر والمنارا
واستعلم الآفاق والأقطارا
من أظهر الدِّين بها شعارا

ثم سَل الفُرس وبيت النَّار
من الذى فَلَّ شَبَا الكُفَّار
هل هذه البيض من الآثار
إلا لثانى المُصطفى فى الغار ؟!!

وسائل الإسلامَ من قوّاه
وقال إذ لم تَقُل الأفواه
واستنجز الوعد فأومى الله
من قام لمّا قعدوا إلا هو ؟!!

ثانى النّبىّ فى سِنِى الولادهْ
ثانيه فى الغارة بعد العادهْ
ثانيه فى الدعوة والشّهادهْ
ثانيه فى القبر بلا وِسَادهْ

ثانيه فى منزلة الزّعامه
نُبُوّةٌ أفضت إلى إمامه
أتأملُ الجَنّة يا شتّامه ؟!!
ليست بمأواك ولا كرامه

إنّ امرءا أثنى عليه المُصطفى
ثَمّتَ والاهُ الوصىُّ المُرتضى
واجتمعت على معاليه الورى
واختاره خليفةً رَبُّ العُلَى

.... ؛ واتَّبَعَتْهُ أُمَّـةُ الأُمِّيّ
... ؛ وبايعته راحة الوصيّ
وباسمه استسقى حَيَا الوسميّ
ما ضَرَّهُ هجو الخُوارزميّ

سبحان من لم يُلقم الصخر فَمَهْ
. ؛ ولم يُعده حجراً ما أحملهْ
يا نَـذِلُ يا مَأْبُونُ أفطرت فَمَهْ
لَشَدَّ ما اشتاقت إليك الحُطَمَهْ

إنَّ أمير المُؤمنين المرتضى
وجعفرا الصادق أو مُوسى الرضى
. ؛ لو سمعوك بالخنا مُعَرِّضَا
ما ادخروا عنك الحُسَام المُنتضى

ويلك لِمْ تنبح يا كلب القمر ؟!!
ما لك يا مأبون تغتاب عُمر ؟!!
سيِّد من صام وحجّ واعتمر ؟!!
صرِّح بالحادك لا تمش الخمر ؟!!

يا من هجا الصِّدِّيق والفاروقا
كيما يُقيم عند قومٍ سُوقا
نفخت يا طبل علينا بُوقا
فما لك اليوم كذا موهوقا ؟!!

إنك فى الطعن على الشيخينِ
والقدح فى السيِّد ذى النُّورين
لَوَاهِنُ الظهر سَخِينُ العَيْنِ
مُعترِضٌ للحَيْنِ بعد الحَيْنِ

هلا شغلت باستك المَغْلُومَةْ ؟!!
وهامةٍ تحملها مشؤومةْ ؟!!
هلا نهتك الوجنة الموشومةْ ؟!!
عن مُشترى الخلد ببئر رُومةْ ؟!!

كفى من الغيبة أدنى شَمَّةْ
من استجاز القدح فى الأئمةْ
... ؛ولم يُعظِّم أمناء الأُمَّةْ
.. ؛فلا تلُومُوه ولُوموا أُمَّةْ

ما لك يا نـذل وللزَّكِـيَّـهْ ؟!!
عائشة الرَّاضية المرضيَّهْ ؟!!
يا ساقط الغيرة والحَمِيَّـهْ !!
ألم تكن للمُصطفى حَظِيَّهْ ؟!!

من مُبلغٌ عنِّى الخُوارزميًّا
: يُخبره أن ابنه عليًّا
قد اشترينا منه لحما نيًّا
بشرط أن يُفهمنا المَعْنِيًّا

يا أسَـدَ الخلوة خنزير الملا
مالك فى الحُرَّى تقود الجملا ؟!!
يا ذا الذى يثلبنى إذا خلا
وفى الخلا أطعمه ما فى الخلا

وقلت لما احتفل المضمارُ
واحتفَّت الأسماع والأبصارُ
سوف ترى إذا انجلى الغُبارُ
.. : أفرسٌ تحتى أم حمارُ . » .

ـ عَوْدٌ عَلَى بَدْءٍ.... :
مَعَ البَدِيعِ الهَمَذَانِىِّ

٧ ـ ذِكْرُ أَصْحَابِهِ ؛ وَتَلامِذَتِهِ ؛
وَمَن حَمَلَ عَنْهُ العِلْم :

قَالَ ياقُوت في « مُعجم الأُدباء » ؛(ج ١ / ٢٣٤) :

« روى عنه : أخوه أبو سعد بن الصَّفَّار ؛ والقاضي أبو محمد عبد الله بن الحُسين النيسابوريُّ . » .

وفي « مُعجم الأُدباء » ؛(ج ١ / ٢٣٤) :

« قال المُؤلِّف : وقد رأيت ذكر البديع في عِدَّة تصانيف من كُتُبِ العُلماء ؛ فلم يستقص أحدٌ خبره أحسن مما اقتصَّه الثعالبيُّ ؛ وكان قد لقيه ؛ وكتب عنه . » .

٨ ـ ذِكْرُ ثَنَاءِ العُلَمَاءِ عَلَيْهِ ؛ وَمَا وَصَفُوهُ بِهِ :

قَالَ شيرْويه ـ على ما في « مُعجم الأُدباء » ؛(ج ١ / ٢٣٥) ـ :

« كان في الحديث ثقة ؛ ويُتَّهم بمذهب الأشعريَّة . » .

قَالَ نِزَار : مَن كَانَ ثِقَةً فِي الحَدِيثِ ؛ فَهُوَ ثِقَةٌ فِي كُلِّ أَمْرٍ ؛ فَإِنَّ عُلَمَاءَ الحَدِيثِ لا يُوَثِّقُونَ إِلاَّ مَن قُبِلَت جَمِيعُ أَحْوَالِهِ ؛ وَرُضِيَت كَافَّةُ أَخْبَارِهِ .

ثُمَّ قَالَ شيرويه ـ على ما في « مُعجم الأُدباء » ؛(ج ١ / ٢٣٥) ـ :

« وسمعت بعض أصحابنا يقول : كان يعرف الرِّجال والمُتُون . » .

وَقَالَ صاحبُ « مُعجم الأُدباء » ؛(ج ١ / ٢٣٥) :

« وقد رأيت ذكر البديع فى عِدَّة تصانيف من كُتُب العُلماء ؛ فلم يستقص أحدٌ خبره أحسن مما اقتصَّه الثعالبيُّ ؛ وكان قد لقيه وكتب عنه ؛ فنقلت خبره من كتابه ؛ ولخَّصته من بعض سجعه .

قال : بديع الزمان ؛ ومُعجزة همذان ؛ ونادرة الفلك ؛ وبكر عطارد ؛ وفرد الدهر ؛ وَغُرَّة العصر ؛ ولم نر نظيره : فى الذكاء ؛ وسُرعة الخاطر ؛ وشرف الطبع ؛ وصفاء الذهن ؛ وقُوَّة النَّفس ؛ ولم تُدرك نظيره فى طُرف النثر ومُلحه ؛ وغُرر النَّظم ونُكته ؛ وكان صاحب عجائب وبدائع ؛ فمنها : أنه كان يُنشد الشِّعْر لم يسمعه قط - وهو أكثر من خمسين بيتاً - إلاَّ مرَّةً واحدةً ؛ فيحفظها كُلَّها ؛ ويُؤدِّيها من أوَّلها إلى آخرها لا يخرم حرفاً !! ؛ وينظر فى الأربعة والخمسة الأوراق من كتابٍ لم يعرفه ولم يره نظرةً واحدةً خفيفةً ؛ ثم يَهُذُّهَا عن ظهر قلبه هَذّاً ويسردها سرداً !! ؛ وهذا حاله فى الكُتُبِ الواردة وغيرها !! ؛ وكان يُقترح عليه عمل قصيدةٍ وإنشاء رسالةٍ فى معنىً بديعٍ وبابٍ غريبٍ ؛ فيفرغ منها فى الوقت والساعة !! ؛ وكان ربما كتب الكتاب المُقترح عليه ؛ فيبتدىء بآخره ؛ ثُمَّ هَلُمَّ جَرًّا إلى أوَّله ؛ ويُخرجه كأحسن شىءٍ وأملحه ؛ ويُوشِّح القصيدة الفريدة من قيله بالرسالة الشريفة من إنشائه ؛ فيقرأ من النَّظم النثر ؛ ويروى من النثر النظم ؛ ويُعطى القوافى الكثيرة ؛ فيصل بها الأبيات الرشيقة ؛ ويُقترح عليه كُلُّ عويصٍ وعسيرٍ من النظم والنثر ؛ فيرتجله أسرع من الطَّرف ؛ على ريقٍ لا يبلعه ؛ ونفسٍ لا يقطعه ؛ وكلامه كُلُّهُ عفو السَّاعة ؛ وفيض اليد ؛ ومُسارقة القلم ؛ ومُسابقة اليد للفم .

وكان يُترجم ما يُقترح عليه من الأبيات الفارسيَّة المُشتملة على المعانى الغريبة بالأبيات العربيَّة ؛ فيجمع فيها بين الإبداع والإسراع !! ؛ إلى عجائبٍ كثيرةٍ لا تُحصى !! ؛ ولطائف تطول أن تُستقصى .

وكان مع ذلك مقبول الصورة ؛ حسن العشرة .)) .

وفى ((مُعجم الأُدباء)) - أيضاً - (ج ١ / ٢٣٧) :

((وذكر أبو إسحاق الحُصرىُّ فى كتاب (زهر الآداب)) وقد ذكر أبا الفضل الهمذانىَّ بديع الزمان ؛ فقال :

وهذا اسمٌ وافق مُسمَّاه ؛ ولفظٌ طابق معناه ؛ كلامه غضُّ المكاسر ؛ أنيق الجواهر ؛ يكاد الهواء يسرقه لُطفاً ؛ والهوى يعشقه ظرفاً .)) .

وقال صاحبُ ((وفيات الأعيان)) ؛(ج ١ / ١٢٧ - ١٢٨) :

((الحافظ المعروف ببديع الزمان ؛ صاحب الرَّسائل الرائقة ؛ والمقامات الفائقة ؛ وعلى منواله نسج الحريرىُّ مقاماته ؛ واحتذى حذوه ؛ واقتفى أثره ؛ واعترف فى خُطبته بفضله ؛ وأنه الذى أرشده إلى سُلُوك ذلك المنهج ؛ وهو أحد الفُضلاء الفُصحاء ... ؛ وله الرسائل البديعة ؛ والنَّظم المليح .)) .

وجاء بهذا المصدر أيضاً (جـ١ / ٤٠٢) :

((وكان مع هذا كُلّهُ مقبول الصورة ؛ خفيف الرُّوح ؛ حسن العشرة ؛ شريف النفس ؛ كريم العهد ؛ خالص الود ؛ حلو الصداقة ؛ مُر العداوة .)) .

قَالَ نِـزَار : كانَ أُعْجُوبَةً فِى الحِفْظِ ؛ قَلَّ أن تَرَى العُيُونُ مِثْلَهُ فِى هَذَا الأَمْر ؛ وَفِى سُرْعَةِ البَدِيهَةِ ؛ وَقُوَّةِ الخَاطِر ؛ عَلاَّمَةٌ فِى فُنُونِهِ الَّتِى مَارَسَهَا .

٩ ـ نَمَاذِجُ مِن كِتَابَاتِهِ وَطَرِيقَتِهِ الأُسْلُوبِيَّة :

جاء فى « مُعجم الأُدباء » ؛(ج ١ / ٢٣٨ ـ ٢٣٩) :

« وكتب بديع الزمان إلى مُستميحٍ عاوده مراراً ؛ وقال له : لِمَ لا تُديم الجود بالذهب ؛ كما تُديمه بالادب ؟!!

فكتب البديع :

عافاك الله ؛ مثل الإنسان فى الإحسان ؛ مثل الأشجار فى الإثمار ؛ وسبيل من ابتدأ بالحسنة ؛ أن يُرَفِّهَ إلى السَّنَة ؛ وأنا كما ذكرت لا أملك عضوين من جسدى ؛ وهُما فُؤادى ويدى ؛ أما اليد فتولع بالجود ؛ وأما الفؤاد فيتعلّق بالوفود ؛ ولكن هذا الخُلق النَّفيس ؛ لا يُساعده الكيس ؛ وهذا الخُلق الكريم ؛ لا يحتمله الغريم ؛ ولا قرابة بين الأدب والذهب ؛ فلم جمعت بينهما ؟!!

والأدب لا يُمكن ثرده فى قصعة ؛ ولا صرفه فى ثمن سلعة ؛ قد جهدت جهدى بالطبَّاخ أن يطبخ لى من جيمية الشمَّاخ لوناً فلم يفعل ؛ وبالقصَّاب أن يذبح (أدب الكُتَّاب) فلم يقبل ؛ وأنشدت فى الحمَّام : ديوان أبى تمام ؛ فلم ينجع ؛ ودفعت إلى الحجَّام : مُقطَّعات اللحام ؛ فلم يأخذ ؛ واُحتِيجَ فى البيت : إلى شىءٍ من الزيت ؛ فأنشدت ألفا ومائتى بيت : من شعر الكُميت ؛ فلم تُغْنِ ؛ ودفعت أرجوزة العجَّاج ؛ فى توابل السكباج ؛ فلم تنفع !! .

وأنت لم تقنع !! ؛ فما أصنع ؟!!

فإن كنت تحسب اختلافك إلىَّ : إفضالاً منك علىَّ ؛ فراحتى ألاَّ تطرق ساحتى ؛ وفرجى ألاَّ تجى .

والسلام .)) .

وفى ((وفيات الأعيان)) ؛(جـ ١ / ١٢٧):

((ـ وله من تعزيةٍ:

الموتُ خطبٌ قد عَظُمَ حتى هان ؛ وَمَسٌّ قد خَشُنَ حتى لان ؛ والدُّنيا قد تنكَّرت حتى صار الموت أخف خطوبها ؛ وجنت حتى صار أصغر ذنوبها ؛ فلتنظُر يمنةً : هل ترى إلاَّ محنة ؟!! ؛ ثم انظر يسرة : هل ترى إلا حسرة ؟!! .)) .

وقالَ صاحبُ ((وفيات الأعيان)) ـ أيْضاً ـ ؛ (جـ١ / ٤٠٢ ـ ٤٠٣):

((وأنا ذاكرٌ من طُرَفِ مُلَحِهِ ؛ ولفظ غُرَرِه : ما هو غذاء القلب ؛ وقوت النفس ؛ ومادة الأُنس .

ـ فصل :

وفيما يقول الناس من حكايتهم : أن أعرابيَّاً نام ليلةً عن جمله ؛ ففقده ؛ فلمَّا طلع القمر وجده ؛ فرفع إلى الله يده ؛ وقال : أشهدُ لقد أعليته ؛ وجعلت السماء بيته !! ؛ ثم نظر إلى القمر ؛ فقال : إن الله صوَّرك ؛ ونوَّرك ؛ وعلى البُرُوج دوَّرك ؛ وإذا شاء كوَّرك ؛ ولا أعلم مزيداً أسأله لك !! ؛ ولئن أهديت قلبى سُرُوراً ؛ لقد أهدى الله إليك نوراً .

والشيخ ذلك القمر المُنير : لقد أعلى الله قدره ؛ وأنفذ بين الجلود واللحوم أمره ؛ ونظر إليه وإلى الذين يحسدونه : فجعله فوقهم ؛ وجعلهم دُونه .

ـ فصول قصار :

ما كل مائعٍ ماء ؛ ولا كُلُّ سقف سماء ؛ ولا كل محمدٍ رَسُول .

وله :

المرء لا يُعرف بِبُرْدِه ؛ والسيف لا يُعرف بِغِمْدِه . » .

قَالَ نِزَار : كَانَ الهَمَذَانِيُّ إِمَاماً فِي اللُّغَةِ ؛ وَمُقَدَّماً فِي الأَدَب ؛ صَارَت الأَسَالِيبُ طَوْعَ بَنَانِهِ ؛ وَمَا مِن شَارِدَةٍ وَلا وَارِدَةٍ إِلاَّ وَتَجْرِي عَلَى لِسَانِهِ .

ثُمَّ :

١٠ ـ شَاعِرِيَّةُ البَدِيع ؛ وَمَنْزِلَتُهُ فِي فَنِّ القَرِيض :

جاء في « معجم الأدباء » ؛ (جـ ١ / ٢٣٨) :

« وقد ذكره أبو نصر عبد الرحمن بن عبد الجبَّار الفامي في (تاريخ هراة) من تأليفه ؛ وأنشد للبديع :

خَرَجَ الأَمِيرُ وَمِن وَرَاءِ رِكَابِهِ
غَيْرِي وَعَزَّ عَلَيَّ أن لَم أَخْرُجِ !!
أَصْبَحْتُ لا أَدْرِي أَأَدْعُو طَغْمَشِي
أم يَكْتَلِينِي أم أَصِيحُ بِنَدْغَجِي !؟
وَبَقِيتُ لا أَدْرِي أَأَرْكَبُ أَبْرَشِي
أَم أَدْهَمِي أَم أَشْبَهِي أَم دَيْزَجِي !؟
يَا سَيِّدَ الأُمَرَاءِ مَا لِي خَيْمَةٌ
؛ إِلاَّ السَّمَاءَ إِلَى ذُرَاهَا أَلْتَجِي !!

كَتِفِى بَعِيرِى إن ظَعَنْتُ ؛ وَمَفْرَشِى
كُمِّى ؛ وَجُنْحُ اللَّيْلِ مَطْرَحُ هَوْدَجِى !!)) .

وفى ((وفيات الأعيان)) ؛ (جـ ١ / ١٢٧) :

((ومن شعره من جُملة قصيدةٍ طويلةٍ :

وَكَادَ يَحْكِيكَ صَوْبُ الغَيْثِ مُنْسَكِباً
لَو كَانَ طَلْقُ المُحَيَّا يُمْطِرُ الذَّهَبَا
وَالدَّهْرُ لَو لَم يَخُن ؛ وَالشَّمْسُ لَو نَطَقَت
وَاللَّيْثُ لَو لَم يُصَد ؛ وَالبَحْرُ لَو عَذُبَا)) .

قُلْتُ : وَقَد نُسِبَ لَهُ مِنَ الشِّعْرِ مَا لَيْسَ لَهُ

قَالَ ابنُ خَلِّكَان فى ((الوفيات)) ؛ (جـ ١ / ١٢٧) :

((ومن شعره فى ذَمِّ همذان ؛ ثم وجدتهما لأبى العلاء محمد بن عليٍّ بن حسول الهمذانيِّ :

هَمَذَانُ لِى بَلَدٌ أَقُولُ بِفَضْلِهِ
.. ؛ لَكِنَّهُ مِن أَقْبَحِ البُلْدَانِ
صِبْيَانُهُ فِى القُبْحِ مِثْلُ شُيُوخِهِ
وَشُيُوخُهُ فِى العَقْلِ كَالصِّبْيَانِ)) .

١١ ـ قِصَّةُ مَقَامَاتِ الهَمَذَانِيِّ :

قَالَ يَاقُوتُ الحمويُّ في «معجم الأدباء» ؛ (جـ ١ / ٢٣٧ ـ ٢٣٨) :

« ولمَّا رأى أبا بكر محمد بن الحسن بن دُريد الأزديَّ أغرب بأربعين حديثاً ؛ وذكر أنه استنبطها من ينابيع صدره ؛ وانتخبها من معادن فكره ؛ وأبداها للأبصار والبصائر ؛ وأهداها إلى الأفكار والضمائر ؛ في معارض حُوشيَّة ؛ وألفاظٍ عنجهيَّة ؛ فجاء أكثرها تنبو عن قبوله الطباع ؛ ولا تُرفع له حُجُبُ الأسماع ؛ وتوسَّع فيها ؛ إذ صرَّف ألفاظها ومعانيها ؛ في وُجُوهٍ مُختلفة ؛ وَضُرُوبٍ مُنصرفة : عارضه بأربعين مقامةٍ في الكُدْيَة ؛ تذوب ظرفاً ؛ وتقطر حُسناً ؛ لا مُناسبة بين المقامتين لفظاً ولا معنى ؛ عطف مُساجلتها ؛ ووقف مُناقلتها : بين رَجُلَيْن : سمَّى أحدهما : عيسى بن هشام ؛ والآخر : أبا الفتح الإسكندريَّ ؛ وجعلهما يتهاديان الدُّر ؛ ويتنافثان السِّحْر ؛ في معانٍ تُضحك الحزين ؛ وَتحُرِّك الرَّصين ؛ وتُطالع منها كل طريفة ؛ ويُوقف منها على كل لطيفة ؛ وربما أفرد بعضهما بالحكاية ؛ وخصَّ أحدهما بالرواية . » .

١٢ ـ وَفَاةُ الهَمَذَانِيِّ :

في «مُعجم الأدباء» ؛ (جـ ١ / ٢٣٥) :

« ويُقال : جُنَّ في آخر عُمره إلى أن مات . » .

قُلْتُ : «وَيُقَال» : صَيغَةٌ تَمْرِيضِيَّةٌ لا عَلاقَةَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ اليَقِين !!.

قَالَ الحمويُّ في «مُعجم الأدباء» ؛ (جـ ١ / ٢٣٦) :

« وحين بلغ أَشُدَّهُ وأربى على أربعين سنة : ناداه الله ؛ فلبَّاه ؛ وفارق دُنياه .
فى سنة ثمان وتسعين وثلاثمائة . » .

وَقَالَ فى (جـ ١ / ٢٣٥) :

« وُلِدَ فى ثالث عشر جُمادى الآخرة ؛ سنة ثمان وخمسين وثلاثمائة .
ومات فى سنة ثمان وتسعين وثلاثمائة . » .

قُلْتُ : اُخْتُرِمَ وَهُوَ فِى شَبَابِهِ لَم يَزَل ؛ وَلَو طَالَ عُمُرُهُ لَجَادَ عَلَى العَرَبِيَّةِ وَأَهْلِهَا ... ؛ وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَيَخْتَار .

وَقَد ذَهَبَ بَعْضُهُم فِى سَبَبِ مَوْتِهِ مَذَاهِب ؛ كَحَالِ مَن يَمُوتُ مِنَ العَبَاقِرَةِ بَعْدَ أن يَمْلأَ الدُّنْيَا وَيَشْغَلَ النَّاس ؛ فَقَد جَاءَ فِى « وفيات الأعيان » ؛ (ج ١ / ١٢٩) :

« وكانت وفاته سنة ثمان وتسعين وثلثمائة مسموماً بمدينة هراة .
ـ رحمه الله تعالى ـ .

ثم وجدت فى آخر رسائله التى جمعها الحاكم أبو سعيد عبد الرحمن بن محمد بن دوست ؛ ما مثاله :

هذا آخر الرسائل ؛ وتُوفِّىَ ـ رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى ـ بهراة : يوم الجُمعة ؛ الحادى عشر من جُمادى الآخرة ؛ سنة ثمان وتسعين وثلثمائة .

قال الحاكم المذكور : وسمعت الثِّقات يحكون أنه مات من السكتة ؛ وَعُجِّلَ دفنه ؛ فأفاق فى قبره !! ؛ وَسُمِعَ صوته بالليل !! ؛ وأنه نُبِشَ عنه ؛ فوجدوه قد قبض على لحيته ؛ ومات من هول القبر !! . » .

قُلْتُ : رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى ؛ وَلِلَّهِ دَرُّ شَمْسِ الدِّينِ بْنِ خَلِّكَان : حِينَ قَالَ فِي آخِرِ تَرْجَمَتِهِ بِـ « وَفَيَاتِهِ » ؛ (جـ١ / ٤٠٢) :

« قامت عليه نوادب الأدب ؛ وانثلم حَدُّ القلم !! .

على أنه ما مات من لم يمت ذكره ؛ ولقد خُلِّدَ من بقيَ على الأيام نثره ونظمه . » .

✿✿✿✿✿ ✿✿✿✿✿ ✿✿✿✿✿

المُنْتَخَب

مِن مَقَامَات

بَدِيعِ الزَّمَانِ الهَمَذَانِيّ

﴿ ت ٣٩٨هـ ﴾

۞ - المَقَامَةُ القَرِيضِيَّة

حَدَّثَنَا عِيسَى بْنُ هِشَام ؛ قَال : طَرَحَتْنِى النَّوَى مَطَارِحَهَا ؛ حَتَّى إذَا وَطِئْتُ جُرْجَان الأَقْصى ؛ فاستَظْهَرْتُ عَلَى الأَيَّام بِضِياعٍ أَجَلْتُ فِيهاَ يَدَ العِمَارةِ ؛ وَأَمْوَالٍ وَقَفْتُهَا عَلَى التِّجَارَةِ ؛ وَحَانُوتٍ جَعَلْتُهُ مَثَابَةً ؛ وَرُفْقَةٍ اتَّخَذْتُهَا صَحَابَةً ؛ وَجَعَلْتُ لِلْدَّار ؛ حَاشِيَتَى النَّهَار ؛ وللحَانُوتِ بَيْنَهُمَا ؛ فَجَلَسْنَا يَوْمَاً نَتَذَاكَرُ القَرِيضَ وَأَهْلَهُ ؛ وَتِلْقَاءَنَا شَابٌّ قَدْ جَلَسَ غَيْرَ بَعِيدٍ يُنْصِتُ وَكَأَنَّهُ يَفْهَمُ ؛ وَيَسْكُتُ وَكَأَنَّهُ لاَ يَعْلَمُ ؛ حَتَّى إِذَا مَالَ الكَلاَمُ بِنَا مَيْلَهُ ؛ وَجَرَّ الْجِدَالُ فِينَا ذَيْلَهُ ؛ قَال : قَدْ أَصَبْتُم عُذَيْقَهُ ؛ وَوَافَيْتُم جُذَيْلَهُ ؛ وَلَوْ شِئْتُ لَلَفَظْتُ وَأَفَضْتُ ؛ وَلَوْ قُلْتُ لأَصْدَرْتُ وَأَوْرَدْتُ ؛ وَلَجَلَوْتُ الْحقَّ فى مَعْرَضِ بَيَانٍ يُسْمِعُ الصُّمَّ ؛ وَيُنْزِلُ العُصْمَ ؛ فقُلْتُ : يَا فَاضِل ! ؛ أُدْنُ فَقَدْ مَنَّيْت ؛ وَهَات فَقَدْ أَثْنَيت ؛ فَدَنَا ؛ وَقَال : سَلُونِى أُجِبْكُم ؛ وَاسْمَعُوا أُعْجِبْكُم ؛ فَقُلْنَا : مَا تَقُولُ فِى امْرِىءِ القَيس؟ ؛ قَال : هُوَ أَوَّلُ مَن وَقَفَ بِالدِّيارِ وَعَرَصَاتِهَا ؛ وَاغْتَدَى وَالطَّيْرُ فِى وَكَنَاتِهَا ؛ وَوَصَفَ الْخيلَ بِصِفَاتِها ؛ وَلَمْ يَقُل الشِّعْرَ كَاسِياً ؛ وَلَمْ يُجِد القَوْلَ رَاغِباً ؛ فَفَضَلَ مَن تَفَتَّقَ لِلْحِيلةِ لِسَانُهُ ؛ وَانْتَجَعَ لِلرَّغْبَة بَنَانُهُ ؛ قُلْنَا : فما تَقُولُ فِى النَّابِغَة؟ ؛ قَال : يَثْلِبُ إِذَا حَنِقَ ؛ وَيَمْدَحُ إِذَا رَغِبَ ؛ وَيَعْتَذِرُ إِذَا رَهِبَ ؛ فَلاَ يَرْمِى إِلاَّ صَائِباً ؛ قُلْنَا : فَمَا تَقُولُ فِى زُهَيرٍ ؟ ؛ قَال : يُذِيبُ الشِّعرَ والشِّعْرُ يُذِيبُهُ ؛ وَيَدعُو القَولَ وَالسِّحْرُ يُجِيبُهُ ؛ قُلْنَا : فَمَا تَقُولُ فِى طَرَفَةَ ؟ ؛ قَالَ : هُوَ مَاءُ الأَشْعَارِ وَطِينَتُها ؛ وَكَنْزُ القَوَافِى وَمَدِينَتُهَا ؛ مَاتَ وَلَمْ تَظْهَر

أَسْرَارُ دَفَاتِرِه ؛ وَلَم تُفْتَح أَغْلاَقُ خَزَائِنِه ؛ قُلْنَا : فَمَا تَقُولُ فِى جَرِيرٍ وَالْفَرَزْدَق؟ أَيُّهُمَا أَسْبَق؟ ؛ فَقَالَ : جَرِيرٌ أَرَقُّ شِعْراً ؛ وَأَغْزَرُ غَزْراً ؛ وَالْفَرَزْدَقُ أَمْتَنُ صَخْراً ؛ وَأَكْثَرُ فَخْراً ؛ وَجَرِيرٌ أَوْجَعُ هَجْواً ؛ وَأَشْرَفُ يَوْماً ؛ وَالْفَرَزْدَقُ أَكْثَرُ رَوْماً ؛ وَأَكْرَمُ قَوْماً ؛ وَجَرِيرٌ إِذَا نَسَبَ أَشْجَى ؛ وَإِذَا ثَلَبَ أَرْدَى ؛ وَإِذَا مَدَحَ أَسْنَى ؛ وَالْفَرَزدقُ إِذَا افْتَخَرَ أَجْزَى ؛ وَإِذَا احْتَقَرَ أَزرَى ؛ وَإِذا وصَفَ أوفَى ؛ قُلنَا : فَمَا تَقُولُ فِى المُحْدَثِينَ مِن الشُّعَراءِ والمُتقَدِّمينَ مِنهُم ؟ ؛ قال : المُتَقَدِّمونَ أَشْرفُ لَفْظاً ؛ وَأَكثرُ من المَعَانى حَظّاً ؛ وَالمُتَأَخِّرونَ أَلْطَفُ صُنْعاً ؛ وَأَرَقُّ نَسْجاً ؛ قُلْنا : فَلَو أَرَيْتَ مِن أَشْعارِك ؛ وَرَوَيْتَ لَنا مِن أَخْبارِك ؟ ؛ قالَ : خُذْهُما فى معْرِضٍ واحِدٍ ؛ وَقال :

أَمَا تَـرَوْنِى أَتَغَشَّى طِمْرَا
مُـمْتَطِيَاً فِى الضُّرِّ أَمْراً مُـرّا
مُضْطَبِنَاً عَلَى اللَّيَالِى غِمَرَا
مُلاقِيَاً مِنْهَا صُـرُوفَاً حُمْرَا
أَقْصَى أَمَانِىَّ طُلُوعُ الشِّعْرَى
فَـقَد عُنِيـنَا بِالأَمَانِى دَهْـرَا
وَكَانَ هَـذَا الحُـرُّ أَعْلَى قَدْرَا
وَمَاءُ هَـذَا الوَجْهِ أَغْلَى سِعْرَا
ضَرَبْتُ لِلسُّرَّا قِبَابَاً خُضْرَا
؛ فِى دَارِ دَارَا وَإِوَانِ كِسْـرَى

فَانْقَلَبَ الدَّهْرُ لِبَطْنٍ ظَهْرَا
وَعَادَ عُرْفُ العَيْشِ عِنْدِي نُكْرَا
لَمْ يُبْقِ مِن وَفْرِي إلاَّ ذِكْرَا
ثُمَّ إلَى اليَوْمِ هَلُمَّ جَرًّا .
لَوْلا عَجُوزٌ لِي بِسُرَّ مَن رَا
وَأَفْرُخٌ دونَ جِبَالِ بُصْرَى
قَدْ جَلَبَ الدَّهْرُ عَلَيْهِم ضُرًّا
قَتَلْتَ يَا سَادَةُ نَفْسِي صَبْرَا

قَالَ عِيسَى بْنُ هِشَام :

فَانَلْتُهُ مَا تَاح ؛ وَأَعْرَضَ عَنَّا فَرَاح ؛ فَجَعَلْتُ أنفيهِ وَأُثبتُه ؛ وَأنْكِرُهُ وَكَأنِّي أعْرِفُه ؛ ثُمَّ دَلَّتْنِي عَلَيهِ ثَنَاياه ؛ فَقُلْتُ : الإسْكَنْدَرِيُّ وَاللّه !! ؛ فَقَدْ كَانَ فَارَقَنَا خِشْفاً ؛ وَوَافانا جِلْفاً ؛ وَنَهَضْتُ عَلى إثْرِهِ ؛ ثُمَّ قَبَضْتُ عَلَى خَصْرِه ؛ وَقُلْتُ : أَلَسْتَ أَبَا الفَتْح ؟!! ؛ أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينا وَلِيداً وَلَبِثْتَ فِينا مِنْ عُمُرِكَ سِنِين ؟!! ؛ فَأيُّ عَجُوزٍ لَكَ بِسُرَّ مَنْ رَا ؟!!.

فَضَحِكَ إلَيَّ وَقَال :

وَيْحَكَ هَذَا الزَّمَان زُورُ
فَلا يَغُرَّنَّكَ الغُرُورُ

لاَ تَلْتَزِمْ حَالَةً ؛ وَلَكِنْ
دُرْ بِاللَّيَالِي كَمَا تَدُورُ

❁ - المَقَامَةُ البَلْخِيَّة

حَدَّثَنَا عِيسى بْنُ هِشَام ؛ قَال : نَهَضَتْ بِي إِلى بَلخَ تِجَارَةُ الْبَزِّ ؛ فَوَرَدْتُهَا وَأَنَا بِعُذْرَةِ الشَّبَابِ ؛ وَبَالِ الفَرَاغِ ؛ وَحِلْيَةِ الثَّرْوَةِ ؛ لا يُهِمُّنِي إِلاَّ مُهْرَةُ فِكْرٍ أَسْتَقِيدُهَا ؛ أَوْ شَرُودٌ مِنَ الكَلِمِ أَصِيدُهَا ؛ فَمَا اسْتَأْذَنَ عَلَى سَمْعِي مَسَافَةَ مُقَامِي ؛ أَفْصَحُ مِن كَلامِي ؛ وَلَمَّا حَنَى الْفِراقُ بِنَاقُوسَهِ أَو كَاد ؛ دَخَلَ عَلَيَّ شَابٌّ فِي زَيٍّ مِلْءِ العَيْنِ ؛ وَلْحيَةٍ تَشُوكُ الأَخْدَعَيْنِ ؛ وَطَرفٍ قَدْ شَرِبَ مَاءَ الرَّافِدَيْنِ ؛ وَلَقِيَنِي مِنَ الْبرِّ فِي السَّنَاء ؛ بِمَا زِدْتُهُ فِي الثَّنَاء ؛ ثُمَّ قَالَ : أَظَعْناً تُرِيدُ ؟ ؛ فَقُلْتُ : إِي وَاللهِ ؛ فَقَال : أَخْصَبَ رَائِدُك ؛ وَلاَ ضَلَّ قَائِدُك ؛ فَمَتَى عَزَمْتَ ؟ ؛ فَقُلْتُ : غَدَاةَ غَدٍ ؛ فَقَال :

صَبَاحُ اللهِ لا صُبْحُ انطِلاقِ
وَطَيْرُ الوَصْلِ لا طَيْرُ الفِرَاقِ

فَأَيْنَ تُرِيدُ ؟ ؛ قُلْتُ : الوَطَن ؛ فَقَال : بُلِّغْت الوَطَن ؛ وَقَضَيْتَ الوَطَر ؛ فَمَتَى العَوْدُ ؟ ؛ قُلْتُ : القَابِل ؛ فَقَال : طَوَيْتُ الرَّيْط ؛ وَثَنَيْتَ الْخيْط ؛ فَأَيْنَ أَنْتَ مِنَ الكَرَمِ ؟ ؛ فَقُلْتُ : بِحَيْثُ أَرَدْتَ ؛ فَقَال : إِذَا أَرْجَعَكَ اللهُ سَالِماً مِن هَذَا الطَّرِيق ؛ فَاسْتَصْحِبْ لِي عَدُوّاً فِي بُرْدَةِ صَدِيق ؛ مِن نِجَار الصُّفْر ؛ يَدْعُو إِلى الكُفْر ؛ وَيَرْقُصُ عَلَى الظُّفر ؛ كَدَارَةِ العَيْن ؛ يَحُطُّ ثِقْلَ الدَّيْن ؛ وَيُنافِقُ بِوَجْهَيْن .

قَالَ عِيسى بْنُ هِشَام : فَعَلِمْتُ أَنَّهُ يَلْتَمِسُ دِيناراً ؛ فَقُلْتُ : لَكَ ذلِك نَقْداً ؛ وَمِثْلُهُ وَعْدَاً ؛ فَأَنْشأَ يَقُول :

رَأيُكَ مِمَّا خَطَبْتُ أَعْلَى
لا زِلْتَ لِلمَكْرُمَاتِ أَهْلا
صَلُبْتَ عُودَاً ؛ وَدُمْتَ جُودَاً
وَفُقْتَ فَرْعَاً ؛ وَطِبْتَ أَصْلا
لا أَسْتَطِيعُ العَطَاءَ حَمْلاً
؛ وَلا أُطِيقُ السُّؤَالَ ثِقْلا
قَصُرْتُ عَن مُنْتَهَاكَ ظَنَّاً
وَطُلْتَ عَمَّا ظَنَنْتُ فِعْلا
يَا رُجْمَةَ الدَّهْرِ وَالمَعَالِي
لا لَقِيَ الدَّهْرُ مِنْكَ ثُكْلا

قَالَ عِيسَى بْنُ هِشَام : فَنُلْتُهُ الدِّينَارَ ؛ وَقُلتُ : أَينَ مَنْبتُ هَذا الفَضْل ؟ ؛ فَقَالَ : نَمَتْنِي قُرَيشٌ ؛ وَمَهَّدَ لِيَ الشَّرفُ فِي بَطَائِحِهَا .

فَقالَ بَعْضُ مَن حَضَر : أَلَسْتَ بِأَبِي الْفَتْحِ الإِسْكَنْدَرِيِّ ؟! ؛ أَلَمْ أَرَكَ بِالْعِراق ؟ ؛ تَطُوفُ فِي الأَسْواق ؟! ؛ مُكَدياً بِالأَوْرَاق ؟!!

فَأنْشأَ يَقُول :

إِنَّ لِلَّـهِ عَبِيداً　　　أَخَذُوا الْعُمْرَ خَلِيطَا

فَهُمُ يُمْسُونَ أَعْرَا　　　باً ؛ وَيُضْحُونَ نَبِيطَا

۞۞۞۞۞ ۞۞۞۞۞ ۞۞۞۞۞

❁ - المَقَامَةُ الكُوفِيَّة

حَدَّثَنَا عِيسَى بْنُ هِشَامٍ ؛ قَال :

كُنْتُ وَأَنَا فَتِيُّ السِّنِّ أَشُدُّ رَحْلِي لِكُلِّ عَمَايَةٍ ؛ وَأَرْكِضُ طَرْفِي إِلَى كُلِّ غِوَايَةٍ ؛ حَتَّى شَرِبْتُ مِنَ العُمْرِ سَائِغَهُ ؛ وَلَبِسْتُ مِنَ الدَّهْرِ سابِغَهُ ؛ فَلَمَّا انْصَاحَ النَّهَارُ بِجَانِبِ لَيْلِي ؛ وَجَمَعْتُ للمَعَادِ ذَيْلِي ؛ وَطِئْتُ ظَهْرَ المَرُوضَةِ ؛ لأداءِ المَفْرُوضَةِ ؛ وَصَحِبَنِي فِي الطَّرِيقِ رَفِيقٌ لَمْ أُنْكِرْهُ مِن سُوءٍ ؛ فَلَمَّا تَجَالَيْنَا ؛ وَخَبَّرْنَا بِحالَيْنا ؛ سَفَرَتِ القِصَّةُ عَن أصْلٍ كُوفِيٍّ ؛ وَمَذْهَبٍ صُوفِيٍّ ؛ وَسِرْنَا ؛ فَلَمَّا أَحَلَّتْنا الكُوفَةُ مِلْنا إِلى دَارِهِ ؛ وَدَخلْنَاهَا وَقَدْ بَقَلَ وَجْهُ النَّهَارِ وَاخْضَرَّ جَانِبُهُ ؛ وَلَما اغْتَمَضَ جَفْنُ اللَّيْلِ وَطَرَّ شَارِبُهُ ؛ قُرِعَ عَلَيْنا الباب ؛ فَقُلْنا : مَنِ القارِعُ المُنْتَاب ؟ ؛ فقالَ : وَفْدُ اللَّيْلِ وَبَرِيدُهُ ؛ وَفَلُّ الجُوعِ وَطَرِيدُهُ ؛ وَحُرٌّ قَادَهُ الضُّرُّ ؛ والزَّمَنُ المُرُّ ؛ وَضَيْفٌ وَطْؤُهُ خَفِيف ؛ وَضَالَّتُهُ رَغِيف ؛ وَجَارٌ يَسْتَعْدِي عَلى الجُوعِ ؛ وَالجَيْبِ المَرْقُوعِ ؛ وَغَرِيبٌ أُوقِدَتِ النَّارُ عَلى سَفَرِهِ ؛ وَنَبَحَ العَوَّاءُ عَلَى أَثَرِهِ ؛ وَنُبِذَتْ خَلْفَهُ الحُصَيَّات ؛ وَكُنِسَتْ بَعْدَهُ العَرَصات ؛ فَنِضْوُهُ طَلِيح ؛ وَعَيْشُهُ تَبْرِيح ؛ وَمِن دُونِ فَرْخَيْهِ مَهَامِهُ فِيح .

قَالَ عِيسى بْنُ هِشَامٍ : فَقَبَضْتُ مِن كِيسى قَبْضَةَ اللَّيْث ؛ وَبَعَثْتُها إِلَيهِ ؛ وَقُلْتُ : زِدْنا سُؤَالاً ؛ نَزِدْكَ نَوَالاً ؛ فَقَال : ما عُرِضَ عَرْفُ العُود ؛ عَلى أَحَرَّ مِن نَارِ الجُود ؛ وَلا لُقِيَ وَفْدُ البِر ؛ بِأَحْسَنَ مِن بَرِيدِ الشُّكْر ؛ وَمَن مَلَكَ الفَضْلَ فَلْيُوَاس ؛ فَلَن يَذْهَبَ العُرْفُ بَيْنَ اللهِ وَالنَّاس ؛ وَأَمَّا أَنْتَ فَحَقَّقَ اللهُ آمَالَك ؛

وَجَعَلَ اليَدَ العُلْيا لَك .

قَالَ عِيسى بْنُ هِشام : فَفَتَحْنا لَهُ البَابَ ؛ وَقُلْنا : ادْخُلْ ؛ فَإِذا هُوَ وَاللهِ شَيْخُنا أَبُو الفَتْحِ الإِسْكَنْدَرِيُّ !! ؛ فَقُلْتُ : يا أَبَا الفَتْح !! ؛ شَدَّ مَا بَلَغتْ مِنْكَ الخصَاصَةَ ؛ وَهذا الزِّيُّ خَاصَّة ؛ فَتَبَسَّمَ ؛ وَأَنْشأ يَقول :

لاَ يَغُرَنَّكَ الَّذِى
أَنَا فِيهِ مِنَ الطَّلَبْ
أَنَا فِى ثَرْوَةٍ تُشَـ
قُّ لَهَا بُرْدَةُ الطَّرَبْ
أَنَا لَو شِئْتُ لاَتَّخَذْ
تُ سُقُوفاً مِنَ الذَهَبْ

۞ - المَقَامَةُ البَغْدَاذِيَّة

حَدَّثَنا عِيسَى بْنُ هِشَامٍ ؛ قَال :

اشْتَهَيْتُ الأَزَاذ ؛ وأَنَا بِبَغْدَاذ ؛ وَلَيسَ مَعِى عَقْدٌ عَلَى نَقْد ؛ فَخَرَجْتُ أَنْتَهِزُ مَحَالَّهُ ؛ حَتَّى أَحَلَّنِى الكَرْخ ؛ فَإِذَا أَنَا بِسَوادِىٍّ يَسُوقُ بِالجَهْدِ حِمارَهُ ؛ وَيُطَرِّفُ بِالعَقْدِ إِزَارَهُ ؛ فَقُلْتُ : ظَفِرْنَا وَاللهِ بِصَيْد !! ؛ وَحَيَّاكَ اللهُ أَبَا زَيْد ؛ مِن أَيْنَ أَقْبَلْت؟ ؛ وَأَيْنَ نَزَلْت؟ ؛ وَمَتَى وَافَيْت؟ ؛ وَهَلُمَّ إِلَى البَيْت ؛ فَقَالَ السَّوادِىُّ : لَسْتُ بِأَبِى زَيْد !! ؛ وَلَكِنِّى أَبُو عُبَيْد ؛ فَقُلْتُ : نَعَم ؛ لَعَنَ اللهُ الشَّيطَان !! ؛ وَأَبْعَدَ النِّسْيان !! ؛ أَنْسَانِيكَ طُولُ العَهْد ؛ وَاتِّصَالُ البُعْد !! ؛ فَكَيْفَ حَالُ أَبِيك ؟!! ؛ أَشَابٌّ كَعَهْدِى؟ ؛ أَمْ شَابَ بَعْدِى؟ ؛ فَقَالَ : قَدْ نَبَتَ الرَّبِيعُ عَلَى دِمْنَتِه ؛ وَأَرْجُو أَنْ يُصَيِّرَهُ اللهُ إِلَى جَنَّتِه ؛ فَقُلْتُ : إِنَّا للهِ وإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُون !! ؛ وَلاَ حَوْلَ ولاَ قُوَّةَ إِلاَّ بِاللهِ العَلِىِّ العَظِيم !! ؛ وَمَدَدْتُ يَدَ البِدَار ؛ إِلى الصِّدَار ؛ أُرِيدُ تَمْزِيقَهُ ؛ فَقَبَضَ السَّوادِىُّ عَلَى خَصْرِى بِجُمْعِهِ ؛ وَقَالَ : نَشَدْتُكَ اللهَ لا مَزَّقْتَهُ !! ؛ فَقُلْتُ : هَلُمَّ إِلى البَيْتِ نُصِبْ غَدَاءً ؛ أَوْ إِلَى السُّوقِ نَشْتَرِ شِواءً ؛ وَالسُّوقُ أَقْرَبُ ؛ وَطَعَامُهُ أَطْيَبُ ؛ فَاسْتَفَزَّتْهُ حُمَةُ القَرَم ؛ وَعَطَفَتْهُ عَاطِفَةُ اللَّقَم ؛ وَطَمِع ؛ وَلَم يَعْلَم أَنَّهُ وَقَع !! ؛ ثُمَّ أَتَيْنَا شَوَّاءً يَتَقَاطَرُ شِوَاؤُهُ عَرَقاً ؛ وَتَتَسَايَلُ جُوذَابَاتُهُ مَرَقاً ؛ فَقُلْتُ : افْرِزْ لأَبِى زَيْدٍ مِن هَذا الشِّواء ؛ ثُمَّ زِنْ لَهُ مِن تِلْكَ الحَلْواء ؛ واخْتَرْ لَهُ مِن تِلْكَ الأَطْباق ؛ وانْضِدْ عَلَيْهَا أَوْرَاقَ الرُّقَاق ؛ وَرُشَّ عَلَيْهِ شَيْئاً مِن مَاءِ السُّمَّاق ؛ لِيأْكُلَهُ أَبُو زَيْدٍ هَنِيّاً ؛ فَأَنْحَى الشَّوَّاءُ بِسَاطُورِهِ ؛

عَلَى زُبْدَةِ تَنُّورِهِ ؛ فَجَعَلَها كَالكُحْلِ سَحْقاً ؛ وَكَالطَّحْنِ دَقّاً ؛ ثُمَّ جَلَسَ وَجَلَسْتُ ؛ ولا يَئِسَ وَلا يَئِسْتُ ؛ حَتَّى استَوفَيْنَا ؛ وَقُلْتُ لِصَاحِبِ الحَلْوَى : زِنْ لأَبِى زَيْدٍ مِنَ اللُّوزِينج رِطْلَيْن ؛ فَهُوَ أَجْرَى فِى الحُلُوق ؛ وَأَمْضَى فِى العُرُوق ؛ وَلْيَكُن لَيْلِى العُمْر ؛ يَوْمِىَّ النَّشْر ؛ رَقِيقَ القِشْر ؛ كَثِيفَ الحَشْو ؛ لُؤْلُؤِىَّ الدُّهْن ؛ كَوْكَبِىَّ اللَّوْن ؛ يَذُوبُ كَالصَّمْغ ؛ قَبْلَ المَضْغ ؛ لِيَأْكُلَهُ أَبُو زَيْدٍ هَنِيّاً ؛ قَالَ : فَوَزَنَهُ ؛ ثُمَّ قَعَدَ وَقَعَدْتُ ؛ وَجَرَّدَ وَجَرَّدْتُ ؛ حَتَّى اسْتَوْفَيْنَاه ؛ ثُمَّ قُلْتُ : يَا أَبَا زَيْدٍ !! ؛ مَا أَحْوَجَنَا إِلَى مَاءٍ يُشَعْشَعُ بِالثَّلْج ؛ لِيَقْمَعَ هَذِهِ الصَّارَّة ؛ وَيَفْثأ هذِهِ اللُّقَمَ الحَارَّة ؛ اجْلِسْ يَا أَبَا زَيْدٍ حَتَّى نَأْتِيكَ بِسَقَّاء ؛ يَأْتِيكَ بِشَرْبَةِ ماء ؛ ثُمَّ خَرَجْتُ وَجَلَسْتُ بِحَيْثُ أَرَاهُ ولاَ يَرَانِى أَنْظُرُ مَا يَصْنَعُ ؛ فَلَمَّا أَبْطَأْتُ عَلَيْهِ قَامَ السَّوادِىُّ إِلَى حِمَارِهِ ؛ فَاعْتَلَقَ الشَّوَّاءُ بِإِزَارِهِ ؛ وَقَالَ : أَيْنَ ثَمَنُ ما أَكَلْتَ ؟!! ؛ فَقَالَ أَبُو زَيْدٍ : أَكَلْتُهُ ضَيْفاً ؛ فَلَكَمَهُ لَكْمَة ؛ وَثَنَّى عَلَيْهِ بِلَطْمَة ؛ ثُمَّ قَالَ الشَّوَّاءُ : هَاكَ !! ؛ وَمَتَى دَعَوْنَاكَ ؟!! ؛ زِنْ يَا أَخَا القِحَةِ عِشْرِين ؛ فَجَعَلَ السَّوَادِىُّ يَبْكِى وَيَحُلُّ عُقَدَهُ بِأَسْنَانِهِ وَيَقُولُ : كَمْ قُلْتُ لِذَاكَ القُرَيْد ؛ أَنَا أَبُو عُبَيْد !! ؛ وَهُوَ يَقُولُ : أَنْتَ أَبُو زَيْد !! ؛ فَأَنْشَدْتُ :

اعْمَلْ لِرِزْقِكَ كُلَّ آلَهْ ... لاَ تَقْعُدَنَّ بِكُلِّ حَالَهْ

وَانْهَضْ بِكُلِّ عَظِيمَةٍ ... فَالمَرْءُ يَعْجِزُ لاَ مَحَالَهْ

❁- المَقَامَةُ الوَعْظِيَّة

حَدَّثنا عِيسَى بْنُ هِشَامٍ:

بَيْنَا أنا بِالْبَصْرَةِ أَمِيسُ ؛ حَتَّى أَدَّانِى السَّيْرُ إلَى فُرْضَةٍ قَدْ كَثُرَ فِيها قَوْمٌ عَلَى قَائِمٍ يَعِظُهُم ؛ وَهُوَ يَقُول : أَيُّها النَّاسُ ؟!! ؛ إِنَّكُمْ لَمْ تُتْرَكُوا سُدَى ؛ وَإِنَّ مَعَ اليَوْمِ غَداً ؛ وَإِنَّكُمْ وَاردُو هُوَّة ؛ فَأَعِدُّوا لَهَا مَا اسْتَطَعْتُم مِن قُوَّة ؛ وَإِنَّ بَعْدَ المَعَاشِ مَعاداً ؛ فَأَعِدُّوا لهُ زَاداً ؛ ألا لاَ عُذْرَ فَقَدْ بُيِّنَت لَكُمُ المَحَجَّة ؛ وَأُخِذَت عَلَيْكُمُ الحُجَّة ؛ مِنَ السَّماءِ بِالخَبَر ؛ وَمِنَ الأَرْضِ بَالعِبَر ؛ ألا وَإِنَّ الَّذِى بَدَأَ الخَلْقَ عَلِيماً ؛ يُحْيِى العَظامَ رَمِيماً ؛ ألا وَإِنَّ الدُّنْيا دَارُ جِهَاز ؛ وَقَنْطَرَةُ جَوَاز ؛ مَن عَبَرَها سَلِم ؛ وَمَنْ عَمَرَها نَدِم ؛ ألا وَقَد نَصَبَت لَكُمُ الفَخَّ وَنَثرَت لَكُمُ الْحَبَّ ؛ فَمَن يَرْتَع ؛ يَقَع ؛ وَمَن يَلْقُط ؛ يَسْقُط ؛ ألا وَإِنَّ الفَقْرَ حِلْيَةُ نَبِيِّكُم فَاكْتَسُوهَا ؛ وَالغِنَى حُلَّةُ الطُّغْيَانِ فَلاَ تَلْبَسُوها ؛ كَذَبَت ظُنُونُ المُلْحِدِين ؛ الَّذِينَ جَحَدُوا الدِّين ؛ وَجَعَلُوا القُرآنَ عِضِين ؛ إِنَّ بَعْدَ الحَدثِ جَدَثاً ؛ وَإِنَّكُم لَم تُخْلَقُوا عَبَثاً ؛ فَحَذَارِ حَرَّ النَّار ؛ وَبِدَار عُقْبَى الدَّار ؛ ألا وَإِنَّ العِلْمَ أَحْسَنُ عَلَى عِلاَّتِهِ ؛ وَالجَهْلَ أَقْبَحُ عَلَى حَالاتِهِ ؛ وَإِنَّكُمْ أَشْقَى مَن أَظَلَّتْهُ السَّماء ؛ إِنْ شَقِيَ بِكُمُ العُلماء ؛ النَّاسُ بِأَئِمَّتِهم ؛ فَإِنِ انْقَادُوا بِأَزِمَّتِهِم ؛ نَجَوْا بِذِمَّتِهم ؛ وَالنَّاسُ رَجُلاَنِ : عَالِمٌ يَرْعَى ؛ وَمُتَعَلِّمٌ يَسْعَى ؛ وَالبَاقُونَ هامِلُ نَعَام ؛ وَرَاتِعُ أَنْعَام ؛ وَيْلُ عَالِ أَمِرَ مِن سَافِلِه ؛ وَعَالِمِ شَىْءٍ مِن جاهِلِه ؛ وَقَدْ سَمِعْتُ أَنَّ عَلِىَّ بْنَ الحُسَيْنِ كَانَ قَائِماً يَعِظُ النَّاسَ وَيَقُول : يا نَفْسُ حَتَّامَ إِلَى الحَيَاةِ رُكُونُك ؟!! ؛

وَإِلَى الدُّنْيَا وَعِمَارَتِهَا سُكُونُك ؟!! ؛ أما اعتَبَرْتَ بِمَنْ مَضَى مِن أسْلاَفِك ؟!! ؛ وَبِمَن وَارَتْهُ الأَرْضُ مِنْ أُلاَّفِك ؟!! ؛ وَمَن فُجِعْتَ بِهِ مِن إِخْوَانِك ؟!! ؛ وَنُقِلَ إِلَى دَارِ البِلَى مِن أقْرانِك؟!!

فَهُم فِى بُطُونِ الأَرْضِ بَعْدَ ظُهُورِهَا
مَحَاسِنُهُم فِيهَا بَوَالٍ دَوَاثِرُ
خَلَت دُورُهُم مِنْهُم وَأَقْوَتْ عِرَاصُهُم
وَسَاقَتْهُمُ نَحْوَ المَنَايَا المَقَادِرُ
وَخَلَّوْا عَنِ الدُّنْيَا ومَا جَمَعُوا لَهَا
وَضَمَّتْهُمُ تَحْتَ التُّرَابِ الحَفَائِرُ

كَم اخْتَلَسَت أَيْدى المَنُون ؛ مِن قُرُونٍ بَعْدَ قُرُون !! ؛ وكَمْ غَيَّرَت بِبِلاهَا !! ؛ وَغَيَّبَتْ أكْثَرَ الرِّجَالِ فى ثَرَاها !!

وَأَنْتَ عَلَى الدُّنْيَا مُكِبٌّ مُنَافِسٌ
لِخُطَّابِهَا فِيهَا حَرِيصٌ مُكَاثِرُ
عَلَى خَطَرٍ تَمْشِى وَتُصْبِحُ لاهِياً
أَتَدْرى بِمَاذَا لَوْ عَقَلْتَ تُخَاطِرُ؟!!
وَإِنَّ امْرَأً يَسْعَى لِدُنْيَاهُ جَاهِداً
وَيُذْهَلُ عَن أُخْرَاهُ لا شَكَّ خَاسِرُ !!

انْظُرْ إِلى الأُمَمِ الخَالِية ؛ وَالمُلُوكِ الفَانِيَة ؛ كَيْفَ انْتَسَفَتْهُمُ الأَيَّام ؛ وَأَفْنَاهُمُ الحِمَام ؛ فَانْمَحَت آثارُهُم ؛ وَبَقِيَتْ أَخْبارُهم؟!!

فَأَضْحَوْا رَمِيماً فِى التُّرَابِ وَأَقْفَرَت

مَجَالِسُ مِنْهُم عُطِّلَت وَمَقَاصِرُ

وَخَلَّوا عَنِ الدُّنْيَا وَمَا جَمَعُوا بِها

وَمَا فَازَ مِنْهُم غَيْرُ مَن هُوَ صَابِرُ

وَحَلُّوا بِدَارٍ لاَ تَزَاوُرَ بَيْنَهُم ....

.. ؛ وَأَنَّى لِسُكَّانِ القُبُورِ التَّزَاوُرُ

فَمَا إِن تَرَى إِلاَّ رُمُوساً ثَوَوا بِهَا

مُسَطَّحَةً تَسْفِى عَلَيْهَا الأَعَاصِرُ

كَمْ عَايَنْتَ مِن ذِى عِزَّةٍ وَسُلْطان ؛ وَجُنُودٍ وَأَعْوَان ؛ قَد تَمكَّنَ مِن دُنْياه ؛ وَنَالَ مِنْهَا مُنَاه ؛ فَبَنَى الحُصُونَ وَالدَّسَاكِر ؛ وَجَمَعَ الأَعْلاَقَ وَالعَساكِر !!

فَمَا صَرَفَتْ كَفَّ المَنِيَّةِ إِذْ أَتَتْ

. ؛ مُبَادِرَةً تَهْوِى إِلَيْهِ الذَّخَائِرُ

وَلا دَفَعَت عَنْهُ الحُصُونُ الَّتِى بَنَى

وَحَفَّت بِهَا أَنْهَارُهَا والدَّسَاكِرُ

وَلا قَارَعَت عَنْهُ المَنِيَّةَ حِيلَةٌ

وَلا طَمِعَتْ فِى الذَّبِّ عَنْهُ العَساكِرُ

يا قَوْمُ الحَذَرَ الحَذَر !! ؛ وَالبِدارَ البِدار !! ؛ مِن الدُّنيا وَمَكَايِدِهَا ؛ وَمَا نَصَبَت لَكُم من مَصايِدِها ؛ وَتَجلَّت لَكُم مِن زِينَتِها ؛ واستَشْرَفَت لَكُم مِن بَهْجَتِهَا .

وَفِي دُونِ مَاعَايَنْتَ مِن فَجَعاتِهَا

إِلَى رَفْضِهَا دَاعٍ وَبِالزُّهْدِ آمِرُ

فَجِدٌّ وَلا تَغْفَل فَعَيْشُكَ بَائِدٌ

.. ؛ وَأَنْتَ إِلَى دارِ المَنِيَّةِ صائِرُ

وَلا تَطْلُبِ الدُّنْيَا فَإِنَّ طِلابَهَا

وَإِن نِلْتَ مِنْهَا رَغْبَةً لَكَ ضَائِرُ

وَكَيْفَ يَحْرِصُ عَلَيْها لَبيب ؛ أَوْ يُسَرُّ بِهَا أَريب ؛ وَهْوَ عَلى ثِقَةٍ مِن فَنَائِهَا ؟!!! ؛ أَلاَ تَعْجَبُونَ مِمَّن يَنامُ وَهْوَ يَخْشى الْمَوت ؛ وَلا يَرْجُو الفَوْت ؟!!! ؛ أَلاَ ؛ لاَ

وَلكِنَّا نَغُرُّ نُفُوسَنَا وَتَشْغَلُهَا اللَّذَّاتُ عَمَّا نُحَاذِرُ

وَكَيْفَ يَلَذُّ العَيْشَ مَن هُوَ مُوقِنٌ

بِمَوْقِفِ عَدْلٍ حَيْثُ تُبْلَى السَّرَائِرُ

كَأَنَّا نَرَى أَن لا نُشُورَ ؛ وَأَنَّنَاسُدَىً ؛ مَا لَنَا بَعْدَ الفَنَاءِ مَصَائِرُ

كَمْ غَرَّتِ الدُّنيا مِنْ مُخْلِدٍ إِلَيْهَا !! ؛ وَصَرَعَت مِن مُكِبٍّ عَلَيْهَا !! ؛ فَلَم تُنْعِشْهُ مِن عَثْرَتِه !! ؛ وَلَمْ تُقِلْهُ مِن صَرْعَتِه !! ؛ وَلَمْ تُداوِهِ مِن سَقَمِه !! ؛ وَلَمْ تَشْفِهِ مِن أَلَمِه !!

بَلَى أَوْرَدَتْهُ بَعْدَ عِزٍّ وَرِفْعَةٍ

مَوَارِدَ سُوءٍ مَا لَهُنَّ مَصَادِرُ

فَلَمَّا رَأَى أَن لاَ نَجَاةَ وَأَنَّهُ

هُوَ المَوْتُ لاَ يُنْجِيهِ مِنْهُ المُوازِرُ

تَنَدَّمَ لَو أغْنَاهُ طُولُ نَدَامَةٍ
عَلَيْهِ وَأَبْكَتْهُ الذُّنُوبُ الكَبَائِرُ

بَكَى عَلى مَا سَلَفَ مِن خَطَايَاه ؛ وَتَحَسَّرَ عَلى مَا خَلَّفَ مِن دُنْيَاه ؛ حَيْثُ لَم يَنفَعْهُ الاسْتِعْبَار!! ؛ وَلَمْ يُنْجِهِ الاعْتِذَار !!

أَحَاطَت بِهِ أَحْزَانُهُ وَهُمُومُهُ
وَأَبْلَسَ لَمَّا أَعْجَزَتْهُ المَعَاذِرُ
فَلَيْسَ لَهُ مِن كُرْبَةِ المَوْتِ فَارِجٌ
وَلَيْسَ لَهُ مِمَّا يُحَاذِرُ نَاصِرُ
وَقَدْ خَسِئَتْ فَوْقَ المَنِيَّةِ نَفْسُهُ
تُرَدِّدُهَا مِنْهُ اللُّهَى وَالحَنَاجِرُ

فَإِلَى مَتَى تُرَقِّعُ بِآخِرَتِكَ دُنْيَاك ؟!! ؛ وَتَرْكَبُ فِى ذاكَ هوَاك ؟!! ؛ إِنِّى أرَاكَ ضَعِيفَ اليَقِين !! ؛ يَا رَاقِعَ الدُّنْيَا بِالدِّين !! ؛ أَبِهذا أَمَرَكَ الرَّحْمَن ؟!! ؛ أم عَلى هَذا دَلَّكَ القُرْآن ؟!!

تُخَرِّبُ مَا يَبْقَى ؛ وَتَعْمُرُ فَانِيَاً
فَلاَ ذَاكَ مَوْفُورٌ ؛ وَلاَ ذَاكَ عَامِرُ !!
فَهَل لَكَ إِن وَافَاكَ حَتْفُكَ بَغْتَةً
وَلَم تَكْتَسِب خَيْراً لَدَى اللهِ عَاذِرُ ؟!!

أَتَرْضَى بِأَن تُقْضَى الحَيَاةُ وَتَنْقَضِي
؛ وَدِينُكَ مَنْقُوصٌ وَمَالُكَ وَافِرُ ؟!!

قَالَ عِيسَى بْنُ هِشَامٍ : فَقُلْتُ لِبَعْضِ الحَاضِرِين : مَن هَذا ؟ ؛ قَال : غَرِيبٌ قَد طَرَأَ لاَ أَعْرِفُ شَخْصَهُ ؛ فَاصبِرْ عَلَيْهِ إِلَى آخِرِ مَقَامَتِهِ ؛ لَعَلَّهُ يُنْبِئُ بِعَلاَمَتِهِ ؛ فَصَبَرْتُ ؛ فَقَال : زَيِّنُوا العِلْمَ بِالعَمَل ؛ وَاشْكُرُوا القُدْرَةَ بِالْعَفْو ؛ وَخُذُوا الصَّفْوَ وَدَعوا الكَدَر ؛ يَغْفِرِ اللهُ لِي وَلَكُم .

ثُمَّ أَرَادَ الذَّهَاب ؛ فَمَضَيْتُ عَلى أَثَرِهِ ؛ فَقُلْتُ : مَن أَنْتَ يَا شَيْخ ؟ ؛ فَقَال : سُبْحَانَ الله !! ؛ لَمْ تَرْضَ بِالْحِلْيَةِ غَيَّرْتَها ؛ حَتَّى عَمَدْتَ إِلى المَعْرِفةِ فَأَنْكَرْتَهَا !! أَنَا أَبُو الفَتْحِ الإِسْكَنْدَرِيُّ ؛ فَقُلْتُ : حَفِظَكَ الله ؛ فَمَا هَذا الشَّيب ؟!! ؛ فَقَال :

نَذِيرٌ ؛ وَلَكِنَّهُ سَاكِتُ
ضَعِيفٌ ؛ وَلَكِنَّهُ شَامِتُ
وَأَشْخَاصُ مَوْتٍ ؛ وَلَكِنَّهُ
.... ؛ إِلَى أَن أُشَيِّعَهُ ثَابِتُ

✡✡✡✡✡ ✡✡✡✡✡ ✡✡✡✡✡

- فَائِدَة :

۞ - فَنُّ المَقَامَة

.....

- المَقَامَةُ القَرَدِيَّةُ

الفِكْرَةُ ... وَالبِنَاء (۞)

لا رَيْبَ فى أن الحديث عن المقامة القرديّة التى تخيّرتها موضوعاً للدّراسة والقراءة والتذوق ؛ يقتضى من الجهة الصُّوريّة شيئاً من القول المُعاد فى :

- تعريف المقامات .
- نشأتها فى العصر العبّاسىّ .
- أغراضها .
- أنواعها .
- طبيعتها الفنيّة والسّرديّة .

ولا شكّ أن شيئاً :

« من الحديث عن بديع الزمان : سيُوضّح لنا رسالته العلميّة والحضاريّة التى أودعها مقاماته ؛ وقد شرح فيها طبيعة الحياة فى العصر العباسىّ ؛ وهى

(۞) - د : عبد الكريم محمد حُسَيْن .

تُظهر قُوَّةً وتُخفى تكلُّفاً ؛ وتُبدى إيماناً وتُبطن زندقةً ؛ وتدَّعِى زُهداً ؛ وتُضمر جَشَعاً .

لكن دراسة المقامة وتحليلها لن تقف على ذلك إلا بمقدار ما يمسُّ مُحيطُ القراءة فكرة المقامة وبناءها ؛ لأن المقامات كانت تصور :

- انشطار الشَّكل عن المضمون .
- واختلال التوازن بين النظريَّة والواقع .
- والاعتناء بالشكل على حساب المضمون .

ولك أن تنظر فى كتاب « أخلاق الوزيرين » لأبى حيَّان التوحيدىِّ (١) ؛ لتعلم مقدار الخليج الفاصل بين الرُّؤية والواقع ؛ وتعلم مساحة الخلخلة بين الشكل والمضمون فى فنِّ المقامات ؛ وكان فنُّها عباسىٌّ :

- النَّشأة .
- والموضوع .
- والجوهر .
- والشَّكل .

ولسوف تقف هذه الدراسة على بعض هذه المعانى بمقدار حاجة دراسة منهج بناء المقامة القرديَّة لبديع الزمان الهمذانىِّ (٢) إليها ؛ وذلك يوجب إثبات نصِّ المقامة أوَّلاً ؛ ليكون البحث فى نصٍّ حاضرٍ ؛ وتزداد مُشاركة المتلقى فيه ؛ ويقضى بعرض آراء بعض الباحثين المُعاصرين فيه لتفتح الدروب إليه ثانياً ؛ وتعرف مواضع التجديد والتقليد ؛ والفروق بين نظرةٍ

تستغرق النص برؤيةٍ كُلِّيَّةٍ شاملةٍ ؛ وأُخرى تقتبس منه جُزئيَّةً تحملها لغرضٍ من أغراض البحث ؛ وإثبات تحليل النص ثالثاً لنقدم وجهاً من وجوه التأويل ؛ ولوناً من ألوان التذوق .

على أن الخُطَّة فى عنوان المقال توجب تقديم الفكرة على البناء ؛ لكن وجود الفكرة مُحاصرٌ بالبناء ؛ ومضروبٌ عليه سورٌ من خيوط المناهج ؛ فكان لابُدَّ من عبور السور ؛ ودخول البناء لتحرير الفكرة من تلك الشبكات المتعددة والمعقدة ؛ على ما فى الأمر من اشتباكٍ والتباس .

وتبدأ الدراسة بإثبات النَّص :

ـ نَصُّ المَقَامَة :

(المقامة القرديَّة

حدثنا عيسى بن هشامٍ ؛ قال :

بينا أنا بمدينة السَّلام ؛ قافلاً من البلد الحرام ؛ أميس ميسَ الرَّجلة ؛ على شاطئ الدِّجلة ؛ أتأملُ تلك الطرائف ؛ وأتقصَّى تلك الزخارف ؛ إذ انتهيتُ إلى حلقةِ رجالٍ مُزدحمين ؛ يلوى الطرب أعناقهم ؛ ويشقُّ الضحكُ أشداقهم !! .

فساقنى الحرصُ إلى ما ساقَهم ؛ حتى وقفتُ بمسمعِ صوتِ رَجُلٍ ؛ دونَ مرأى وجهِهِ ؛ لشدَّةِ الهجمةِ ؛ وفرطِ الزَّحمةِ ؛ فإذا هو قرَّادٌ يُرْقِصُ قردَهُ ؛ ويُضحِكُ مَن عندَهُ ؛ فرقصتُ رقصَ المُحَرَّجِ ؛ وسرتُ سير الأعرجِ ؛ فوق رقاب الناس ؛ يلفظنى عاتق هذا لِسُرَّة ذاك ؛ حتى افترشتُ لحية رجلين ؛ وقعدتُ بعد

الأَيْن ؛ وقد أشرقنى الخجلُ بريقه ؛ وأرهقنى المكانُ بضيقه ؛ فلما فَرِغَ القرَّادُ من شُغلِه ؛ وانتفضَ المجلسُ عن أهلِهِ ؛ قمتُ وقد كسانى الدَّهشُ حُلَّتَهُ ؛ ووقفتُ لأرى صورتَهُ ؛ فإذا هو ـ والله ـ أبو الفتح الإسكندرىُّ !! .

فقلتُ : ماهذه الدناءةُ ويحَك ؟!!

فأنشأ يقول :

الذَّنبُ للأيَّامِ لا لـى
فـاعتِـبْ على صَرْفِ الليـالى
بالحُمقِ أدركتُ المُنى
ورفلتُ فى حُـلَلِ الجمالِ ﴾ (٣).

بعد إثبات النَّص ؛ لابُدَّ من الإشارة إلى أن دراسة منهج بناء المقامة تتناول :

١ـ تسميتها وعُنوانُها .

٢ـ إسنادها .

٣ـ زمانها .

٤ ـ مكانها .

٥ ـ موضوعها .

٦ـ حركة شخصيَّاتها .

٧ـ لغتها وبيانها خدمة لبنيانها .

٨ ـ مقاصدها القريبة والبعيدة .

٩ـ طريقة عرضها .

١٠ـ ختامها .

ولابُدَّ من الإشارة إلى كُتُبٍ عِدَّة تناولت المقامة القرديَّة تناولاً عارضاً فى بحث فنّ المقامة : جنساً أدبيًّا ؛ أو دراسةً تاريخيَّـةً ؛ أو وقفت عندها مُطوَّلاً ؛ ونقف عند الآراء التى تتصل بالمقامة القرديَّة فقط ؛ وتخيرنا آراء العلماء الآتية أسماؤهم على جهة التمثيل من غير استقصاء :

ـ شوقى ضيف .

ـ هادى حسن حمودى .

ـ عبد المالك مرتاض .

ـ د/ شوقى ضيف :

عرض د. شوقى ضيف للمقامة القرديَّة فى سياق مُعالجته فنّ المقامة ؛ فقال : « ومن يرجع إلى مقامة البديع : يُلاحظ فيها كثيراً من اللفظ الغريب يحشو به أساليبه ؛ كقوله فى المقامة القرديَّة على لسان عيسى بن هشام :

بينا أنا بمدينة السلام ؛ قافلاً من البلد الحرام ؛ أميس ميس الرِّجلة ؛ على شاطئ الدجلة .

فقد استخدم كلمة : أميس : بمعنى أتبختر ؛ وليس هذا مانريد أن نقف عنده ؛ إنما نقف عند كلمة : الرِّجلة ؛ فهى جمع رَجُل ؛ وهو جمعٌ شاذٌّ ؛ ولم تكن هناك ضرورة لاستخدامه سوى أنه يقصد إلى ذلك قصداً . » . (٤) .

فالعلاَّمة ضيف يرى غرابة لفظ (أميس) ؛ثم يُراجع نفسه ؛ ويذهب إلى لفظ (الرِّجلة) ويتوهم أنها جمع (رَجُل) على غير القياس ؛ فجعل الشاذ عن القياس برُتبة الغريب فى اللفظ أو المعنى ؛ وقد جاء فى اللغة أن الرِّجلة : هى البقلة الحمقاء (٥) .

ولا ريب فى أنها من زلاَّت القلم ؛ وبحار علم الشيخ فوق مثل هذا اللمم ؛ ولا أُريد أن أفتح ملف ما يُعَدُّ غريباً ؛ وما يُعَدُّ شاذاً ؛ ومتى يكون الشاذ غريباً ؛ إلخ ؛ مما ليس ههنا موضع بسطه .

المهم أن شوقيَّاً تنبَّه لشىءٍ من لُغة النَّصِّ التى رأى فيها باحثٌ آخرٌ أنها جاءت خاليةً من الحيل البلاغيَّة ؛ فقال :

« ونُلاحظ الإسكندرىَّ فى هذه المقامة يكتفى بحيلته وحدها ؛ ولا يستعين ببلاغته. » .(٦) .

مما يعنى أن بلاغة المقامات التى تنحصر فى غريب لُغتها وبديع عبارتها ؛ ومواقف شخصيَّاتها قد خلت من الغريب والبديع ؛ وقامت لغة أبى الفتح فى هذه المقامة على الحيلة وحدها ؛ أى جعل بلاغتها فى حيلته للوصول إلى المُنَى بالموقف (مشهد القَرَّاد وهو يُرقِّصُ قرده ؛ ويُضحك من عنده) نظراً لسهولة اللغة عند الباحث ؛ لكنه لم يتنبَّه إلى أن اللغة فى المقامة لم تكن خاليةً من الحيل البلاغيَّة ـ كما سيأتى من بعد فى بيان بعض التشبيهات والمجازات العقليَّة وبعض وجوه البديع ـ ؛ على حين نظر شوقى ضيف إلى مسألة الشاذ والغريب فى النَّص ؛ فلم يحظ بالدليل المُوفَّق .

ـ د/ هادى حسن حمودى :

حاول هادى الوقوف على بعض مكونات منهج بناء المقامة البغداديَّة فى أثناء تحليلها ؛ فوقف على العناصر الآتية :

ـ الراوية ؛ وصفاته ؛ ودوره فى المقامة .

ـ والبطل أبو الفتح الإسكندرىُّ ؛ وصفاته ؛ ودوره فى المقامة .

ـ وموضوع المقامة ؛ وأجزاؤها : عيسى بن هشام يزور بغداد (٧) ... ؛ إلخ .

مايؤخذ عليه :

ـ تعلقه بالجُزئيات .

ـ وإغفاله النظرة الكُليَّة لبناء المقامة .

ـ واكتفاؤه بالجهة الوصفيَّة من غير تعليلٍ أو تفسيرٍ للمواقف .

على أنه لم يحمل منطق النَّصِّ فى بعض تعبيراته عنه ؛ من ذلك قوله : ((عيسى بن هشام يزور بغداد)) .

ومنطق النَّصِّ أنه واحدٌ من أبنائها ؛ آبٍ إليها من البلد الحرام ؛ وليس من منطق النص أنه زائر ؛ ولو كان وقوفه عند مشهد القَرَّاد دون وصوله إلى بيته فى المدينة يُوحى بشيءٍ مما ذهب إليه الباحث الكريم ؛ لكنه قافل إليها ؛ فَخَصَّ المدينة موضع اهتمامه دون تحديد أهله ليدُلَّ على أنه فى هذا التقمُّص للشخصيَّة لا يُشير إلى أحدٍ مُحدَّدٍ ؛ بل يعرض مثالاً لبعض أهل مدينة السلام عاصمة الدنيا يومها .

- د/ عبد المالك مرتاض :

فى بحثه القيِّم عن فنِّ المقامات : وقف د. عبد المالك مرتاض وقفةً علميَّةً جادَّةً على المقامات ؛ واختص المقامة القرديَّة بشىءٍ من بحثه واهتمامه بالجانب الاجتماعىِّ فيها ؛ فقال :

((فأما فى القرديَّة ؛ فقد وجدنا البديع ينقد من طرفٍ خفىٍّ حلقات المشعوذين التى يجتمع حولها الناس فى الأسواق والشوارع ليُضيِّعُوا أوقاتهم عبثاً ؛ فلم يرعوِ منهم حتى شيوخهم أن يجتمعوا فى هذه الحِلَق ليستمعوا إلى ما يقوله المشعوذون والمُحتالون الذين لا يُريدون أن ينالوا الرزق عن طريقٍ ما ؛ وإنما ضَعُفَ همُّهُم ؛ فغدوا يلتمسونه بواسطة ما يحتالون)) . (٨) .

وتناول المرتاض المقامة بتحليلٍ ضافٍ للُغتها من الجهة الاجتماعيَّة ؛ وَخَلُصَ إلى أن المؤلف ساخطٌ على تلك الأحوال الاجتماعيَّة (٩) .

فالمرتاض سلَّطَ الضوء على طبقة المُحتالين ؛ وأغفل طبقة المُترفين ؛ ونظر فى السُّخط ؛ ولم يكشف عن فساد الذِّمم والأخلاق فى جهتى البِنَى الاجتماعيَّة الفوقيَّة والتحتيَّة ؛ وكان مُتعاطفاً فى عرضه مع المُحتالين ؛ ولم يكشف اللثام عن غرض البديع فى فضح الأحوال الاجتماعيَّة الفاسدة بغرض صحوة المسؤولين لعلاجها .

مما تقدَّم :

تبدو المقامات عند بديع الزمان ومثلها عند أبى محمد القاسم بن علىّ بن محمد بن عثمان « ٥١٦هـ » تعملان فى اتجاهٍ واحدٍ ؛ فقد كانت مقامات الحريرىّ (١٠) على نسق مقامات البديع ؛ تقوم على : الرواية عن الحارث بن همَّام ؛ وبطولة أبى زيد السروجىّ ؛ وخطوات منهج البناء الكُلىّ واحدةٌ من تسمية المقامة إلى خواتيمها المتنوعة .

واستعار الزمخشرىُّ « ٥٣٨هـ » فى مقاماته (١١) المنهج العام من مقامات البديع مُستغنياً عن أمرين :

- الأول : الرَّاوية ؛ فليس لديه رُواة ؛ لأنه بنى عمله فى مقاماته على المُناجاة الداخليَّة ؛ فروى عن حياته ونفسه .
- والثانى : أنه جعل سيرته الذاتيَّة موضوعاً للمقامات (١٢) مُستغنياً عن حياة الفُقراء واللُّصوص والمُحتالين والمُترفين ؛ مُعرضاً عنها إلى حياة العُلماء الذين أظهروا الدِّين وقد طلبوه للدُّنيا وللسَّلاطين ؛ فكان مُجدِّداً فى فنِّ المقامات من هاتين الجهتين .

- تسميتها أو عنوانها :

لكُلِّ مقامةٍ من مقامات بديع الزمان اسم اشتقه لها من مكان المقامة الذى جرت به ؛ أو الذى قصد إليه ؛ أو جاء منه ؛ أو نسبه إلى زمن حدوث المقامة من جهة زمن السرد الداخلىّ ؛ أو من جهة موضوعها ؛ أو من جهة شىءٍ مُهمٍّ ذُكِرَ فيها ؛ كالقرد فى مقامته القرديَّة ؛ لا ريب فى أن بديع الزمان كان مُتأثِّراً

على وجهٍ من الوجوه بالقُرآن الكريم ؛ من جهة وضع اسمٍ لكُلِّ مقامةٍ ؛ ولا أظنُّهُ كان يذهب إلى مُعارضة القُرآن ؛ ولا أظُنُّ صنعته المُتكلِّفة يُمكن أن تكون شبيهةً بالفاصلة القُرآنيَّة ؛ ولا جمله القصيرة مُعبَّأة بما تحمله جُمل القُرآن التى لا تأتى على نحوٍ واحدٍ ؛ بل تطول وتقصر بمُقتضى الحال التى يُقدِّرها الحَقُّ - تَبَارَكَ اسْمُهُ - ؛ لكن ما غلب على ظنِّى أنه رأى القُرآن يُسمِّى بعض سوره باسم بعض الحيوان ؛ كالبقرة والفيل ؛ وبعض الحشرات كالنمل والنحل والعنكبوت : لغرض التنبيه على موقع القضيَّة المُحيطة بالحيوان أو الحشرة ؛ وما كانت تسمية المقامة بالمقامة القرديَّة بعيدة من هذا المنهج فى التسمية ؛ من باب تسمية النص ببعضه ؛ أو ما يريد صاحب النَّصِّ صرف الأذهان إليه قبل سواه من عمله إبرازاً لأهميَّته ؛ أو تنبيهاً على حقارته .

كانت العرب لا تُسمِّى نصوصها الإبداعيَّة إلا من جهةٍ نقديَّةٍ ؛ كتسمية بعض القصائد الشعريَّة فى الجاهليَّة بـ « سمط الدهر » (١٣) أو « الفاضحة» (١٤) ؛ أو « البتَّارة » (١٥) ؛ أو « اليتيمة » (١٦) ؛ أو... ؛ إلخ . بَيْدَ أن القُرآن ألَحَّ على إعطاء كُلِّ سُورةٍ من سُوره عُنواناً أو اسماً يُميِّزها من سواها ؛ حرصاً منه على بيان أن لِكُلِّ سورةٍ شخصيَّةً توافق أخواتها من جهةٍ ؛ وتُباينها من جهاتٍ أُخر .

وللقرد فى هذه المقامة موقعٌ سنأتى على ذكره ووظيفته عندما نتناول موضوعها ؛ ونفصل فى دراسة حكايتها تفصيلاً يدرس شخصياتها ؛ ويُوضِّح وظيفة القرد فى هذا النَّص أو المقامة ؛ وهذه الوظيفة تُشيرُ ابتداءً إلى

أن المجتمع المترف مُندهشٌ من تعلُّم قردٍ سلوك الرقص ؛ وهو فى ظنِّهم سلوكٌ إنسانيٌّ ؛ ونلحظ اجتماع الرجال حول القرد وانشغالهم به وبأحواله عن أحوال صاحبه ؛ فعلت رُتبةُ القرد وسلوكه رُتبةَ الأديب أو العالم ؛ ليدلك بهذا التنبيه على خطرٍ يحيط بالأُمَّة عندما تتقدَّم فيها إيقاعات اللهو على الجِدِّ والعمل المنتج من غير أن تعبأ بحال الحيوان أو الإنسان ؛ وقد التقت حالهما (القرد ؛ والقرَّاد) على الكُره والاضطرار .

ـ إسنادها :

سبقت الإشارة إلى أن البديع يُسند مقاماته إلى عيسى بن هشام ؛ وبطولة حكاياته إلى أبى الفتح الإسكندرىُّ .

هذا الجانب الإسنادىُّ يُشيرُ ضمناً إلى اشتباك المقامة من جهة سردها بفُنُونٍ عِدَّة ؛ منها :

ـ فَنُّ الحديث النبوىِّ .

ـ ومنها الخبر التاريخىُّ .

ـ وفَنُّ الحكاية الشعبيَّة .

فهذا التشابك يُوقع المقامة على محُيط مُربَّعٍ دائريٍ ؛ فهى من جهةٍ : أدبُ حكايةٍ صرف ؛ ومن جهةٍ ثانيةٍ : تقتفى القُرآن بالعُنوان ؛ ومن جهةٍ ثالثةٍ : تأخذ شيئاً من سمت الحديث ؛ ومن جهةٍ رابعةٍ : تقتفى التاريخ... ؛ فأين تضع المقامة لو أردت النظر إليها من جهة طبيعتها الفنيَّة : الشكليَّة والسرديَّة؟!!

إذا نظرت إلى الإسناد من جهة الحديث : حضرت إليك قواعد السند

وشروط الضبط والعدالة التى اشترطها المُحَدِّثون لرواية الحديث .

فإذا وجدت الشخصيَّة مجهولة : سقطت روايتها ؛ ولكن ما قيمة الخبر الذى تَحَمَّلَهُ عيسى بن هشام ديانةً؟!! ؛ وماذا يترتَّب على مُتلقِّيه من واجباتٍ شرعيَّةٍ؟!! ؛ وما حاجتك لمعرفة حواسه وسلامتها إذا كان ما يرويه ليس ديناً؟!! ؛ فكأنه يهزأ بالإسناد سِرّاً وخفيةً ؛ ويُظهره للناس بُغية المُحاكاة المُثيرة للابتسام ؛ فإذا كان المُحدِّثون يُسقطون رواية المجهول ؛ فإن بديع الزمان فى الأدب يجُيزها ؛ ويُسند حكاية الحدثِ أو الفعل السرديِّ إلى عيسى بن هشام ؛ ليكف عن نفسه تُهمة الكذب أو شهادة الزُّور ؛ فمن أراد أن يُكَذِّبَ الخبر أو يتحقق من صحة وقوعه فعليه مُساءلة عيسى بن هشام ؛ فإذا لم يجد له سجِلاً فى الأحوال الشخصيَّة ؛ فقد بلع حبَّة الدواء ؛ فصدَّق شيئاً مُحتمل الوقوع ومُحتمل الدُّفوع ؛ وهو بذلك يوقع غامزاً ولامزاً بالرواية الشفويَّة التى لم تكن تثق بالمكتوب ؛ وتثق بالمرويِّ ؛ حتى ما يعيشه الإنسان صار مُفتقراً إلى إسنادٍ ؛ ومُحتاجاً إلى توثيقٍ .

وفى الإسناد شاهدٌ سامعٌ ؛ مما يدعو إلى قبول الخبر ولو كان بعيد الوقوع ؛ فما قولك إذا كان مما يقع لكثيرٍ من أبناء العصر كُلَّ يومٍ من أيَّام حياتهم؟!!

والإسناد إلى معلومٍ : انتقالٌ بسند الحكايات من الإسناد إلى مجهول ؛ مما يزيد الثقة بها ؛ ويخرجها من عُنق الوهم إلى حيِّز المُمكن والمعقول والمُحتمل .

والجانب التاريخىُّ فى الإسناد يعود إلى أن الرواية التى تحكيها المقامة هى واقعة من حياة الناس فى العصر العبَّاسىِّ تفتقر إلى شهودٍ تحكيها على

طريقة المؤرخين فى اتباعهم حركة المُحَدِّثين بإثبات الإسناد ليكون ذلك عوناً لهم على قبول متلقيه على أنه واقعٌ تاريخىٌّ عاشه الناس ؛ لا خيالاً صنعه الأُدباء بأخيلتهم ؛ ولوَّنوه بأقلامهم ؛ وما تشتهيه أنفسهم .

فكأن الجانب التاريخىَّ أوجب عليه الإسناد ؛ أو أن مُضاهاة المؤرخين والمُحَدِّثين كانت شهوة لديه ليجعل عمله يحفظ الصورة الشكليَّة للأخبار المرويَّة حديثاً كانت أو تاريخاً أو أدباً سردياً يرقى فى صدقه وحُجَّته إلى مستوى الدين والتاريخ ؛ على عُمقه الفنىِّ والتعليمىِّ .

إن الإسناد نفسه يجعل المقامة جنساً أدبيَّاً يُقاطع أجناساً أُخرى من فُنُون الأدب القديم ؛ كفنِّ الحديث ؛ وفنِّ الخبر التاريخىِّ ؛ وفنِّ الحكايات المرويَّة القائمة على الأساطير والخُرافات البعيدة والمُستحيلة عقلاً ونقلاً ؛ لكنها لا تُطابق شيئاً من هذا مُطابقةً تامَّةً .

ولا يُدخلها سردها عوالم الفنِّ القصصىِّ إلا بشىءٍ من المجاز ؛ لأن القصص الفنىَّ له مُواصفاتٌ مُتطوِّرةٌ ومُتغيِّرةٌ ؛ وله أجناسٌ كثيرةٌ ؛ ولا يُدخلها ما فيها من حوارٍ فنَّ المسرحيَّة ؛ ولا المشاهد الحيَّة والمُتحرِّكة بِمُدخلةٍ لها فى فنِّ المسرح ؛ ولا تدخل فنَّ الخاطرة ؛ ولو أنها حملت هواجس الأبطال وخواطرهم أحياناً .

إنها جنسٌ أدبىٌّ مُتفرِّدٌ ؛ نبت فى العصر العبَّاسىِّ ؛ ثم عاد فى القرن العشرين على استحياءٍ ؛ وذلك فى طور استلهام حركة إحياء التراث العربىِّ فى عصور القُوَّة ؛ وخير تعريفٍ لها ما قاله الأديب توفيق الحكيم ـ على ما أثبتناه

آنفاً من اعتراضٍ على وصفه بالفنِّ القصصىِّ ـ ؛ وذلك إذ يقول :

((والمقامات أعمالٌ قصصيَّةٌ ؛ قُصِدَ بها سردُ حكايةٍ وتصوير أشخاصٍ ؛ ولكن الإغراق فى الوشى اللفظىِّ ؛ والاحتفال بالوضع اللُّغوىِّ : صرف هَمَّ الكاتب عن :

ـ التعمُّق فى التحليل .

ـ والإضافة فى السَّرد .

ـ والإجادة فى البناء .)) .(١٧) .

وسيكون لنا عودةٌ على بعض مُكوِّنات هذا التعريف لبيان معانيه ؛ وندع رأى الرَّجُل له ؛ ونُثبت ما يتبيَّن لنا بالبحث فى القراءة من تهيئةٍ مُسبقةٍ .

ـ زمانها ومكانها :

لَعَلَّ إعادة القول فى وظائف الزَّمان والمكان فى الفنِّ الأدبىِّ عموماً ؛ والفُنُون السرديَّة خصوصاً : يكون نافعاً ؛ من جهة توكيد المعانى الكُلِّيَّة لتُؤلِّف مدخلاً للمعانى الجُزئيَّة ؛ ذلك أن الأعمال السرديَّة ؛ كالقصة ؛ والرواية ؛ والمسرحيَّة ؛ والصورة القصصيَّة ؛ والأُقصوصة ؛ والتمثيليَّة ؛ والحكايات الخُرافيَّة أو الأُسطوريَّة ؛ وقصص الخيال العلمىِّ : كُلُّ فنٍّ من هذه الفُنُون لا يخلو من حدثٍ قصصىٍّ أو فعلٍ قصصىٍّ يُزلزل الواقع والمعهود والمعقول للناس ؛ ولكثرة ما يأتى أهل القص أو السرد بما يجوز الواقع والمعقول : تجد بعض الناس إذا أراد أن يطعن فى كلام أحد المُتكلِّمين قال

لك : فلان يقص عليك ؛ أى لا تحمل كلامه على وجه الجِدِّ ولا على وجه الحقيقة ؛ ومثل هذا الحدث يُواجهه بعض أبناء البادية بقولهم : فلانٌ يسرد ؛ أى يقص ويكذب ؛ وهو (سرهود) : أى كذوب .

وابتغاء أن يُبعد أهل الفُنُون السرديَّة أو القصصيَّة صفة الكذب عن أعمالهم الإبداعيَّة : اتخذوا وسائل فنيَّة للقص ؛ منها الإسناد ؛ ومنها ربط الفعل القصصىِّ وحوادثه بزمانٍ ومكانٍ ؛ ومُجرَّد ربطهما بالزمان والمكان تتهيأ قاعدة نفسيَّة لقبول العمل القصصىِّ ؛ أو بالقياس إلى الإسناد ؛ وانتسابه إلى زمانٍ معلومٍ ومكانٍ معلومٍ ؛ وشهادة الراوى على الحدث والفعل القصصىِّ ؛ واختيار أسماء مُحدَّدة لأُناسٍ يعيشون فى الحىِّ الذى يحيا فيه المُؤلِّف ؛ أو بتخيُّل عيشهم فى بيئةٍ أُخرى من بيئات المُجتمع المُحيط به ؛ وذلك كله للتوثيق وتصديق ما يقترن بهذه اللوازم .

فالزمان والمكان يُقرِّبان الفعل من إمكانيَّة الوقوع للحدث أو الموضوع أو المشهد القصصىِّ ؛ وبهما يخطو المُؤلِّف خُطوةً تربط العمل الافتراضىَّ بالوجود الواقعىِّ ؛ لأنه لا وجود حسىَّ من غير زمانٍ ومكانٍ يُحيطان بالموجود ؛ فإذا خرج الحدث أو الفعل أو الشخصيَّة من حيِّز الزمان والمكان : دخل فى أبواب الغيب والمجهول ؛ واضطرب المُمكن بالخيال والوهم ؛ والحق بالباطل ؛ وتبادرت الظُّنُون الداعية لإنكار المادة المسرودة على الجمهور.

فالزمان والمكان من شروط الوجود المعقول عند البشر ؛ مما يُقرِّب عالم القصِّ الافتراضيِّ من عالم البشر المحدود بحُدُود الزمان والمكان والحركة والنسبيَّة.

وللزمان والمكان وظيفة الارتباط بتجارب الشخصيَّة المُبدعة للعمل القصصيِّ (المُؤلِّف) ؛ وبارتباط الزمان والمكان بتجاربه فى الحياة بمواقفٍ مُرَّةٍ أو حُلوةٍ تُؤلِّفُ خَزَّاناً مُلهِما لإبداع أىِّ فنٍّ من الفُنُون السرديَّة المذكورة سابقاً أو غيرها ؛ فإن هذا الارتباط يُحرِّض قوى الإبداع النفسيَّة والعقليَّة على إبداع عملٍ جديدٍ ؛ والوظيفة نفسها للزمان والمكان تعمل على تقريب شخصيَّات القصِّ التى تجرى فى عالم السَّرْدِ القصصيِّ مُحاكيةً البشر فى عالمنا الواقعىِّ على أكثر من وجهٍ من الوجوه من الواقع ؛ فهى أيضاً تتألم أو تفرح أو تُفكِّر أو تثور أو تهدأ بعامل الزمان أو المكان أيهما أشد سُلطاناً على نفسه أو مُحرِّضات سلوكه ومُقوِّمات شخصيَّته الاعتباريَّة فى بنية المسرود القصصىِّ .

مثل هذه الوظيفة قائمٌ فى حال المتلقى ؛ مما يجعل الزمان والمكان مما يشد القاص إلى شخصياته ؛ ويشدهما معاً إلى مُتلقِّى النَّصِّ باختلاف درجات الاستجابة ومراتب الوعى بها ؛ لكنها حقيقةٌ قائمةٌ فى الوعى الظاهر أو الباطن لكُلِّ بُعْدٍ إنسانىٍّ يُحيط بالنَّصِّ أو يدخل فيه .

ومن وظائف الزمان والمكان أن كُلاً منهما داخلٌ فى التشكيل اللغوىِّ للنصِّ

القصصىّ ؛ ليعطيه لون الحياة بطبيعتها الحسيَّة والنفسيَّة والافتراضيَّة ضمن رُؤى المُؤلِّف الكُليَّة الضابطة ؛ ورُؤى الشخصيَّة القصصيَّة ومواقعها من بقيَّة عناصر القصّ الأُخرى الداخلة فى تشكيل البُنيان اللغوىّ وتنوعه كتنوع الحياة نفسها .

ومن وظائف الزمان والمكان : أنهما يدخلان فى التشكيل الفنىّ والجمالىّ المُعِين على رسم الصور أو المشاهد الحيَّة التى تُضفى على النَّصّ واقعيته الحسيَّة أو ظلاله النفسيَّة والإيحائيَّة عقلاً ونفساً وشعوراً جماليَّاً بالحُسْنِ أو القُبح .

ذلك كله مُرتبطٌ بالخبرة الحسيَّة السابقة لِمُبدع النَّصّ أو شخصيَّات بنائه ؛ أو مُتلقيه بالمكان والزمان والقرائن المُصاحبة التى تُثير الشعور بالتشكيل الجمالىّ للنَّص ؛ بحسب القُدرة على التمثُّل عند كُلّ فريقٍ من فرقاء العمليَّة الجماليَّة إبداعاً ونصَّاً وتلقياً .

بعد هذه المُقدِّمة العامة التى تُوضِّح بعضاً من جوانب الوظائف السرديَّة للزمان والمكان فى العمل السردىّ ؛ نعود إلى فكرة الزمان والمكان فى المقامة القرديَّة ؛ وقد جاءا مُقترنين معاً من غير انفصال ؛ كشأنهما فى الحياة التى يحياها الإنسان ؛ فليس ثمة مكان من غير زمانٍ يُحيط به ويحتويه ؛ ولا زمان من غير مكانٍ يُعين على إدراك البشر لمعنى حركة الحياة بحركة الزمان .

ودع عنك قولهم : إن فكرة الزمان تنشأ من دوران الأرض حول نفسها ؛ وأنه مفهومٌ مُتولِّدٌ من الحركة نفسها ؛ وخُذ بنا إلى بديع الزمان ليُحدِّثنا عن

عالمه القصصىّ الذى لم يدعه مُعلّقاً بأرضٍ مجهولةٍ ؛ ولا بأزمانٍ بعيدةٍ ؛ بل جعل ذلك مرتبطاً بشخصيته السرديّة والإسناديّة ؛ أعنى شخصية عيسى بن هشام ؛ وذلك إذ يقول :

« حدثنا عيسى بن هشام ؛ قال :

بينما أنا بمدينة السّلام ؛ قافلاً من البلد الحرام » .

لإدراك الوقتِ لابُدَّ من إنسان ؛ والإنسان هُنا قائمٌ فى عالم المقامة الافتراضىّ ؛ وزمنه غير الزمن الذى يسرد فيه عيسى بن هشام نفسه الحادثة على أصحابه ؛ ذلك أنه يستعيدها من زمنٍ مضى ؛ لم يُحدّدهُ بيومٍ أو شهرٍ أو سنةٍ ؛ بل جعله مُرتبطاً بشخصيّته ؛ وبأحوالها ؛ وبسلوكها ؛ فهو زمنٌ نسبىٌّ مُتعدّد الألوان ؛ لأنه مشدودٌ للواقع الخارجىّ للشخصيّة ؛ ومُرتبطٌ بحالها النفسيّة ؛ ومشدودٌ إلى ضروبٍ مُختلفةٍ للسُّلوك ؛ وهو زمنٌ مُتخلّصٌ من فكرة التاريخ الدقيق للحدث النفسىّ أو الواقعىّ ؛ لكنه مُرتبطٌ بتاريخ الأحوال والحوادث ومُوجبات الرضى عن النفس - كما سنرى - .

لعل المُؤلّف جعل شخصيّته عربيّةً لا تعبأ بالتدقيق فى ساعات الزمن دقيقةً أو ساعةً أو يوماً أو شهراً أو سنةً ؛ بل إن الزمن يأخذ قيمته من وقعه على شخصيّة الإنسان وارتباطه بتجاربه وما تتركه من أثرٍ فيها .

ولعله كان يرى أن زمنه زمنٌ فنىٌّ خالدٌ ؛ وليس زمناً تاريخيّاً زائلاً ؛ وهو زمنٌ إنسانىٌّ مُرتبطٌ بشُعُورِ الشخصيّة النُّموذجيّة للإنسان الذى تناوله فى عالمه القصصىّ الافتراضىّ ؛ والمُفترض أنها شخصيّةٌ تُوافق الشخصيّات فى العالم

الواقعىِّ من جهة التسمية وصور التجربة ؛ ولكنها خالدةٌ بعدم ارتباطها بزمانٍ يعرضها للكبر والشيخوخة والهرم والموت المحُقَّق ؛ وبانخلاع الشخصيَّة من المعنى التاريخىِّ للزمن تتجرَّد وتتخلَّص لمفهوم الزمن الفنىِّ الذى يجعل الشخصيَّة قابلةً للخلود على ارتباطها بعنصر من عناصر الفناء ؛ وهو الزمن المفتوح من غير حدودٍ أو قيودٍ سوى الحوادث والوقائع .

ولا شكَّ عندى : أن لبديع الزمان شيئاً من تأمُّل الحياة العربيَّة من جهة تكوينه للشخصيَّة ؛ وتأمُّلاً آخر فى طريقة القُرآن وهو يبنى الشخصيَّات الخالدة التى أعتقها القُرآن من قيود الزمان ؛ وإلى حَدٍّ ما من قيود المكان ؛ لتكون موضع تفكُّرٍ واعتبارٍ على مدى الأيَّام وتغيُّر المكان ؛ خارجة من مفهوم النسبيَّة الذى يُحطِّمُ خلودها وينفى استمرارها مُنطلقاً بها إلى شواطئ الخلود ؛ ويُطلق قيودها فيُخرجها من الخصوص إلى العموم ؛ ومن الفناء إلى البناء.

فهل كان الرَّجُل يُدرك سِرَّ خلود الشخصيَّات الفنيَّة والنماذج البشريَّة التى يرسمها بكلماته ؛ فجاءت شخصية عيسى بن هشام تحدثنا عن الزمن الذى أحاط بحالها عندما كان قافلاً من البلد الحرام - أى عائداً مع قافلةٍ كانت فى البلد الحرام - ؟!!!

لعلَّك تظن أنه أومأ إلى الزمن ؛ أو أنه زمن قفول الحجيج ؛ وليس فى الكلام ما يدلُّ أنها قافلة للحاج أو للعُمَّار ؛ فضاع علينا تقريب الزمن ؛ ذلك أن الشخصية لم يكن الزمن موضع اهتمامها ؛ بل كان هَمُّهَا شعوراً بالفرح

لقضاء واجبٍ شرعيٍّ جعله يتخفّف من آثامه ويشعر بالفرح والانطلاق فى الحياة ؛ هو موضع اهتمامها ؛ فكأنما وُلِدَ من جديدٍ (١٨) ؛ فانجذب إلى الحياة يتطلّعُ إليها ويتأمّل ضروبها ودروبها فى موازين الناس وسلوكهم ؛ ليعيد التجربة ؛ وينغمس فيها زماناً مُقترناً بحال الفرح ؛ ومكاناً بالانتقال من مكة المكرّمة دار العبادة والخشوع والمُحاسبة والتحسُّر والتعرّى أمام الخالق ؛ والمكاشفة فى محاسبة النفس من آثامها ؛ حتى تكاد تسمع بعض القاطنين فيها يقول فى هؤلاء العُمّار عابثاً : ما قصدوا مكة إلا لغُفران الذنوب .

فهناك حال التطهُّر التى تُعيد الإنسان حُرّاً من ذنوبه كيوم ولدته أُمُّه ؛ فكأنه خُلِقَ من جديدٍ ؛ فانتقل من مكة مُمتلئاً بالفرح والزهو والتطلع إلى الحياة والرغبة فى استطلاعها من جديدٍ بخفّةٍ من غير تثاقُلٍ يعوق الحركة - كالشعور بالإثم - ؛ وانتقل من مكة عاصمة الرُّوح والضعف الإنسانىّ ؛ إلى بغداد عاصمة السياسة والقوة والسطوة والترف والزينة : بومضة عينٍ من غير أن يُحدثنا عمّا جرى له فى الطريق ؛ فقد طوت أشواقه زمان الطريق ومشاقه ومكانه ؛ تعبيراً عن شِدَّة الشوق لدار السلام وغلبة الحال على ما سواها ؛ فتغيَّر المكان من عاصمة الديانة والشعور بالمحاسبة والخوف من الله والرهبة من الحساب والطمع بالعفو والمغفرة والشعور بضيافة الرحمن وكرمه ؛ وأدب الضيف ؛ وواجباته فى ذلك المكان الذى يقع فى القلب المؤمن موقعاً يدعو للتوقُّف والتفكُّر والمهابة والضعف ؛ على خلاف بغداد : دولة السلطان الأرضىّ ؛ والعيش بغير حسابٍ ؛ والانغماس باللهو والغفلة والترف والزينة .

هذه الحركة سمة للزمان ؛ وقد التبس بالمكان ؛ فلبس كُلٌّ منهما الآخر ؛ كما التقت المواقيت الزمانيَّة بأماكنها فى شعائر الحج والعُمرة ؛ فقد انتقل عيسى ابن هشام من زيارة البيت الحرام إلى زمن العيش فى بغداد ؛ وَقُبَيْلَ الوصول إلى بيته : وجد أنه لا يشعر بانقضاء زمن زيارة البلد الحرام ؛ لأنه مازال يتبختر فى مشيته مزهُوّاً بتخففه من الذنوب ؛ بل لقد خامره شعوره بالولادة من جديد ؛ على أنه فى حُريته ونشاطه وخروجه من الشعور بالقيود التى تَشُلُّ حركة الإنسان بأنه صار كبقلةٍ طريَّةٍ بريئةٍ هانئةٍ بحياتها على ضفاف دجلة ؛ تَعُبُّ من الماء غذاءها ؛ وتحركها النسائم العليلة ؛ فتهتز لها فَرِحَةً بالحياة مزهوةً بها مُقبلةً عليها .

فهو مزهوٌّ ومُعتزٌّ ؛ يرقص عالمه الداخلىُّ ؛ يُعزِّزُ فرحه بالوصول إلى بغداد عاصمة القوة وسيِّدة العالم فى زمنها ؛ سالماً آمناً مُطمئناً مُستقبلاً الحياة بخفةٍ ووثبةٍ جديدةٍ .

ما كُنَّا ندرى كيف ستكون صورتها ؛ لولا ما بَيَّنَهُ لنا من أن المدينة تصبغ حياة أبنائها بصبغتها نفسها ؛ فمكَّة صبغته بلونِ ظلٍّ يُلاحقه ويعيش معه طول الطريق ؛ إلى أن بدأ زمن المدينة المُترفة ؛ فحركة زمانه فى مكة المدينة التى طواها حِسُّهُ دون بقايا من بقاياها ما تزال فى شعوره ؛ وَعَبَّرَ عنه بالفرح والخفة والانطلاق ؛ لكن زمن حياته فى بغداد لحظة الوصول هى موضوع السرد على خطوات وحركات ومشاهد تبصرك معه أن المكان نفسه المدينة (دار السلام) قد تغيَّرت أيضاً .

فالتغيُّر (الحركة والتحول) ليس سمة الزمن وحده عنده فانقضى بانقضاء الزيارة للبيت الحرام ؛ بل امتد الزمان إلى بغداد امتداداً شعورياً نفسيّاً ؛ لأن نفسيَّة عيسى بن هشام تحرَّكت مُتأثرةً بالبيت الحرام ؛ واستطالت وتشوَّقت وتطلَّعت لحياةٍ جديدةٍ ؛ وبغداد نفسها - وهى المكان - تغيَّرت بغياب عيسى ابن هشام ؛ فماذا تغيَّرَ فيها ؟!! ؛ أو ماذا بقىَ منها ؟!! ؛ ذلك ما يُحدِّثنا عنه عيسى بن هشام بقوله :

« أتأملُ تلك الطرائفَ ؛ وأتقصَّى تلك الزخارفَ » .

فدار السلام تغيَّرت حالها ؛ فلم تَعُد كما تركها عيسى بن هشام يوم ذهب إلى البلد الحرام ؛ فقد تغيَّرت بيوتها من خارجها ؛ واستحدثت المدينة مُستحدثات جديدة ؛ تناولت زخرفة واجهات البيوت ونقشها ؛ فلبست ثوباً جديداً شغل بصر عيسى بن هشام الراوى والشاهد والمُشارك فى بُنيان العالم السردىُّ للمقامة ؛ فكأنه يدخل المدينة لأول مرَّةٍ ؛ يدلُّك على ذلك لفظ التأمُّل الذى يعنى إعمال الفكر والعقل والبصر للوصول إلى استجلاء معالم الجِدَّةِ فى بناء المدينة وأبنيتها ؛ ولم تكتف المدينة بتغيير جلدها الخارجىّ أو واجهات البيوت ؛ بل أوغلت فى التعبير عن ترفها وزهوها بالمُبالغة فى فَنِّ الزخرفة التى شغلت بصر عيسى بن هشام وقلبه وعقله ؛ وذهب يستقصى آفاقها ليصل ببصره إلى أبعادها العميقة وفلسفتها العالقة بها ؛ فهى مَحطَّةُ إدهاشٍ للشخصيَّة ؛ تكشف عن حركة المكان ببعض معانى الحركة وبعض معانى المكان والبيئة بِمُدَّةٍ قصيرةٍ .

يتنبَّه بديع الزمان على لسان شخصيَّته إلى أمرٍ مُهمٍّ ؛ وهو انعدام التوازن فى البناء على مُستوى الفرد والمدينة .

أما الفرد ؛ فقد حاول أن يُصلحه عالمه الخفىُّ الداخلىُّ ؛ لكنه أغفل عالمه السلوكىَّ الخارجىَّ ؛ فمازالت روح القطيع تحكم سلوكه وتُوجِّه حركته فى المدينة ؛ فكأنه لم يغزُ ولم يعد ؛ وكذلك المدينة غيَّرت ظاهرها ولم تُغيِّر باطنها ؛ فظلت مُترفةً تعنى بالشكل وتُهمل المضمون ؛ ومن هنا نشأت الخلخلة الاجتماعيَّة بانكسار نظريَّة الأطوار المُتوازنة ؛ فقامت رَدَّةُ الفعل على مُتع المُترفين بقوَّةٍ حركة المتصوفين الذين انصرفوا لبناء باطنهم على حساب عالمهم الحسىِّ الخارجىِّ .

فإذا كان تعيين الزمن غير مُهِمٍّ عند الشخصية ؛ فإن تحديد المكان بدار السلام كان ذا غايةٍ مُحدَّدةٍ للتعبير عن الفرق بينها وبين البلد الحرام من جهة :

- المدينة .
- وغايتها .
- ورسالتها .
- وأثر ذلك فى الناس حياةً وشعوراً .

وكان فى تحديد الأماكن : « البلد الحرام ؛ ودار السلام » مجال للتعيين المُساعد على شَدِّ السرد من عالم الافتراض إلى حيِّزِ الواقع ومُحيطه ؛ ليكون القبول على أشُدِّه ؛ والانتقال من عالم التخيُّل القصصىِّ إلى عالم المُمكن والمُتحقِّق فى حياة تلك المدينة يومئذٍ .

فالمدينة (دار السلام ـ أو بغداد ـ) هى المكان ؛ لكنها تشعر بالحيويَّة والتجدُّد والزينة والتخفُّف من صور الماضى والانتقال إلى حالٍ توافق الحاضر الجديد ؛ مما يعنى أن النقلة كانت شاملةً ؛ فهى نقلةٌ فى الزمانِ وأُخرى فى المكانِ وثالثة فى حال عيسى بن هشام فى سعيه بين البلد الحرام ومدينة دار السلام ؛ وكذلك المدينة الدنيويَّة (دار السلام) : تغيَّرت حالها العُمرانيَّة وسعت نحو الكمال الجمالىِّ ؛ مما يعكس تغيُّراً فى أذواق أهلها ؛ وترقيّاً فى الذائقة الجماليَّة ومُبالغة فى ذلك الأمر ؛ مما يُعطى المدينة شعوراً بالقوة والعظمة والفرح والانطلاق بالناس إلى أحوال المُترفين اللاهثين وراء الفرح والتراخى واللعب والزهو بكُلِّ ما يجرى .

إنها مدينةٌ مُنفلتةٌ من شواغل الفقر والحُزن والشعور بالخوف من المستقبل ؛ كأنها أخذت من اسمها بعضاً من معانى العيش فيها ؛ فهى كالجنَّة للناس ؛ فيها ما تشتهى أنفسهم ولهم فيها ما يَدَّعُون ؛ ليس فيها حُدُودٌ للمُباح ؛ ولا قُيُودٌ تحجز عن الممنوع ؛ ولا يُشغل أهلوها بشىءٍ مما يشغل بال الناس فى المُدُن الأُخرى ؛ إنها دار الشهوات والملذَّات ؛ مثلها فى ذلك الانطلاق كمثل عيسى بن هشام وقد رمى أثقاله بزيارة البلد الحرام ؛ مما يَدُلُّ على أن شعور الشخصيَّة بالفرح جعلها تُلوِّن الزمان بلونها ؛ وترسم أبعاد المكان وامتداده بما لديها من الشعور بالحيويَّة والتبختُر والجمال والقُوَّة والسعادة بكُلِّ ما يُفرح النفس والقلب ؛ فكان المكان والزمان معروضين لنا وفق رؤية الشخصية التى تقوم بالسرد القصصىِّ ؛ وتُشارك فى بناء عوالم المقامة ؛ وتنسج حياتها على

نحوٍ مُتجانسٍ ومُنسجمٍ من جميع الجهات؛ مما يُمهِّد السبيل للحديث عن أحوال الناس بعد معرفة أحوال العُمران؛ وموقع هذا القافل من البلد الحرام في المدينة وأهلها.

- الشخصيَّات في المقامة:

لا تجد فُرصةً تنفك فيها الشخصيَّات عن الزمان والمكان وموقعهم في عين عيسى بن هشام ونفسه وشعوره ورؤيته؛ وإظهار سطوة عقليَّة القطيع في الحياة الاجتماعيَّة؛ على مُحافظة كُلِّ إنسانٍ على سمته وطابعه الشخصيِّ غير المُنفصل من الطابع العام للمدينة وطابعها الحضاريِّ وحالها العامة؛ فلم يشأ أن يقول لنا بعبارةٍ مُوجزةٍ: إن أهل هذه المدينة يعيشون خالين من هموم المُدُن الأُخرى؛ فهم لا يجدون ما يشغلون أنفسهم به سوى اللهو والعبث ومُشاهدة المشاهد المُضحكة على تفاهة ما يرونه؛ فكأنهم بسلواهم عن نازعات الدنيا يعيشون عالم الجنَّة (دار السلام) في هذه الفانية.

المُهمُّ أن الفراغ والترف والشعور بالقوة الطاغية: جعلت همومهم تنوس وتتضاءل إلى حَدِّ الانشغال بقَرَّادٍ يُرقص قرده ويُضحك من عنده؛ ولو تساءلت عن موضع عيسى بن هشام القادم من البلد الحرام ماذا فعل؟؛ لوجدته يُخبرك أن الفضول والحرص الذي ساقهم إلى ما هُم فيه؛ ساقه أيضاً؛ فهو واحدٌ منهم؛ ولم تترك مسألة الزيارة إلى البيت الحرام أثراً يدفع شيئاً من سطوة الحياة المدنيَّةِ وقوة غريزة القطيع في سعيه وسلوكه؛ فجاء يرتع حيث يرتعون؛ ويشغل نفسه بما شغلوا أنفسهم به وله.

الشخصيَّات فى دار السلام لها ثلاثة نماذج إنسانيَّة :

- الأول : يُشير إليه بديع الزمان بعيسى بن هشام ؛ ويجعله رمزاً للشخصيَّة التى فهمت الدِّين فهماً رُوحيَّاً يقوم على غسل أوحال الترف وانحراف السُّلوك الإنسانىِّ بالزيارة والتبرُّك وسيل الثقة بغُفران الذنوب من غير إصرارٍ على ترك طريق الأمس ؛ أو الاحتباس عن السير بمسيرة قطيع اللهو والغرائز ؛ ولا التفرُّد فى السُّلوك الحىِّ بترك عبث اللاهين ؛ فتجده يُنكر رقص الأعرج وطوق الكلب المُحرج ؛ ولا يكف عن المُشاركة بما يزعم أنه من تفاهة الأمر وضحالته ؛ فلم تمنعه زيارته التى انقضت عمليَّاً بتمامها عن العودة إلى طريق الغرائز ؛ والانغماس بمُستنقع التفسُّخ الحضارىِّ ؛ فهو مُستعِدٌّ للعودة مَرَّةً ثانيةً ليستحم بماء المغفرة (زمزم) .

إن السُّلوك فى حِسِّ المُؤلِّف : يُؤلِّف قاعدة الفصل الحَقِّ بين رُؤى الناس وواقع حالهم ؛ فإذا ادَّعَى أحدٌ الدِّيانة والحرص على الزمنِ والبُعد من اللهو ؛ فلا ينبغى أن تُصدِّقه إلا إذا وجدته يربط القول بالعمل ؛ وهذه آفة الدِّين ؛ سجَّلها القُرآن وَنَبَّهَ المُؤمنين من كُلِّ دينٍ عليها ؛ فقال :

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لا تَفْعَلُونَ ؟!! ۞ كَبُرَ مَقْتَاً عِنْدَ اللَّهِ أَنْ تَقُولُوا مَا لا تَفْعَلُونَ !! ۞ ﴾ (١٩) ؛ واحترس سيِّدُنا علىُّ بن أبى طالب مما أصاب ذلك العابد الذى لم يُنكر على الحاضرين تبذير الوقت وتدمير الحياة وضياع بضاعة الله هدراً ؛ بل أنكر إنكاراً ضعيفاً خفيَّاً ؛ لكنه رَضِىَ بصنيعهم وشارك فى سهامهم ؛ ولو أنه فى النهاية انتهى إلى التوبيخ لمن جمع الناس ؛

فقال أبو الحسن فى ذلك :

« الرَّاضِى بِفِعْلِ قَوْمٍ ؛ كَالدَّاخِلِ فِيهِ مَعَهُم ؛ وَعَلَى كُلِّ دَاخِلٍ فِى بَاطِلٍ إِثْمَان : إِثْمُ العَمَلِ بِهِ ؛ وَإِثْمُ الرَّاضِى بِهِ » . (٢٠) .

فقدَّم العمل وجعله دليل القلب الصادق ؛ ذلك أن الإنسان قد يقول بلسانه ما ليس فى قلبه لكنه يعمل ما فى قلبه ولو لم يجرِ له ذكرٌ على لسانه .

فالنموذج الإنسانىُّ المُتديِّن تغيَّرت صورته العمليَّة فى العصر العباسىِّ ؛ وافترق قوله وعمله ؛ ولسانه وقلبه ؛ وانتهى فى المدينة إلى حياة القطيع ؛ مُتعلِّقاً بالدِّيانة لساناً ؛ مُنقطعاً عن حقيقتها قلباً وسلوكاً ؛ مُخادعاً نفسه بظواهر الأمر من غير النظر فى حقائقه وعواقبه .

ـ والنموذج الثانى : عُمُومُ المُترفين من أهل المدينة ؛ المُتنعِّمين بنعمها ؛ والآكلين من خيرها ؛ والمُتمتِّعين بكُلِّ ما فيها أو يأوى إليها من خيراتٍ ؛ وهُم الذين يبحثون عن التجديد فى المظاهر ؛ كالملابس والموضة والثياب ؛ وواجهات البيوت والأبنية وما تحتاج الظواهر الخارجية ؛ إنهم يحُبُّون البهرجة ومظاهر العظمة والتلبُّس بلبسها ؛ ولا يجدون شعوراً بالخوف من المستقبل أو الفقر أو الضعف ؛ فهم ملكوا من الشعور بالقوة على التدمير إلى حَدٍّ أنهم صاروا يُدمِّرُون أثمن ما فى الحياة ؛ ألا وهو الوقت الذى يعيشونه بتوافه الأمور ؛ وكل أمرٍ يتصدون له إنما يكون بُغية المُضاهاة ؛ حتى العلماء طلبوه للذكر والصيت وللتقرُّب من ذوى السُّلطان ـ كما تكشف عن ذلك مقامات الزمخشرىِّ (٢١) رَحِمَهُ الله ـ .

ـ والنموذج الثالث : للأشقياء في هذه المدينة ممن يبحثون عن الحيلة للوصول إلى رزقهم وَسُبُلِ عيشهم من ذوى البطالة المُقنَّعة بقناعٍ من وهم العمل ؛ وهى لا تُنتج شيئاً ؛ بل تستر كرامتها بما يُوهم أنها تعمل عملاً نافعاً ؛ وقد أشار إلى هذا النموذج بشخصية أبى الفتح الإسكندريّ : الذى هجر العلم والأدب بعد أن صارا لا يُسمنان ولا يُغنيان من جُوعٍ ؛ وصارت التقدمة للاهتمامات التافهة والأعمال غير المُنتجة ؛ مما يُهدِّد كيان المجتمع بالانهيار والسُّقوط ؛ لأن عظمته جوفاء ؛ واهتمامات أهله من نمط الغثاء .

وعبقريَّة بديع الزَّمان : أنه جمع لك النماذج البشريَّة الفاعلة فى الحياة العباسيَّة فى ساحةٍ من ساحات المدينة بمشهدٍ واحدٍ ؛ وأعطاك مؤشرات الحركة الحضاريَّة والاقتصاديَّة والاجتماعيَّة لكُلِّ أبنائها الفاعلين ؛ فالرجال ـ وهُم بُناة المُجتمع وحُماته فى تلك الأزمان ـ كانوا فى الساحة لاهين عابثين ؛ ولا شَكَّ أن الأطفال والنساء كانوا فى بيوتهم أو شُرفاتها يُنغضون بأعناقهم إلى مشهد اللهو والعبث ؛ ويُطلقون صيحات الضحك ؛ وتلتوى أعناقهم من الطرب أيضاً ؛ لأنهم أكثر استجابةً للطرب واللهو من الرجال فى ظروف الحياة المُتوازنة ؛ فكيف إذا اختلت شروط التوازن فى البِنَى الحضاريَّة للمُجتمع ؛ فلابُدَّ من عموم البلوى ـ كما يقال ـ ؛ فالصلاح فى المُدُن قليلٌ ـ بصورةٍ مُدهشةٍ ـ كما عرضه بديع الزمان ؛ وهو يرسم شخصيات الخير فيها مُتأثراً بعُمق الرؤية القُرآنية التى تجعل رَجُلاً واحداً يتصف بالحكمة والوعى

من أهلها ؛ ويأتى دائماً من أقصى المدينة يسعى (٢٢) ؛ مما يجعله على قُرْبٍ من الحياة الوسطى بين المدينة والبادية ؛ وهو إلى المدينة أقرب ؛ ولو كان من سُكَّانها فإنه لم ينخلع من ثوبه القروىِّ أو الريفىِّ .

وجعل بديع الزمان الفقر سبباً فى توازنه النسبىِّ ؛ ولم يترك ذلك للبيئة ؛ فكأنه يربط فضائل الحياة بالغنى والفقر ؛ أى بالحياة الاقتصادية ؛ وكأنه يُؤَكِّدُ حقيقة نهاية الدورة الحضارية التى تبدأ قويَّةً بثوب البداوة ؛ وتنتهى عصبيَّتها فى المُدُن ؛ فتتلاشى الحضارة وتنتقل إلى أُمَّةٍ أُخرى تبدأ بها حركتها ونشاطها من جديدٍ ؛ إلى أن تُصاب بآفة الدورة الحضارية ؛ وهكذا ـ على نحو ما أثبت ذلك التوحيدىُّ (٢٣) ؛ وابن خلدون (٢٤) من بعده ـ .

ومن شخصيَّات المدينة غير البشرية : القرد والكلب المحرَّج ؛ وقد كشف عيسى ابن هشام بذكرهما عن موقع الحيوان عند المُترفين ؛ ذلك أن القرد كان موضع مُتعةٍ وتلذُّذٍ عند المُترفين من غير أن يرعوا حاله ولا يلحظوا عنصر إكراه الحيوان بإخراجه على نمط حياته وسلوكه المألوف ؛ فقد جعلوه موضوعاً للفُرجة واللهو ؛ بغضِّ النظر عن واجب الرِّفق به ؛ لكن الكلب قد كانوا يُطوِّقُونه بالزُّمُرُّد واليواقيت والذهب والفضة ـ كُلٌّ على حسب حاله وذوقه ـ ؛ مما يُبيِّن أن المال صار زينةً للكلاب ؛ وممنوعاً على العُلماء أو الأُدباء من أمثال أبى الفتح !! ؛ فَوُضِعَت الأمور فى غير مواضعها ؛ وخرجت عن سَنَنِهَا المُستقيم ؛ مما يُنذر بسقوط الحضارة ؛ لتقدُّم الشهوات على الواجبات ؛ والحيوان على الإنسان .

هذا إذا حملتَ مشهد القرد على أنه حقيقةٌ طبيعيَّةٌ ومقولةٌ عُرفيَّةٌ ؛ بَيْدَ أن البدعة الأدبيَّة ربما كانت افتراضيَّةً مجازيَّةً ؛ فيكون القرد مضروباً مثلُه على جهةٍ رمزيَّةٍ ؛ يقول مؤداها :

« وَاسْجُد لِقِرْدِ السَّوْءِ فِى زَمَانِهِ   وَدَارِهِ مَادُمْتَ فِى سُلْطَانِهِ

وقالوا : أزنى من قردٍ ؛ وأحكى من قردٍ ؛ لأنه يحكى الإنسان فى أفعاله سوى المنطق .

وقالوا : أقبح من قردٍ ؛ وأولع من قردٍ . » . (٢٥) .

فالقرد رمزٌ للقول المشهور : « النَّاسُ عَلَى دِينِ مُلُوكِهِم » : من جهة خضوعهم للهو والشهوات ؛ والمحُاكاة خوفاً من سطوة السُّلطان ؛ وطبعاً من طباع المغلوبين ؛ والفسق والفُحش صار فى السَّاحة يستمع به الناس جهاراً نهاراً ؛ لا فرق فى ظاهر الصورة بين من يُنكر بقلبه ويُظهر الطاعة بغُلبه ؛ ولا من يُقبل عليها طائعاً ؛ فغلب عنصر القهر : قهر السُّلطان ؛ وقهر الفطرة ـ أو الغريزة ـ .

ـ موضوع المقامة :

تناولت المقامة الوجهين : الظاهر والباطن للمدينة ؛ فالوجه الظاهر ـ وهو الغالب ؛ وليس الأغلب عليها ـ يُظهر أن للمدينة القوية مُشكلةً مُهمَّةً ؛ هى مُشكلة : الفراغ فى الوقت ؛ وانعدام الحاجة المُلِحَّة للعمل ؛ وطريقة إزجاء أوقات الفراغ فى مدينةٍ تأوى إليها خراج المُدُن الأُخرى ؛ وفضل أموالها ؛ وخير أبنائها وبناتها ؛ كُلُّ ذلك يتقاطر إلى العاصمة دار السلام والأمان

بغداد ؛ وكبار القوم يشغلون أوقاتهم بتغيير واجهات البيوت بين الفينة والأُخرى ؛ ويقومون بتقديم الجديد من الزخرفة للعمارة ؛ والمزيد من التزيين ؛ والحفاظ على مظهر العظمة السياسية والاقتصادية ؛ وربما العسكرية . المُشكلة : مُشكلة الفراغ ؛ والقضيَّة : هى قضيَّة البحث عن الجمال فى الصورة ؛ وتجسيمها على العُمران ؛ والصورة فى مشاهد الحياة وفى علاقة الإنسان بالحيوان - البهائم والأنعام وغيرها - ؛ وبالناس الذين لم يعرفوا من أين تُؤكل الكتف ؛ وكيف يحصل المتسلقون على الأموال والثروات الكثيرة المهولة : مما يفتح نافذةً خفيَّةً على الوجه الباطن للدولة العباسيَّة ؛ لينكشف بالموقف والصورة الوجه القبيح للمُجتمع المبنىِّ على ترف نُخبةٍ واسعةٍ من الناس ؛ لكنها لا تلتفت لأولئك الذين يَكِدُّون على حساب كرامتهم الاجتماعيَّة ومكانتهم العلميَّة والأدبيَّة ابتغاء الحصول على لُقمة العيش المسروقة لِمُتع هؤلاء .

إنها الصورة العميقة التى تُبرز الخلخلة الطبقيَّة فى بِنَى المُجتمع ؛ ذلك أن الفُقراء من أهل العلم لا يجدون تكريماً لعلمهم كما أوجبت رسالة البلد الحرام ؛ وذلك لقيام الفوارق بين الناس على أساس العلم والعمل الصالح ؛ وليس على أىِّ أساسٍ آخرٍ ؛ بَيْدَ أن النظام العباسىَّ يُقدِّم الأُسرة على الفكرة ؛ والمال على العلم ؛ وقيمة كل امرئٍ ما يملكه ؛ وليس ما يحسنه !! .

لعلَّ خُلاصة فكرة المقامة تقوم على أن مكانة أهل العلم والأدب تدنَّت فى هذه المدينة ؛ وصار العالم أو الأديب يعمل قَرَّاداً ليكسب وفراً وغنىً

فـى الحيـاة ؛ ومبنى الفكـرة يقـوم علـى اخـتلال المـوازين بـين قـيم البلـد الحرام فى صورتها المُثلى أو الافتراضيَّة المُتسلِّطة على الأرواح والأنفس ؛ وقيم المدينة العزيزة بقُوَّتها ومالها وسُلطانها على الأبدان والشهوات والثروات (دار السلام) .

وبهزيمة العلم فى الدولة وهزيمة العمل المُنتج تُطِلُّ بشائر السُّقُوط وعـلامـاتـه .

فالمقامات تبعث بصفَّارات الإنذار لذوى السُّلطان ؛ لعلَّهم يستيقظون لما يجرى حول قصورهم وفى أعماق مجُتمعاتهم مما تخُفيه الصدور الغالبة على بطانتها ؛ والشعوب المغلوبة على غالبيها .

لكن :

ـ كيف عَبَّرَ بديع الزمان عن الفعل السردىِّ فى المقامة ؟ .

ـ وكيف صوَّر المشهد الدال على ما أراده ؟ .

ـ وما علاقة عيسى بن هشام بهؤلاء الناس ؟ .

ـ وما علاقته بالقَرَّاد ؟.

ـ وكيف وصل بالمقامة إلى مغزاها القائم فى بنية المجُتمع المُفتقر إلى من يقوم لمُعالجة أوضاعه وبُنيانه على مستوى فهم الديانة ومُستوى وعى الحركة العلميَّة والنفسيَّة للمجتمع؟ .

ـ مشهدٌ من دار السلام :

عرض بديع الزمان موضوع المقامة مقروناً بحركة الزمان والمكان والإنسان ؛ واتخذ له مركباً على جناح مشهدٍ حيٍّ ؛ كأنه عين آلة تصويرٍ للرائى ؛ تنقل الصور حيَّةً مُتحرِّكةً ؛ وترصد الحركات والهمسات والأصوات ؛ مُثيرةً الضحك والتفكُّر والشُّعور بالبهجة مقرونةً بالمرارة ؛ وذلك فى تعبيره عَمَّا جرى أمام عيسى بن هشام ؛ وبحضرته ومشاركته ؛ وذلك بقوله :

« إذ انتهيتُ إلى حلقةِ رجالٍ مُزدحمين ؛ يلوى الطَّربُ أعناقَهم ؛ ويشقُّ الضحكُ أشداقَهم .

فساقنى الحرص إلى ما ساقهم ؛ حتى وقفتُ بمسمعِ صوتِ رَجُلٍ ؛ دون مرأى وجهِهِ ؛ لِشِدَّةِ الهجمةِ ؛ وفرط الزَّحمةِ ؛ فإذا هو قَرَّادٌ يُرقصُ قردَهُ ؛ ويُضحكُ مَن عندَهُ ؛ فرقصتُ رقصَ المُحَرَّج ؛ وسرتُ سيرَ الأعرج ؛ فوق رقاب الناس ؛ يلفظنى عاتقُ هذا لِسُرَّةِ ذاك ؛ حتى افترشتُ لحيةَ رَجُلين ؛ وقعدت بعد الأين ؛ وقد أشرقنى الخجلُ بريقهِ ؛ وأرهقنى المكان بضيقهِ ؛ فلما فرغ القَرَّاد من شُغله ؛ وانتفض المجلس عن أهله ؛ قمتُ وقد كسانى الدَّهَشُ حُلَّتَه ؛ ووقفت لأرى صُورته ؛ فإذا هو ـ واللهِ ـ أبو الفتح الإسكندريُّ !! .

فقُلتُ : ما هذه الدناءةُ ويحَكَ ؟!!

فأنشأ يقول :

الذَّنْبُ للأَيَّامِ لا لِى

فَاعْتِبْ عَلَى صَرْفِ اللَّيَالِى

بِالحُمْقِ أَدْرَكْتُ المُنَى

وَرَفَلْتُ فِى حُلَلِ الجَمَالِ »» .

المشهد قائمٌ فى ساحةٍ من ساحات بغداد ؛ مُؤلَّفٌ من رجالٍ مُزدحمين ؛ مأخوذين بخِفَّة الطرب والفرح ؛ فالطرب تجده فى أعناقهم المُلتوية يميناً أو شمالاً ؛ والفرح ظاهرٌ فى ضحكاتهم ؛ وهُم فى نشوةٍ من مشهدٍ يشهدونه ويلتفون حوله ؛ ويتدافعون من أجل الإطلالة على السَّاحة لتكون العين واقعةً من قُربٍ على المشهود من المشهد .

لَمَّا رأى عيسى بن هشام حرصهم على التزاحم والمشاهد ؛ رصد الطرب فى أعناقهم المُلتوية ؛ والضحك فى أشداقهم ؛ فتحرَّكت أشواقه ؛ وتطلَّعت نفسه إلى معرفة ما أثار هذه الجموع ؛ فاتخذ سبيله إلى وسط الحلقة ليعرف سِرَّ هذه الزحمة ؛ وشِدَّة الهجمة على وسط الحلقة ؛ فوصف لنا سيره ومشهد حركته بأنه يُشبه الراقص الأعرج ؛ لأنه لا يستطيع أن يستدير فى حركة وركيه ؛ فإذا أراد اليمين دفعه من حوله إلى الشمال ؛ وإذا أراد الشمال دفعوه نحو اليمين ؛ وإذا أراد التقدُّم دفعوه نحو الخلف ؛ ولو أراد الخلف دفعوه نحو الأمام : لِشِدَّة الزِّحامِ وحرص الجميع على ما حرص عليه .

ثم عاد ليُفصِّل لنا سَيْرَهُ هذا : بأنه يضع رجله على الأرض فإذا به يَحُسُّ بحركة عاتق رجل كان قد اتخذ الأرض انكباباً على وجهه ؛ فيدفع قدم عيسى ابن هشام بعاتقه ؛ فيرفعها مُتقدِّماً أو مُتأخِّراً ؛ فإذا بها تقع على سُرَّةٍ بطن رَجُلٍ آخرٍ ؛ كان مُستلقياً من شِدَّة الطرب والفرح على قفاه ؛ ليصرخ من ألم

القدم التى وقعت عليه ؛ ثم يرفعها لتفترش لحية رجلين اجتمعتا كما لو أنهما لحية رَجُلٍ واحدٍ ـ وتصور ذلك يحتاج منك أن تتصور حال اضطجاع أحدهما على جانبه الأيمن على جهةٍ من التوازى والتلاقى بين الرأسين ؛ وقد وضع الآخر رأسه مُقابل رأس صاحبه وهو مُضطجعٌ على جنبه الشمال ؛ وأخذ كُلٌّ منهما يُعبِّرُ عن الطرب الذى أصابه والفرح الذى لحق به ؛ ولا يُمكن أن تبلغ حال الطرب والفرح مبلغها من غير تصور فكرة شُرب النَّبيذ الذى استباحه بعض فقهاء بغداد فى تلك الأزمان ؛ إضافة لحضورهم هذا المشهد المشهود ـ .

أرَادَ أن يُبيِّنَ شيئاً غريباً فى حياة المدينة عندما شَبَّهَ نفسه بالكلب المُطوَّق المُدلَّل الَّذِى يُزيِّنُهُ أصحابه بأطواقٍ من الجواهر الثمينة ؛ وهو تشبيهٌ ماكرٌ بالمدينة وأهلها ؛ وحقيقتها الجوفاء ؛ وضجيجها الفارغ الذى تَبيَّنَ له فى نهاية المطاف بعد أن أقعده التعب وبذل المجهود عن السعى ؛ وسمع صوت قَرَّادٍ دون أن يتمكّن من مُشاهدته ؛ وكان يُرقص قرده ؛ ويُضحك من عنده ؛ فاستبان له تفاهة اهتمام المُترفين من أهل المُدُن ؛ ودنو هِمَّتهم عن معالى الأمور ؛ وانشغالهم بقضايا الزينة والشكل على حساب الحقيقة والجوهر ؛ فكأن الكلب المُطوَّق صورة اقتبستها المُدُن المترفة فى أوربا والغرب من حياة المدينة العربيَّة التى لا نعلم من أين اجتذبتها إليها ؟!! ؛ ذلك أن الكلب ممنوعٌ معاشرته على أهل المدينة العربيَّة الإسلاميَّة ؛ ومسموحٌ به للأعراب فقط يحمون به أغنامهم ومواشيهم(٢٦) ؛ فليس من سمة المدينة العربيَّة تربية

الكلاب ؛ ولا الاهتمام برقصة القرد من هَمّ أهل المُدُن العربيَّة وَهَمّ الذين حملوا أمانة الحضارة والمدنيَّة للأُمم والإنسانيَّة ؛ بَيْدَ أن المُؤلِّف أراد أن يُظهر لحظات السُّقوط والعوامل المُساعدة لها ؛ ليجتنبها من يستطيع وقف دواعى السُّقوط أو الانهيار ؛ لكنها صيحةٌ فى وادٍ !! ؛ ذلك أن وعى فردٍ لا يستطيع أن يُوقف سقوط القطيع ؛ ولا كسر غريزته الراغبة بالسقوط .

خرج بنا الرَّاوى (قناع المُؤلِّف) من المشهد وانقضائه ؛ وانصراف أهله إلى مُواجهة الشخصيَّة المجهولة التى جلبت بعقلها وذكائها وفطنتها انتباه الجماعة أو الدهماء إلى ما تُحِبُّهُ وتشتهيه ؛ وما تُوجبه أطوار السُّقوط الحضاريّ من وسائل اللهو والعبث بالزَّمن والطاقة والحياة .

إنه أديبٌ أو عالمٌ ترك أدبه وعلمه ؛ وسار إلى اقتناص الرِّزق بغضِّ النظر عن تفاهة الوسيلة وجُرم ترك الاختصاص ؛ ذلك المشهد الذى يَرُوعُكَ فى أمسه عاد اليوم إلى عالمنا العربيّ ؛ فما أشبه اليوم بالبارحة !! .

فعلامات السُّقوط واحدة ؛ والنتائج المُنتظرة قادمة ؛ وصاحبنا الذكيُّ البطلُ الإعلاميُّ الذى قاد الناس من طربهم ولهوهم جاهزٌ لاقتناص حَقِّهِ ومالهِ من فضلات أيدى المُترفين .

وَيَرُدُّ المُؤلِّف المسؤولية إلى الشُّرُوط الاقتصاديَّة التى أغنت طبقة المُترفين وذوى الاختصاصات التافهة التى تشغل غرائز القطيع ولا تُحرِّك قلوبهم أو عقولهم للأُمَّة ومُستقبلها ؛ أو مُتابعة النُّهوض ؛ أو حراسة البناء وصيانته من عوامل الحتِّ والتعرية .

إنه أبو الفتح الإسكندرىُّ : ترك طريق العلم أو طريق الفقر ؛ وعمل بصنعةٍ يراها أهل فَنِّهِ تافهةً ؛ لكنها جعلته ينتقل من شِعارهم : ((زَادُ العُلَمَاء : خُبْزٌ وَمَاء)) ؛ إلى أن صار يَرْفَلُ بالجمال والخير .

بهذا المشهد كُلّه أراد حقيقةً أثبتها عَلِىُّ بْنُ أَبِى طَالِبٍ ـ كَرَّمَ اللهُ وَجْهَهُ ـ عندما قال مُوضِّحاً أسباب اختلال القيم باختلال توزيع الثروة فى الأُمَّة ؛ بقوله الخالد : ((مَا جَاعَ فَقِيرٌ ؛ إلاَّ بِمَا مُتِّعَ بِهِ غَنِىٌّ)) . (٢٧) .

هذه العبارة العَلِيَّةُ تُعَدُّ زُبْدَةً ؛ تسعى المقامة بمخيضها إلى إثباتها بخُلاصة خاتمتها التى جاءت شعراً ؛ مُنحرفةً عن نقد سياسة الدولة ؛ راميةً نبالها جهة الأيَّام والليالى القاهرة بتقلُّبها ؛ ومُشيرةً إلى المُعضلة الاقتصاديَّة ؛ مُعضلة الغِنَى والفقر ؛ التى تُعَدُّ أساساً لإصلاح السُّلوك أو إفساده ؛ من غير اقتضاءٍ حتمىٍّ .

ـ ختام المقامة :

جَدَّدَ بديع الزمان فى بِنْيَةِ النَّصِّ عند العرب عندما جعل أفكار النَّصِّ وخيوط حركته الفنيَّة تجتمع وتتكاثف قُوَّتُها فى نهايته وليس فى مطلعه على طريقة العرب فى قصائدهم ؛ فقد تقرَّبَ إليهم بأخذه التسمية طريقةً والإسناد أسلوباً للسرد أو الحكى ؛ والمقامات قُبَالَة المنازل عند العرب ؛ وهى مؤقتة مثلها لا تدوم ؛ وإن كان أهلها ثابتين ثبات شخصيتى عيسى بن هشام وأبى الفتح الإسكندرىِّ من جهة المثال الإنسانىِّ ؛ غير أن المواقف والأحوال

والمشاعر والمقامات والأقوال : كُلُّ ذلك يُصيبه التغيُّرُ كما في المقامات تماماً .

وطبيعة الانتقال في المقامات قائمةٌ من مدينةٍ إسلاميَّةٍ إلى أُخرى على خلاف تنقُّل المنازل عند أهل البادية من أرضٍ أصابها المَحْلُ الطبيعيُّ إلى أرضٍ أُخرى فيها كلأٌ وماءٌ ؛ أي من بَرِيَّةٍ إلى أُخرى ؛ غير أن مَحِلَّ المقامة هو المدينة الإسلاميَّة ؛ وآفاتها مُتعدِّدةٌ ؛ لكنها من صُنْعِ الإنسان وقُوى المال وطُغيان السُّلطان ؛ وليست من قسوة الطبيعة أو مَحْلِ المكان ؛ المُهِمُّ أن المقامة خُتِمَت ببيتي شعرٍ ؛ جمعا خُلاصة ما جرى ومغزاه ؛ خلافاً للقصيدة العربيَّة ونصِّ الإنشاء العربيِّ الذي يجعل جِمَاعَ النَّصِّ في مطلعه ؛ ويترك الخاتمة مفتوحةً للحياة والتغيُّر والإضافة والحذف ؛ وليس ضربة لازبٍ أن تُختم المقامة بالشعر ؛ فقد تُختم بغيره من غير تغيُّرٍ لوظيفة الخاتمة .

- سرديَّة المقامة :

المراد بسرديَّة المقامة : طريقة بنائها : فكرةً ؛ ولُغةً ؛ وموضوعاً : مما يجمع ما تقدَّم قوله بإيجازٍ ؛ ويُضيف إلى ذلك آية وحدة النَّصِّ وتناسُبه لُغةً وفكرةً وبناءً .

أما سرديَّة بنائه فكراً ومنهجاً : فقد أوضحنا ذلك بأن منهجه في كُلِّ مقامةٍ يقوم على الخطوات الآتية : تسمية المقامة أو عنوانها ؛ وإسنادها إلى عيسى بن هشام ؛ وتحديد زمانها ؛ ومكانها على وجه عامٍّ أو خاصٍّ ؛ وحال الراوي ؛ وحال المكان ؛ والموقف الذي يحمل الغموض يعرضه بمشهدٍ من حياة المدينة

نفسها أو فى الطريق إليها ؛ ثم الكشف عن الشخصيَّة التى تجمَّع الناس حولها ؛ وهى شخصية أبى الفتح الإسكندرىٍّ ؛ ويكشف عن سِرِّ موقفه وغرابة سلوكه ؛ ويختم المقامة على لسانه ؛ أو على لسان الراوى نفسه .

وأما ترتيب النَّصِّ وتلاحقه ؛ فلم يكن له من وسائلٍ خارجيَّةٍ سوى الإسناد والعنوان ؛ وقد بيَّنا وظيفة كُلٍّ منهما من قبل ؛ وكأنه استغنى بهما عن براعة الاستهلال التى تجعل مُقدِّمة النَّصِّ مُتضمِّنةً الإشارة الواضحة بلُطف لا يكاد يخفى إلى موضوعه ؛ لكنه بدأ بتقديم شخصيَّة الراوى الذى اندفع يسرد علينا ما جرى له بعد عودته من البلد الحرام ؛ وقرن ذلك بحاله وحال الزمان والمكان والمدينة : الواجهات العُمرانيَّة والسُّكَّان .

وأظهر ضعف شخصيَّة عيسى وقُوَّتَهَا النسبيَّة ووعيها الزَّائف أمام سُقُوطها وَسُلُوكها ؛ على أنها نفسٌ لوَّامةٌ تتعقب السقوط ولا تسبقه ؛ وهُنا موقع سقوطها وورطتها ؛ ليُبدى لنا أن حركة الحضارة جماعيَّةٌ لا ينفعها وعىُ القِلَّة إذا غاب الوعىُ عن ذوى القُوَّة الماليَّة والسُّلطة الحاكمة فى المدينة ؛ لأن ما دونها تَبَعٌ لها فى الحركة الحيَّة المُنتجة .

فهو قد جَدَّدَ بالهجوم المُباشر على حكاية المقامة أو الجلسة التى حملت الموضوع والفكرة والقضيَّة - أو أزمة المدينة إنساناً وعُمراناً ؛ ظاهراً وباطناً ؛ حاضراً ومُستقبلاً - ؛ وكان قد ربط حركته بحركة المدينة ؛ ففى قُفُولِهِ انضم إلى موكب اللهو فى المدينة قبل الوصول إلى بيته .

وكان من براعته : اختزال الحركة الاجتماعيَّة بتمامها بهذا المشهد المُجمل الذى اقتطعه من حياة المدينة العباسيَّة ؛ إنها عبقريَّة تكثيف المواقف والسُّلوك ؛ والقُدرة على الإيحاء بالكثير من هذا القليل .

- سرديَّة اللُّغة :

وأما سرديَّة اللُّغة وتسلسُلها ومُناسبتها للحكاية وموضوعها وشخصيَّاتها ؛ فهى موضوعٌ واسعٌ ؛ نُوجزُ بعض وجوه دراسته بالإلماحِ إلى عبقريَّة الاختيار لأساليبه اللغويَّة ؛ وعبقريَّة تسمية الشخصيَّات الإنسانيَّة والمكانيَّة والحيوانيَّة فى هذه المقامة ؛ ووظيفة الاختيار تُبْرِزُ حِذْقَ بديع الزمان فى تكوين نَصِّهِ الإبداعىِّ والتعليمىِّ والتربوىِّ .

اللُّغَةُ هى مادة السرد ؛ وهى اختيار المُؤلِّف المُتعلِّق بوحدة أهدافه التعليميَّة والتربويَّة معاً ؛ وهى وعاء المنهج والفكرة والبناء الفنىِّ كُلِّهِ فى هذه المقامة .

تبدأ دراستها بدراسة الأساليب اللغويَّة الخبريَّة والإنشائيَّة ووظائفها البلاغيَّة المُؤثِّرة فى المُتلقِّين ؛ من غير إغراقٍ فى هذا الأمر التعليمىِّ ؛ حتى لا تفقد الدراسة شيئاً من أهدافها فى الإيجاز ؛ لأن الاجتزاء بالقليل عن الكثير يَدُلُّ عليه ؛ ويُمَهِّدُ السبيل إليه .

فى بدء السرد قال عيسى بن هشام :

« بينا أنا بمدينة السلام ؛ قافلاً من البلدِ الحرام ؛ أميس ميسَ الرَّجلة ؛ على شاطئ الدِّجلة ؛ أتأمل تلك الزخارف ؛ وأتقصَّى تلك الطرائف ؛ إذ انتهيتُ إلى حلقة قومٍ ... » .

بدأ بالظرف الدال على الزمان ؛ ولفظه « بينا » ؛ وهو ظرفٌ لا يُضاف إلاَّ إلى مُتعدِّدٍ ؛ فى إشارةٍ ذكيَّةٍ منه إلى عرض شخصيَّته فى سياق حركة الزمن وتعدُّد لحظاته ؛ ذلك أن سياق الكلام يجعلها دالَّةً على الزمان ؛ فهو بين زمنٍ ماضٍ ؛ وزمانٍ قادمٍ يغمره فى حركته ليتولَّى نحو الماضى المُنقطع عن الحاضر .

والظرف هو (بينَ) ؛ والألف التى كانت فى آخره جعلها العُلماء إشباعاً للفتحة ؛ ولعلهم جعلوها حاجزاً صوتيًّاً يفتح باب الظرف إلى ضمير الرفع (أنا) ؛ وهو من جهة اللفظ مُفرد الدلالة ؛ فلا يقبل إضافة ما قبله إليه ؛ لكنه باعتبار الجُملة يقبل أن تُضاف الجملة إلى الظرف ؛ وفائدة هذا محصورةٌ عندنا بالوظيفة التى تخيَّرها المُؤلِّف ؛ فقد جعل الزمن وعاءً للإنسان والحدث والأحوال النَّفسيَّة والعقليَّة والفعل السردىِّ ؛ يشتبك فى جذوره اللغويَّة بمعانى الوصل والفراق ؛ إيحاءً بالدلالة المُعجميَّة للفظ (بين) ؛ فهو كان موصولاً بالبيت الحرام ؛ ثم انفصل بالحركة المكانيَّة والزمانيَّة عنه ؛ ووصل إلى دار السلام بعد هجرٍ وانقطاعٍ .

وفى لفظ (بين) معنى الحركة السياقيَّة لشخصيَّة الراوى فى حركةٍ زمانيَّةٍ ومكانيَّةٍ ونفسيَّة وحضاريَّة .

المُهِمُّ فى هذه الرُّؤية :

أن الحركة فى الزمان والمكان ورؤية الشخصيَّة مُتناغمةٌ من غير ثباتٍ على شىءٍ من المواقف التى يعرضها فى هذا السياق .

وفى اختياره هذا الأسلوب الشبيه بالشرط من حيث حاجته لجملتين تكون إحداهما إجابة للأخرى من غير أن تكون مترتبة عليها كجملتى الجواب والشرط ؛ وجعل هذا الأسلوب حاملاً معنى المفاجأة له بحال المدينة عمراناً وإنساناً على قِصَرِ المُدَّة التى قضاها فى البلد الحرام أو طولها ؛ مهما تكن قد طالت فى حِسِّهِ دون شعوره ؛ فإن حركة التغيير تُعَدُّ مدهشة ومفاجأة له ؛ فكان تعبيره بالجملة الظرفية الشبيهة بالشرطية فى شكل بنائها عاملَ ربطٍ للمشهد والفكرة ؛ حتى تكاد تكون المقامة نفسها قائمة على هذه الجملة المركزية « بينا أنا ... ؛ إذ... » .

صحيحٌ أن الجواب عن « بينا ؛ وبينما » بـ « إذ ؛ أو إذا » لا يُعَدُّ أفصح لغات العرب ؛ بَيْدَ أنه فصيحٌ ومسموعٌ عنهم كثيراً ؛ وهو فوق ذلك جِسْرٌ لربط الفكرة والصورة والمشهد فى هذه المقامة ؛ طوَّلهُ المؤلف من غير إملال ؛ بأساليب العطف ؛ والصفات .

وأما الجملة الأولى التى جاءت بعد ظرف الربط : « بين » ؛ ووعاء الحدث : الإنسان « عيسى بن هشام » ؛ والمكان : « دار السَّلام » ؛ فهى الجملة السرديَّة

الأولى التى بدأها بقوله : ((أنا بمدينة السلام)) ؛ ولك أن تُعلّق الظرف حيث شئت ؛ فأطال مداها بحالٍ مُشتقّةٍ (قافلاً) ؛ تندمج الفعلية الراكنة إليها برائحة الفعل (قفل) بصورةٍ اسميَّةٍ مُنحرفةٍ عن الفعل قليلاً إلى اسم الفاعل (قافلاً) : مُوحياً بعلاقة زمن الحال المُصاحبة حركة الشخصية التى تتكلم : وهى شخصيَّة الراوى عيسى بن هشام ؛ التى تُعَدُّ قناعاً للمؤلف ؛ يخفى سرده ويجعلها جُزءاً من السرد نفسه ؛ ومن الحدث والموضوع ؛ وهى حاملةٌ معنى الصفة المُؤقَّتة القابلة للزوال والانقضاء .

لم يكتف الراوى ببيان حاله قافلاً من البلد الحرام ؛ بل أراد أن يكشف عن أثر الرحلة فى نفسه وروحه وسلوكه ؛ فانتقل يصف حاله من غلبة الاسميَّة التى تعنى التوكيد والثبوت للحدث فى الزمان والمكان ؛ إلى وصف حاله النفسيَّة بصيغة الفعل : ((أميس ميس الرِّجلة ؛ على شاطئ الدِّجلة ؛ أتأمل تلك الطرائف ؛ وأتقصَّى تلك الزخارف)) ؛ مما يُعطى الحال وحدة التعلُّق بصاحبها الراوى ؛ ويُظهر طبيعتها النفسيَّة المُتغيِّرة بتغيُّر زمن الفعل وطبيعة الحدث ؛ وفيه تجد التعبير بالمحسوس ((أميس)) و((أتأمل)) و((أتقصَّى)) تتناول الجانب المادىّ والعقلىّ من صاحب الحال ؛ فَبَدَنُهُ كُلُّهُ يميس إشعاراً بالخِفَّة والفرحة بالوصول ؛ حتى إنه يستشعر روعة الولادة من جديدٍ ؛ فيشبه حاله بحال البقلة الطريَّة التى نبتت على ضفاف نهرٍ خصب العطاء كدجلة العرب .

وأظهرت الحال الحسيَّة بقوله : « أتأمل » مشاركةَ البصر والعقل والتفكُّر والتدبُّر بموضوعٍ جديدٍ هو حال واجهات البيوت فى دار السلام ؛ فكأنه يجعل تطهُّره بزيارة البيت الحرام سبباً للتفرُّغ والتفكُّر بالزينة والتغيُّر والتطور الذى أصاب المدينة (بغداد) فى غيابه القصير ؛ وكأن تحرُّر النفوس يقود إلى انطلاق الحسِّ نحو العقل وَعُرَاهُ القويَّة ؛ فذهب بحواسه يبحث عن عناصر الجِدَّة مُتفكِّراً بها وبأسبابها ؛ وشرع يملأ أعماقه بهذه الزخارف وما تحمله من أسرار المجتمع المُترف ؛ وما تعنيه من أثرٍ على مُستقبل الأُمَّة ؛ فكان الربط بهذه الجمل الفعلية : « أميس ميس الرجلة » ؛ « أتأمل تلك الطرائف » ؛ « وأتقصَّى تلك الزخارف » .

إضافة إلى الحال المُتقدِّمة عليهما بصورتها الاسميَّة التى تحمل رائحة الفعل (قافلاً) ؛ فهذه الأحوال مشدودة إلى صاحبها ؛ مُظهرة أحواله النفسيَّة ؛ وأثرها فى حركته الجسميَّة : « أميس ميس الرجلة » ؛ وحركته البصريَّة « أتقصى » ؛ وحركته العقليَّة « أتأمل » .

فهو قد جعل الحال اسميَّةً مَرَّةً ؛ وفعليَّةً مراراً ؛ وكان بذلك مُوفَّقاً فى تعبيره عَمَّا تَمَّ وانقضى بصيغة الحال الاسميَّة (قافلاً) : لِيَدُلَّ على ثُبُوت الأمر وتحقُّقهِ وانقضائهِ ؛ ثُمَّ أَرْدَفَ ذلك بالتعبير عن أحوالٍ كانت ما تزال مُستمرَّةً فى حياته ؛ فعبَّرَ عنها بالجُمل الفعليَّة ؛ مُتخيِّراً المُضارع : لِيَدُلَّ به على الحركة الزمنيَّة والاستمرار للحال العقليَّة والنفسيَّة ؛ فجعل لكُلِّ حالٍ ما يناسبها من التعبير .

انتقل بعدئذٍ إلى نتيجة ذلك التأمُّل ؛ فإذا هى مُفاجأةٌ فى صورة المجتمع ؛ بعد أن تفاجأ بحركة العُمران وازدياد ظواهر التَّرف وطُغيانها على شوارع المدينة .

فكانت المفاجأة مقرونة بقوله فى جملة الجواب :

« إذ انتهيتُ إلى حلقةٍ رجالٍ مُزدحمين ؛ يلوى الطرب أعناقهم ؛ ويشقُّ الضحكُ أشداقهم ؛ فساقنى الحرص إلى ما ساقهم ؛ حتى وقفت بمسمع صوت رَجُلٍ ؛ دون مرأى وجهِهِ ؛ لِشِدَّةِ الهجمةِ ؛ وفرط الزَّحمةِ ؛ فإذا هو قَرَّادٌ يُرقصُ قردَهُ ؛ ويُضحكُ مَن عندَهُ . » .

ما يجمع جملة الجواب إلى جملة السبب قبلها : هو الوقت ؛ بل سرعة الوصول إلى المفاجأة فى المدينة ؛ فصارت جملة السبب أو الحال - على تعدُّد الأحوال فيها وتنوُّعها - تَدُلُّ على تكثيفٍ وحشدٍ وإيجازٍ ؛ وقدرةٍ على شِدَّةِ الربط بالأحوال بين الجمل الفعليَّة وصاحبها ؛ مما يجعلها برُتبة المُفرد عند تقدير المعانى ؛ فكأنها لِشِدَّةِ تماسكها وقوة ربطها جملة واحدة ؛ والتراخى فيها جاء بعطف جملة « أتقصَّى » على جملة « أتأمل » ؛ ولو تنبَّهت إلى أن « أتأمل » جملة فعليَّة حاليَّة من باب تعدُّد الحال ؛ وجعلتها برُتبة اللفظ المفرد من الجملة : كان المعطوف عليها بالفعل « أتقصَّى » تراخياً فى ربط اسم باسم وليس جملة بجملة ؛ على وحدة التعلُّق بصاحب الحال - وهو الراوى ؛ أو قناع المؤلف - .

ثم عاد بالظرف (إذ) : ليُعلّق الجميع بالزَّمان ؛ من غير أن يترك تعلُّق الأمر بواقعٍ هو المكان ؛ وترك لِقُوى النَّفْسِ أن تَبُثَّ انتشارها فى الجهات جميعها ؛ ويُعطيها وحدة الزمن المُقترن بالسرد والحدث معاً ؛ فكأنه لم يستعد الحدث من الذاكرة ؛ بل استعاد الزمان والمكان والصورة والمشهد الذى سبقت دراسته بالحركة الحسيَّة والنُّفسيَّة من قبل : لتُؤلِّف جملة مشهد المقامة وروحها وقوامها ؛ وتكون أكثر دخولاً فى لُغة الفنِّ العالية ؛ وأبلغ أثراً فى العقول ؛ ذلك أنه مهَّد له بالتأمل والتقصِّى والنظر بعد أن جعل النفس تفرغ من نصبها ؛ وترغب فى دنياها على نحوٍ جمالىٍّ ونقدىٍّ معاً .

استطاع الراوى أن يُدمج الزمان والمكان وحاله بحدث المقامة على نحوٍ مُتَّحِدٍ ؛ وحاول الانفصال بنقل ما يراه أمامه نقلاً مغرضاً بالتوقيت ؛ ليعكس ذلك كُلَّهُ بجملة عطفٍ على جملة الجواب نفسها ؛ مما يُلِمُّ شمل العطف والمعطوف عليه فى وعاء الجواب المشدود أصلاً بجملة الإضافة إلى ظرف الزمان ؛ فكان ذلك ربطاً لموقفه مما رأى ؛ ووسيلةً ذكيَّةً للكشف عن بعض عورات المدينة الدنيويَّة بانشغال أهلها بالزينة ووسائل الترف والتبذير وما لا تدفع الحاجة إليه كتربية الكلاب وتزيينها بأطواق الذهب والفضة ؛ وسوى ذلك كالعُكُوف على قَرَّادٍ يُرقص قرده ويُضحك من عنده ؛ بغير فائدةٍ تُرجى ؛ وبضياع الوقت الذى هو فى نهاية المطاف بضاعة الله وأمانته عند الإنسان .

المُهِمُّ أن جملة الشرط والجواب وما عُطِفَ على الجواب جاءت بقوله :

« فساقني الحرص إلى ماساقهم ؛ حتى وقفت بمسمع صوت رَجُلٍ ؛ دون مرأى وجهِهِ ؛ لِشِدَّةِ الهجمةِ ؛ وفرط الزَّحمةِ ؛ فإذا هو قَرَّادٌ يُرقصُ قردَهُ ؛ ويُضحكُ مَن عندَهُ ؛ فرقصتُ رقصَ المحرَّج ؛ وسرتُ سيرَ الأعرج ؛ فوق رقاب النَّاس ؛ يلفظنى عاتق هذا لِسُرَّةِ ذاك ؛ حتى افترشتُ لحية رَجُلَين ؛ وقعدت بعد الأَيْن ؛ وقد أشرقنى الخجلُ بريقهِ ؛ وأرهقنى المكان بضيقهِ ؛ فلمَّا فرغ القرَّاد من شُغله ؛ وانتفض المجلس عن أهله ؛ قمتُ وقد كسانى الدَّهَشُ حُلَّته ؛ ووقفت لأرى صورته ؛ فإذا هو - واللهِ - أبو الفتح الإسكندرىُّ !! . » .

كان انتهاؤه إلى مجلسهم سبباً للمُشاركة فى الموقف والمشهد ؛ والتعب والإرهاق ؛ والمفاجأة لم تقتصر على عامة المُترفين ؛ بل كانت فى صاحبه الذى ترك حرفة الأدب - أو العلم - ؛ وأخذ يُرقص القرد ؛ ويشد الجمهور إلى أمرٍ تافهٍ !! .

كانت الجُملة « إذ انتهيت » بداية الجواب ؛ وكانت مدخلاً للحديث عن رجال المدينة ؛ وقد وجدهم مُتحلِّقين لغير مجلس علمٍ ؛ بل كانت حلقتهم حول قردٍ وَقَرَّادٍ ؛ ثم بعد أن وصفهم بالازدحام جعلهم كالمعروفين ؛ فأظهر أحوالهم ؛ كما كان يظهر حاله فى القسم الأول من الجملة وبالطريقة نفسها تقريباً بحفظ الفوارق التفصيليَّة ؛ ذلك أنهم يعيشون حالين ؛ هما : حال

الطرب والفرح أو الخِفَّة ؛ وحال الضحك ؛ على تفاهة الموضوع الذى اجتمعوا له ؛ فعبَّرَ عن ذلك بجُملتى الحال اللتين يُمكن رَدُّ كُلٍّ منهما إلى مُفردٍ ؛ بقوله :

« يلوى الطرب أعناقهم ؛ ويشق الضحك أشداقهم » .

والطرب : خِفَّةٌ تُصيبُ الإنسان بدواعٍ مُختلفةٍ ؛ والضحك : طاقةٌ زائدةٌ تُريدُ الخروج والتعبير بها عن مكنون النفس .

وبعد الانتهاء إلى مجلسهم ؛ عطف على فعل « انتهيت » فعل « فساقنى » ؛ فجعل نهايته إلى مجلسهم سبباً لُمشاركتهم ؛ وهُنا تبدأ الجملة الثانية التى هى الأولى باعتبار أن الحال وعطفها من الجملتين السابقتين تُؤلِّفان عطفاً للمُفرد عند التقدير والتأويل ؛ فتظل الجُمل : « فساقنى الحرص ؛ فرقصت ؛ وسرت » ؛ هى الجُمل التى ترتبط بالجُملة الأُولى لها ؛ وبضمير المُتكلِّم من جهةٍ ثانيةٍ ؛ وبجملة الجواب من جهةٍ ثالثةٍ ؛ مما يجعلها جُزءاً من تركيبٍ لفظىٍّ بسيطٍ قائمٍ على الغنى فى الدلالة والتعدُّد فى المعانى .

والجُملة الخبريَّة التى احتفت بنهاية المجلس وانفضاضه جاءت على مشهد الدهشة الذى جمع عيسى بن هشام بصاحبه أبى الفتح الإسكندرىِّ ؛ جمعتهم على الاستفهام القائم على إنكارٍ وَجُحُودٍ للرؤية من جهة عيسى ابن هشام ؛ وتهشيمٍ لحلمه بشخصيَّة صاحبه أبى الفتح ؛ وقابلها أبو الفتح بإعلانه عن رغبته فى تحقيق الغاية بغضِّ النَّظر عن الوسيلة ؛ وَرَدِّ المسؤوليَّة عن نفسه ؛ وحملها للأيَّام والليالى وتقلُّبهما له ؛ مما اضطره إلى أحسن السُّبُل

وأقصرها إلى جمع المال فى ذلك الزمان .

ومن باب دراسة لُغة المقامة يُمكن أن نلحظ اختيار أسماء الشخصيَّتين : عيسى بن هشام ؛ وأبى الفتح الإسكندرىّ ؛ ومُناسبة هذه التسمية لِكُلّ شخصيَّةٍ وطبيعتها فى سلوكها ونفسيَّتها ؛ وهو أمرٌ مُدهشٌ حقّاً إذا لم يكن من باب : ((رَمْيَةٌ مِن غَيْرِ رَامٍ)) ؛ فعيسى بن هشام فى جوهر المعنى اللُّغوىّ يعود إلى ((عيس ؛ أو : عوس)) ؛ وفيه نجد أنه مُنْبَعِثٌ من العرب ؛ ذلك من جهة دلالة العيس على الإبل العراض عند العرب ؛ ومن جهة دلالته على البياض المُشْرَب ؛ يُضاف إلى ذلك أن لفظ العيس يَدُلُّ على اليبوسة والجفاف ؛ فيُقال للزرع عند العرب : أعيس إعياساً إذا لم يكن فيه رُطب .

وبهذه التسمية تجد تردُّداً فى عروبة الشخصيَّة من جهة النسب ؛ لكن لا تردُّد فى طبيعتها العربيَّة من جهة السُّلُوك بين البلد الحرام ودار السلام ؛ ولا تردُّد فى أن موقفها القائم على نقد الواقع الجديد المُتْرَف المُنحرف عن العلم والعمل إلى اللهو والطرب هو جُزْءٌ من العقليَّة العربيَّة التى أخذت تتهشَّم على أرصفة المدينة الجديدة ((بغداد)) ؛ وفى لفظ عيسى انكفاءٌ للمُرُونة فى قِيَمِ الأجداد أمام واقع الحياة ؛ ولذلك كان من الانسجام فى السُّلُوك أن تجد التردُّد النظرىّ ؛ وتهشيم هذا التردُّد بالسُّلُوك الحىّ ؛ على ميلٍ للقيم القديمة أو الماضى ؛ وهذا جُزْءٌ من طبع العربىّ أصالةً أو ولاءً .

وأما أبو الفتح الإسكندرىُّ ؛ ففى نسبه إلى الإسكندر ما يُشير إلى جذره العجمىّ ؛ وفى تسميته بأبى الفتح إشارة إلى أن الطُّرُق مفتوحة أمامه على

غُربته ؛ وهو بحسب كونه من البلاد المفتوحة ؛ وبحسب سيره فى ضوء صوالحه وما تقتضيه : يجد السُّبُل مفتوحة ؛ ولا تعنيه المُفارقة بين المثال العربىّ والواقع المادىّ الذى يحصل عليه ؛ فرؤيته واقعيَّةٌ بمعنى أنها تتعامل مع الواقع على مرارته من غير التفاتٍ إلى المثال فى الغاية والسُّلُوك ؛ فهى شخصية مُتناسبة مع أصلها فى سلوكها وطبعها .

وفى اختيار الأسماء ضربٌ من المُناسبة بين عيسى وهشام : من جهة قابليَّة عيسى للتهشيم ؛ ومن حيث تحيُّرُه وتردُّده والفراغ الحاصل بين مثاله وواقعه .

وفى تسمية أبى الفتح الإسكندرىّ : مُبادرةٌ لتعويض المواقع ؛ بالفتح الجديد للعجم فى بنية المُجتمع العربىّ الإسلامىّ ؛ وفى المدينة خاصَّةً ؛ حيث تنكسر قيم العرب ونظرتهم إلى طرائق تحصيل الرِّزْق .

إنهما صورتان للإنسان فى المدينة : صورة من له مثالٌ ويشدُّه الواقع ؛ وصورة من له مصلحةٌ ويسعى لتحقيقها بغضِّ النظر عن تشويه المثال أو تحطيمه أو تجاوزه أو مُوافقته ؛ لأن الصالح الفردىّ مُقَدَّمٌ على صالح الجماعة ؛ والحاضر غالبٌ على الماضى والمستقبل معاً ؛ فلا حيرة ولا تردُّد فى مُواجهة الحياة عند أبى الفتح .

والجذور عند الشخصيَّتين حاضرةٌ غائبةٌ كحضورهما وغيابهما ؛ فما أعجب هذه الشخصيَّات فى المقامات كُلِّهَا على ما تُوحى به أسماؤها ؛ وليس ذلك موقوفاً على هذه المقامة وحدها .

وسأوجز دراسة لُغة المقامة بإشارةٍ صغيرةٍ إلى أساليبها البيانيَّة ؛ ولُغتها البديعيَّة التى زَيَّنَ بها البديع مقاماته عامَّة ؛ ومقامته القرديَّة خاصَّة .

أما أساليبه البيانيَّة ؛ فنتخيَّرُ بعض تشبيهاته وبعض مجاز أساليبه ؛ كقوله :

((أميس ميس الرِّجلة ؛ على شاطئ الدِّجلة)) ؛ ((ورقصت رقص المحرَّج ؛ وسرت سير الأعرج)) ؛ وَكُلُّهَا تشبيهاتٌ حُذِفَت منها أداة التشبيه ؛ لتُؤكِّد وقوع النسبة الإسناديَّة حقيقة مُطلقة الوقوع على النسبة الموضوعة ؛ وَحُذِفَ منها وجه الشبه ؛ لِتَدُلَّ على الإجمال والإيجاز ؛ وتركٍ للفُسحة لخيال المُتلقِّى فى رسم التفاصيل من خبرته السابقة .

والتشبيهات تُوحى بالضيق ؛ وتصوير الهيئة والحال ؛ وتربط وجه الشبه بالمُتعدِّد من هيئة المُشبَّه به ؛ لأنَّهُ ساق ذلك على جهة التمثيل ؛ ولك أن تربط هيئته مرَّةً بهيئة البقلة على شاطئ دجلة ؛ وبالكلب المُطوَّق ؛ وبالإنسان الأعرج فى موطن الزحام ؛ وهى تشبيهاتٌ تدور حول الراوى ؛ لكن الجماعة لم يشغلها الزِّحام عن الفُرجة ومُشاهدة القرد والقَرَّاد ؛ فذهب الراوى يُشاركها ؛ ويُصوِّرُها حيَّةً بالأفعال ؛ مُتَّخذاً المجاز العقلىَّ وسيلةً فنيَّةً تنقذ العمل من المباشرةِ إلى الحسيَّةِ إلى المُكوِّنات العقليَّةِ المُشتبكة بالقُوَّة الخياليَّة ؛ وذلك بقوله :

((يلوى الطرب أعناقهم ؛ ويشقُّ الضحك أشداقهم ؛ فساقنى الحرص إلى ماساقهم .)) .

« وانتفض المجلس عن أهله » ؛ « وقد كسانى الدَّهَشُ حُلَّته » .

فالطرب سُلطانٌ يلوى الأعناق ؛ والضحك سيفٌ يشقُّ الأشداق ؛ والحرص راعٍ يسوق رعيَّته ؛ والمجلس طائرٌ مُبَلَّلٌ ينتفض عن بَلَلِهِ ـ أى أهله ـ ؛ والدَّهَشُ أميرٌ على الراوى يكسوة حُلَّةً ؛ والمكان إنسانٌ يتفل فى حلق الراوى فيخجل من فعلته .

فالراوى أحاط موقفه بالتشبيهات على الأغلب ؛ وأحاط الجماعة بالمجاز العقلىِّ ؛ وحاول الهروب من جمعهم ليربطهم بجهاتٍ نفسيَّةٍ وحسيَّةٍ ؛ لكنه لم ينفصل من قُوَّةِ القطيع ولا سُلطانه .

وأما البديع فى المقامة ؛ فحسبك قراءة جُملته الأولى :

« بينا أنا بمدينة السَّلام ؛ قافلاً من البلد الحرام » .

ففى هذه الجملة لفظان ؛ هما : السَّلام ؛ والحرام ؛ وتخلَّصاً من شعورك بثقل اللام الشمسيَّة وَخِفَّةِ اللام القمريَّة ؛ بجعلهما : سلام ؛ وحرام ؛ وهما بالميزان الصرفىِّ على وزن فعال ؛ وهى صيغةٌ تَدُلُّ فى أصل وضعها على الحركة ؛ وفى : السلام ؛ والحرام : حركتان للرُّوح : أحدهما السلام ؛ وهى الأمان ؛ والأُخرى الحرام ؛ الحاملة معانى الخوف وعدم الشُّعُور بالأمان ؛ وهُما صُورتان تُوحيان بحركة النَّفْسِ والعقلِ والقلب ؛ لكن إلى جهتين مُختلفتين فى السَّمْت والرغبة : واحدةٌ تسعى إلى الله راهبةً من عذابه ؛ والأُخرى تسعى إلى الله راغبةً فى دُنياها غافلةً عمَّا يلقاها بعد ساعتها الحاضرة ؛ وذاك التوافق فى

الميزان الصرفىّ يُسمّيه أهل البديع : التوازن ؛ وهو هُنا توازنٌ بين حاجات الدُّنيا وحاجات الآخرة باختلاف درجة السعى نحوهما باختلاف الساعين أنفسهم ؛ فوق توافقهما فى الميزان الصرفىّ .

وهُما أيضاً لفظان يتفقان بالحرف الأخير ـ وهو الميم ـ ؛ فلهما توقيعٌ فى الأُذن ؛ وَجَرْسٌ وموسيقىً داخليَّةٌ تُنبِّهُ على وحدةٍ للحركة فى المكان من مَكَّة إلى مبلغ الغاية دار السَّلام ؛ وَلَمَّا أراد الانتقال إلى وصف حاله عند دخوله دار السلام غَيَّرَ الإيقاع ؛ فتحوَّل من الميم إلى الهاء عند السكت أو التاء المربوطة عند الوصل ؛ فكان تغيُّرُ السَّجع مُؤذناً بتغيُّرِ الفكرة من جهة حركة المعنى الجُزئيَّة المُوضحة لأطوار الفكرة الكُليَّة الخاضعة لقصدها الكُلىّ من بناء المقامة .

لم يكن السَّجع وحده مُوجباً لانتقال بديع الزَّمان باسم مدينة بغداد من اسمها المشهور عند العامة إلى اسمها المشهور عند الخاصة من عُلماء العربيَّة (دار السلام) ؛ بل كان ذلك يبغى مُراعاة التناسب بين الشخصيَّة ولُغتها ؛ فعيسى بن هشام : العربىُّ فى ذوقه وحركته فى هذه المقامة ؛ لابُـدَّ أن يأخذ بمذهب الأصمعىّ الذى كان يكره أن يُسمِّيها بغداد ؛ ذلك أن معناها بالفارسية القديمة : « هدية الصنم » ؛ أو : « عطيَّة الصنم » ؛ وكان الأصمعىُّ يُسمِّيها دار السلام : أى دار الله (٢٨) .

فالانتقال طبيعىٌّ مُناسبٌ للشخصيَّة وللموقف ؛ وليس تكلُّفاً وافتعالاً كما قد يُظن ؛ فالسَّجع هُنا مُوظَّفٌ لصالح النَّصّ : بنيةً ؛ وفكرةً ؛ وموقفاً ؛ وإيقاعاً ؛

أو موسيقىٌ داخليَّةٌ على لُغة الثقافة الوافدة ؛ وصاحبه مُتأثِّرٌ على نحوٍ عميقٍ بالفاصلة القُرآنيَّة وتمكُّنها ؛ فهو ذو وظيفةٍ جماليَّةٍ ؛ وأُخرى معنويَّة .

وكذلك الجناس الناقص الموجود بين لفظى : سلام ؛ وحرام : لاتفاقهما فى أكثر أصوات الكلمة أو حروفها ؛ ممَّا يُحقِّقُ انسجاماً صوتيَّاً ؛ ويُومئ إلى انسجامٍ فى المعانى على خلافٍ فى توجُّه الدِّلالة بين البلد الحرام ودار السلام ؛ مما يُعيدنا إلى فكرة التوازن المعنوىِّ فى التشكيل المكانىِّ وأبعاده النفسيَّة والرُّوحيَّة ؛ ذلك أن البلد الحرام عاصمة الرُّوح وَسُلَّم مِعراجها إلى السماء .

ولك أن تتصور مقدار الخوف والشُّعور بالرقابة بكلمة : ((الحرام)) : التى تعنى : الممنوع ؛ و : الرهبة من الله .

ولك أن تستشعر معانى الذُّل والانكسار عند الناس الذين قصدوا البيت الحرام ليرموا أثقالهم فيه بالاعتراف لله ؛ والتذلُّل والخضوع ؛ وإظهار أعلى درجات المذلَّة والمسكنة والخجل مما أحدثه الإنسان بسقوطه عن منهج الحَقِّ وطرائقه .

هذه الصورة للبلد الحرام ببعض أبعادها النَّفسيَّة والرُّوحيَّة والجسديَّة : اختصرها لك المؤلف وجعلها جُزءاً من ماضى رحلته ؛ وأسدل الستار عليها وجعلها جُزءاً مما مضى ؛ وترك لآثارها أن تسير إلى الله مستورة ؛ ليُبيِّن لك حركةً أُخرى تَرُدُّكَ إلى الصورة المقابلة ؛ ليكون الحاضر الذى يحياه مُوازناً للماضى القريب الذى تعدَّاه ؛ فمكَّة : عاصمة الرُّوح والقلب والصعود إلى

أعلى ؛ وبغداد : عاصمة الطرب والضحك والقُوَّة ؛ مما يجعل مكّة متوجهة بهموم الإنسان إلى السماء ؛ ويصور دار السلام على أنها دار الله التى يشعر فيها الناس بأمان الدُّنيا وسُلطانها ؛ كأنهم ليس وراءهم دارٌ أُخرى يُحاسَبُونَ فيها ؛ فهى دار العظمة ؛ يظُنُّ خُدَّامُها أنهم مالكوها ؛ فيتصرَّفون من غير اكتراثٍ لصوتٍ يعترض ؛ وينغمسون فى ملذَّاتها ؛ ويُضيعون أوقاتهم لا يهتمون لعدوٍّ ولا يُنصتون لُمصلحٍ ؛ فكأنهما داران :

- واحدةٌ لله : تتطلَّع للعفو ونعيم الآخرة .
- والأُخرى للناس : تتطلَّع إلى الدُّنيا ونعيمها وأمنها وسُلطانها ؛ ولا تكاد ترجو حساباً أو تخاف عقاباً ؛ مُنغمسة باللحظة الحاضرة غير عابئةٍ باللحظة الماضية أو القادمة ؛ فكأنها جنَّة المأوى .

إنه بناءٌ مُتوازنٌ بين : حالين ؛ ومكانين ؛ ونظرتين ؛ على نحوٍ يُدمج الفكرة بالبناء ؛ والبناء بالفكرة ؛ إلى حَدِّ التجانس والإدهاش من فطنة المؤلف وحضوره فى نَصِّهِ ؛ وقُدرته على تكثيف المواقف ؛ وَشَدِّ الصنعة إلى حَدِّ دمجها بالمادة المعروضة :

- لُغةً .
- وحكايةً .
- وجمالاً .

مما يكسر أقوال المُدَّعِين بانفصال الفكرة عن البناء ؛ والجمال المُحيط بها وفيها ؛ وهذه النَّتيجة عامَّةٌ ؛ يُراد بها خاصٌّ :

هو هذه المقامة ؛ ولا تنطبق على كثيرٍ من المقامات .

✪✪✪✪✪ ✪✪✪✪✪ ✪✪✪✪✪

ـ المصادر والمراجع :

١ـ أخلاق الوزيرين : لأبى حيَّان التوحيدىّ / بتحقيق : محمد بن تاويت الطنجىّ / بيروت : دار صادر : ١٩٩٢م .

٢ـ الأغانى : لأبى الفرج الأصبهانىّ علىّ بن الحُسَيْن / بيروت : مؤسسة جمال عبد الناصر للطباعة والنشر .

٣ـ الإمتاع والمُؤانسة : لأبى حيَّان التوحيدىّ / بتحقيق : الدكتور أحمد أمين ؛ وأحمد الزين / صيدا ؛ المكتبة العصريَّة .

٤ ـ جامع الأصول فى أحاديث الرَّسُول : لمجد الدين أبى السَّعادات المُبارك بن محمد « ابن الأثير الجزرىّ » / بتحقيق : الشيخ عبد القادر الأرناؤوط / دمشق ؛ مكتبة الحلوانى = ودار الملاح = ودار البيان : ١٣٩٠هـ = ١٩٧٠م .

٥ ـ حياة الحيوان الكُبرى : لكمال الدِّين محمد بن موسى الدميرىّ / بيروت = ودمشق : دار الألباب .

٦ ـ زهر الآداب وثمر الألباب : لأبى إسحاق إبراهيم بن علىّ الحُصرىّ القيروانىّ / بتحقيق : صلاح الدين هوارى / صيدا ؛ المكتبة العصريَّة / ط : ١٤٢١هـ =٢٠٠١م .

٧ ـ زهرة العمر : توفيق الحكيم / القاهرة / المطبعة النموذجيَّة .

٨ ـ شرح مقامات بديع الزمان الهمذانىّ / تحقيق : يوسف البقاعى / بيروت / الشركة العالميَّة للكتاب / ط : ١٩٩٠م .

٩ـ شرح مقامات الحريرى : لأبى العبَّاس أحمد بن عبد المؤمن القيسىّ الشريشىّ / بتحقيق : محمد أبو الفضل إبراهيم / صيدا ؛ المكتبة العصريَّة ؛ ١٤١٣هـ = ١٩٩٢م .

١٠ـ شرح مقامات الزمخشرىّ : محمود بن عُمر جار الله الزمخشرىُّ / تحقيق : يوسف البقاعى / بيروت ؛ دار الكتاب اللبنانىّ /ط : ١٩٨١م .

١١ـ صحيح مسلم : للإمام أبى الحُسَيْن مُسلم بن الحَجَّاج القُشيرىّ النيسابورىّ / بتحقيق : محمد فؤاد عبد الباقى / بيروت ؛ دار إحياء التراث العربىّ .

١٢ـ فَنُّ المقامات بين المشرق والمغرب : الدكتور يوسف نور عوض / بيروت / دار القلم / ١٩٧٩م .

١٣ـ فَنُّ المقامات فى الأدب العربىّ : الدكتور عبد المالك مُرتاض / تونس : الدار التونسيَّة للنشر / ط (٢) : ١٩٨٨م .

١٤ـ الفَنُّ ومذاهبه فى النثر العربىّ : الدكتور شوقى ضيف / دار المعارف بمصر / ط : ١٩٦٥م .

١٥ـ مقامات الزمخشرىّ وَفَنُّ السيرة الذاتيَّة : عبد الكريم محمد حسين ((نُشِرَ باسم : عبد الكريم المحمد)) / مجلة الثقافة الإسلاميَّة / دمشق / العدد : (٤٤) : ١٩٩٢م .

١٦ـ المصباح المُنير : للعلاَّمة أحمد بن محمد بن علىّ الفيومىّ / بيروت / مكتبة لُبنان / ١٩٨٧م .

١٧- مُعجم البُلدان : ياقوت الحمويُّ / بيروت / دار صادر = ودار بيروت / ١٤٠٤هـ = ١٩٨٤م .

١٨- المقامات الأدبيَّة : لأبى محمد القاسم بن عليٍّ الحريريِّ / القاهرة : شركة مكتبة ومطبعة مصطفى الحلبى البابى وأولاده بمصر / ط : (٣) : ١٣٦٩هـ = ١٩٥٠م .

١٩- المقامات من ابن فارس إلى بديع الزمان : الدكتورهادى حسن حمودى / بيروت / منشورات دار الآفاق الجديدة / ١٤٠٦هـ = ١٩٨٥م .

٢٠- المقامة : شوقى ضيف / دار المعارف بمصر / ١٩٥٤م (تاريخ المقدمة) .

٢١- مُقدِّمة ابن خلدون : عبد الرحمن بن خلدون / بيروت ؛ دار القلم / ط : ١٤٠٩ هـ =١٩٨٩م .

٢٢- نهج البلاغة : اختيار الشَّريف الرضيِّ / شرح الأُستاذ الإمام محمد عبده / تحقيق : عبد العزيز سيِّد الأهل / بيروت ؛ دار الأندلس / ط : ١٣٨٢ هـ = ١٩٦٣م .

ـ التَّعْلِيقَات :

(❁) أستاذٌ مُساعدٌ فى جامعة دمشق : قسم اللغة العربيَّة .

(١) ـ انظر : أخلاق الوزيرين : لأبى حيَّان التوحيدىّ / بتحقيق : محمد بن تاويت الطنجىّ / بيروت : دار صادر : ١٩٩٢م .

(٢) ـ قال أبو إسحاق إبراهيم بن علىّ الحُصرىّ فى وصف أُسلوب مقامات بديع الزمان:

« جُملة كلام أبى الفضل أحمد بن الحُسَيْنِ الهمذانىّ بديع الزمان .

وهذا اسمٌ وافق مُسَمَّاه ؛ ولفظٌ طابق معناه ؛ وكلامٌ غَضٌّ المكاسر ؛ أنيق الجواهر ؛ يكاد الهواء يسرقه لُطفاً ؛ والهوى يعشقه ظرفاً » .

« زهر الآداب وثمر الألباب » : لأبى إسحاق إبراهيم بن علىّ الحُصَرِىّ القيروانىّ / بتحقيق : الدكتور صلاح الدين الهوارى / صيدا : المكتبة العصريَّة / ط : (١) : ١٤٢١هـ =٢٠٠١م : (١ / ٣١٥) .

(٣) ـ شرح مقامات بديع الزمان الهمذانىّ / بتحقيق : يوسف البقاعىّ / الشركة العالميَّة للكتاب / ط : ١م / ١٩٩٠م : (٧٠) .

(٤) ـ المقامة : الدكتور شوقى ضيف / دار المعارف بمصر / ١٩٥٤م (تاريخ المقدمة) : (٤٣) .

و انظر : « الفَنُّ ومذاهبه فى النثر العربىّ » : الدكتور شوقى ضيف / دار المعارف بمصر / ط : (٤) : سنة : ١٩٦٥م : (٢٥٣) .